سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك (٣)

١٧ د.س

تَفْسِيرُ جُزْءِ قَدْ سَمِعَ

وَفَوَائِدُهُ وَأَحْكَامُهُ

استنبط الفوائد والأحكام

فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر البراك

حفظه الله

فهرس الآيات

أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك

تفسير جزء قد سمع

تَفْسِيرُ جُزْءِ قَدْ سَمِعَ

وَفَوَائِدُهُ وَأَحْكَامُهُ

ⓒ عبدالرحمن بن ناصر البراك ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البراك ، عبدالرحمن بن ناصر
تفسير جزء قد سمع. / عبدالرحمن بن ناصر البراك .- الرياض ، ١٤٤٠هـ

٣٣٦ص ؛ ١٧X٢٤ سم.

ردمك: ٤-١١١١-٨١١١-٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ.العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٠/١١١٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١١٧
ردمك: ٤-١١١١-٨١١١-٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

إصدارات مؤسسة وقف الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك (٣)

مؤسسة وقف الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك

المملكة العربية السعودية / الرياض

جوال 00966505112242

البريد الإلكتروني .... m@sh-albarrak.com

الموقع الرسمي .... sh-albarrak.com

تفسير جزء قد سمع

وفوائده وأحكامه

استنبط الفوائد والأحكام

فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر البراك

حفظه الله

فسر الآيات

أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

مؤسسة وقف الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر البراك

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد المنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلى آله وأصحابه الذين قضوا بالحق وبه يعدلون.

أما بعد..

فهذا تفسير الجزء الثامن والعشرين، جزء قد سمع، نقدِّمه لطلاب العلم ولكل مسلم يهمه معرفة كلام ربه العليم الحكيم، وقد سلكنا في تفسير هذا الجزء المنهجَ الذي أخذنا به في تفسير جزء ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وجزء ﴿تَبَٰرَكَ﴾، من بيان معاني القرآن واستنباط أحكامه وفوائده وهداياته، وتلك أجل مقاصد علم التفسير، وعليها تدور علومه، ولهذا أعرضنا عن التوسع في شرح أصول مفردات القرآن، وعن التفصيل في وجوه إعرابه وإعجازه، وبيان مناسباته، إلا ما لا بد منه لإيضاح المعاني، وبيان مأخذ الحكم، وكان القصد من ترك التوسع أن يعم النفع بهذا التفسير، وأن يكون في متناول الجمهور من العامة والخاصة؛ فالمبتدئ يجد فيه ما يحتاجه من معاني الآيات وهداياتها، والمتعلم يظفر فيه بالفوائد والنكت التي تفتح له أبوابا من علوم القرآن، وتقِفُه على أشياء من كنوزه العظيمة، والحمد لله على هدايته وتوفيقه.

وقد راعينا أن يكون هذا التفسير ـ كسابقيه ـ مجزَّأً على مقاطع مناسبة، بحيث يكون صالحا لقراءته في دروس متتابعة في المساجد، ودور التعليم، وفي المجالس العلمية، واللقاءات الأخوية وفي البيوت، كما قرئ الجزءان السابقان،

وقد حصل بذلك خير كبير، ولله الحمد والمنَّة.

وأعيد هنا ما ذكرته في الجزأين السابقين من أن أصل هذا التفسير كان مدارسات بيني وبين شيخي العلامة المتفنن أبي عبد الله عبد الرحمن بن ناصر البراك أمتع الله به، وقد استقلَّ فضيلته باستنباط فوائد الآيات وأحكامها، وكتبت أنا تفسيرها، ثم قرأته عليه، وكان له فضل في تهذيب العبارة، وتحقيق الخلاف، وترجيح الراجح، فأسأل الله تعالى لشيخنا الكبير أن يعلي قدره، ويرفع ذكره، ويطيل على الخير عمره، وأن يديم سعادته، ويبلغه في الدارين إرادته، كما أسأله تعالى لهذا التفسير أن ينفع به الطالبين ويجعله ذخيرة صالحة إلى يوم الدين، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله ومن اتبع.

وكتب

عَبْدُالمُحْسِن بن عَبْدِالعَزِيزِ العَسْكَر

سُورَةُ المجَادلَةِ

هذه السورة مدنية في قول الجمهور، وسميت سورة المجادلة، وقد اختلفت المصاحف في ضبط الدال، ففي بعضها كسرت الدال، وفي بعضها فتحت، وفي مصاحف أخرى تركت الدال دون ضبط، ورأيت هذا الاختلاف في مصاحف خطية قديمة. والذي يظهر رجحانه هو كسر الدال؛ لقوله تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِى زَوۡجِهَا﴾، ولأن المجادَلة ـ المصدر ـ ذُكر فعله في سور أخرى، فلا وجه ـ حينئذ ـ لتخصيص هذه السورة بأن تسمى بالمصدر «المُجَادَلَةُ».

وآيات السورة اثنتان وعشرون، الأربع الأولى منها في شأن المجادِلة التي ظاهر منها زوجها، وفي حكم الظهار والمظاهر، والآيتان الخامسة والسادسة في ذم الكافرين ووعيدهم وإحصاء أعمالهم، ومن الآية السابعة إلى الثالثة عشرة في النجوى والمتناجين، وبدئت بعلم الله ما في السماوات والأرض وأنه مع عباده أينما كانوا ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وختمت بعلم الله بعمل عباده ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ومن الآية الرابعة عشرة إلى التاسعة عشرة في ذكر المنافقين وبيان حالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، والآيات الثلاث الأخيرة في ذكر أعداء الله المنافقين والكافرين وأولياء الله المؤمنين ومباينتهم لأعداء الله،

ولـو كانـوا من الأقربين وأولئك المؤمنون هم حـزب الله، وهـم المفلحون، كما أن المنافقين والكافرين حزب الشيطان وهم الخاسرون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية خبرا من الله عن سمعه لقول المرأة المجادلة للرسول ﷺ في شأن زوجها الذي ظاهر منها، وفي شكواها إلى الله ما ألَمَّ بها مما تخشى عواقبه على نفسها وعلى صبية في حَجرها، وأنه تعالى يسمع التحاور الذي جرى بين الرسول ﷺ والمرأة المجادلة، ثم أخبر تعالى بأنه سميع بصير.

۞ التفسير:

نزل صدر هذه السورة بإجماع المفسرين في قصة المرأة الأنصارية التي ظاهر منها زوجها، وقد اختلفوا في اسمها، وأصح ما قيل: إنها خولة بنت ثعلبة، وعليه أكثر المفسرين، وزوجها هو أوس بن الصامت الخزرجي، وحاصل خبرها أن أوسًا رأى منها ذات يوم شيئا أعجبه فأرادها، فأبت فغضب، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه وضجر، فقال لها: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وكان هذا الظهار عندهم في الجاهلية يحرم المرأة تحريما مؤبَّدًا، فجاءت إلى النبي ﷺ تشكو زوجها، فأنزل الله هذه الآيات(١).

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده مطولا (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤)، وحسن الحافظ في الفتح (٩/ ٤٣٣) إسناد أبي داود.

وروى البخاري معلقا بصيغة الجزم والنسائي وابن ماجه وغيرهما، واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعُه كل شيء - وفي رواية عند الإمام أحمد: وسع سمعُه الأصوات - إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وتقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبِرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(١).

قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ «قد» حرف تحقيق دخل على فعل ماض، فيفيد التأكيد وتحقيق أن الله سمع كلام المرأة وأجاب دعاءها؛ لأن إضافة السمع إلى الله يأتي لمعنيين؛ الأول: سماع كل صوت خفي أو جليّ. الثاني: الإجابة، كقول المصلي: سمع الله لمن حمده، وكقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، والسمع في هذه الآية - آية المجادلة - شامل للمعنيين.

قوله: ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ أيها الرسول، أي: تحاورك وتحاجك وتراجعك ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ أي في شأن زوجها، حين ظاهر منها بقوله: أنت عليَّ كظهر أمي، فجعلت تراجع النبي ﷺ، وتكرر القول في أن تعود إلى زوجها ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: تتضرع إلى الله خائفة من الفرقة وترجو الفرج، فهي في كرب عظيم، كما يدل عليه قوله: ﴿وَتَشْتَكِيٓ﴾، وهو أبلغ من تشكو؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وهذه الجملة عطف على قوله: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، وفي الآية دليل على أن من

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٨٩)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢٠٦٣)، وإسناده صحيح. قال ابن حجر بعد أن ساق الخبر: «وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها». فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

التجأ إلى ربه وأنزل به حاجته كفاه، وإضافة المرأة إلى زوجها إشارة إلى أنها ما زالت زوجة له.

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الواو للحال، والجملة حالية، والمحاورة هي المراجعة في الكلام، أي يسمع حديثكما وتراجعكما كله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل الأصوات في جميع الأوقات، ومن ذلك محاورة هذه المرأة ومراجعتها النبي ﷺ ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل المبصرات، فلا يخفى من حالها وحال زوجها شيء على الله سبحانه.

۞ الفوائد والأحكام:

١- إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما السميع والبصير، وهما متضمنان لصفتي السمع والبصر.

٢- أن سمعه تعالى متعلق بالأقوال والأصوات، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «سبحان من وسع سمعه الأصوات».

٣- أن تعلق سمعه تعالى بالأصوات يكون وقت وجودها، لقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ فهذا خبرٌ عمّا مضى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ حكاية حال ماضية.

٤- بشارة المرأة بأن الله سمع مجادلتها وشكواها.

٥- الفرق بين الجدال والحوار، فكل جدال حوار.

٦- أنه يجوز للمستفتي أن يجادل المفتي ليلتمس له مخرجا مما وقع فيه.

٧- أن إلى الله المشتكى في الملمات والنوائب.

٨- رحمة الله بالمستضعفين وإجابته دعاء المضطرين.

٩- فضيلة هذه المرأة التي نوّه الله بها، وأنزل القرآن في رفع بلواها.

١٠- أن من بركتها أن شرع الله للأمة الكفارة في الظهار.

١١- أن من الإيجاز حذف الموصوف الذي لا يتعلق به فهم المراد، لقوله: ﴿ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ ﴾ أي: المرأة.

١٢- أن القول المطلق لا يكون إلا بنطق، بخلاف المقيّد، كقوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فإنهم لم ينطقوا به.

١٣- أن الإخبار عن سمع الله يكون عن الماضي بالفعل الماضي، وعن الحاضر بالفعل المضارع، فتقول عن حديثك مع صاحبك بالأمس: الله سمعنا، وعن حديثكما الآن: الله يسمعنا.

ثـم عاتبهـم الله على الظهار، وذمَّـه، وأكذبهم في تشـبيه الزوجات بالأمهات، فقال سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية إكذاب الله للمظاهرين من أزواجهم المشبِّهين لهنَّ بأمهاتهم، فنفَى أن يكُنَّ أمهاتهم، وعيَّـن أمهاتهم على الحقيقة، وقبَّح قولهم ذلك، ووصفه بأنه قول منكر وزور، وختم الآية بأنه عفو غفور.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾.

وقولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ أي: الذيـن يقـع منهـم الظهار، وهـو أن يقول الرجـل لامرأته: أنت علـيَّ كظهر أمي، يريد بذلك أن وطأك عليَّ حرام، كما يحرم ذلـك علـيَّ من أمي، والظِّهار مأخـوذ من الظهر، وهو موضع الركوب، فهو تشـبيه ظهر حلال بظهر محرم، فإذا قال الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي، فهو مظاهر بالإجمـاع، فتحـرم عليه زوجتـه، حكاه ابن المنـذر[1]، وإذا قال: أنـت علـيَّ كظهر أختي أو بنتي أو غيرهما من ذوات المحارم فالجمهور على أنه مظاهر.

وقوله: ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ مضارع ظاهر، أي: يحرمون زوجاتهم بتشبيههن بأمهاتهم فـي تحريمهـن عليهـم، وعدّي الفعـل بـ«مِن» فـي قولـه: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ لتضمينه

(١) الإشراف على مذاهب العلماء (٥/ ٢٨٧).

معنى يتباعدون منهن بتحريمهن، والمراد بنسائهم زوجاتهم، والنساء مفرده امرأة، فهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ ردٌّ عليهم وتكذيب لهم، «ما» هي الحجازية العاملة عمل ليس فترفع الاسم وتنصب الخبر، وهي الفصحى التي نزل بها القرآن، دون «ما» التميمية، المعنى: ليس زوجاتهم بأمهاتهم لا حقيقة ولا في حكمهن، فهذا كذب محض.

وقوله: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ إنْ بمعنى ما، وهذا تأكيد للنفي السابق، أي: ما أمهاتهم حقيقة إلا من ولدنهم من بطونهن، واللائي اسم موصول لجماعة الإناث، وهو بمعنى اللاتي.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: المظاهرين ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا﴾ عظيما ﴿مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ينكره العقل والشرع ﴿وَزُورًاۚ﴾ أي: كذبا وبهتانا، وإنما كان الظهار منكرا وزورا لما فيه من الفحش بتشبيه موطوءته بأمه المحرمة عليه مع ما لها من حق الاحترام والإكرام، ولا سيما مع ذكر الظهر، ولأنه من عادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾، ولم يجعل الإسلام الظهار طلاقا، ولا تحريما مؤبدا، بل شرع فيه الكفارة قبل المسيس عقوبة للمظاهر على ما فاه به من القول المنكر.

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ العَفُوُّ صيغة مبالغة، أي: كثير العفو، فيتجاوز عن عبده المؤمن ﴿غَفُورٌ﴾ صيغة مبالغة، وذلك لكثرة غفرانه، وكثرة من يغفر لهم؛ فإنه تعالى يمحو ذنوب عبده ويسترها متى تاب العبد منها.

وقد دلت الآية على تحريم الظهار من أربعة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾؛ فإن ذلك تكذيب للمظاهر.

الثاني: أنه سماه منكرا.

الثالث: أنه سماه زورا.

الرابع: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب وهو مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة. قاله ابن جزي في التسهيل[1].

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الظهار لا يصح إلا من مسلم؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾.

٢- أن المرأة لا يصح منها الظهار من زوجها، فإذا ظاهرت فعليها كفارة يمين.

٣- أن الظهار لا يصح إلا من الزوجة؛ لقوله: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾، فلا يصح من الأَمَة، فإن كفارة الظهار من الأمة كفارة اليمين؛ لأنه من جنس تحريم الطعام والشراب.

٤- تكذيب الله للمظاهر لقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾.

٥- أن الأصل في الأمومة: الولادة؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾، وفي حكم الوالدة: المرضعة لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣].

٦- أن الولد في المسألة المعاصرة «إعارة الرحم» للمُعِيرة التي نمتِ البُيَيْضة في رحمها؛ لأنها هي التي تلد الجنين.

٧- تحريم الظهار وأنه من كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾.

٨- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى «العَفُوُّ» و«الغَفُورُ».

٩- إثبات صفة العفو والمغفرة لله ﷻ، والعفوُ: التجاوز عن الذنب، والمغفرة: ستره.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٣٣٢).

وبعد أن بيَّن الله حقيقة الظهار، وأنه باطل عقلا وحسا وشرعا، وسماه منكرا وزورا، بيَّن سبحانه حكم الظهار إذا وقع، وما يجب على المظاهر، وما يحرم عليه، وهذا من تمام الحكمة في التشريع؛ إذْ تُعرف حقيقة الأمر أولا، ثم يُلحق بها الحكم المناسب لها، فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

اشتملت هاتان الآيتان على حكم المظاهر وما يجب عليه وما يحرم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ مبتدأ، خبره جملة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ إلخ، ودخلت الفاء في الخبر لتضمن الموصول معنى الشرط، فكأن المعنى قائم على جملة شرطية وجوابها، والتقدير: ومن يظاهرْ منكم من نسائهم - أي: زوجاتهم - ثم يعودون فعليهم تحرير رقبة.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي: ثم يرجعون عمَّا قالوا، فاللام بمعنى «عن»، أي: يرجعون عمَّا قالوا، فيريدون الوطء، ويعزمون على العود إلى زوجاتهم، هذا قول الجمهور في معنى العود، وهو الصحيح، وقيل: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي:

يعودون إلى الظهار مرة أخرى، أي: يكررون كلمة الظهار، واختاره أهل الظاهر[(١)]، ويردُّ هذا القول أن قصة خولة لا تكرار فيها للفظ الظهار، بل أمر النبي ﷺ زوجها أوسًا أن يعتق رقبة، فدلَّ على أن الكفارة واجبةٌ على المظاهر، إذا رجع عنه وعزم على وطء زوجته، ولو لم يكرر القول المنكر.

و«ما» في قوله: ﴿لِمَا قَالُواْ﴾ موصولة بمعنى الذي، وقيل: مصدرية، أي: يعودون لقولهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والصواب أنها موصولة، كما اتفق على ذلك سلف الأمة وأئمتها، وكما في نظائرِها من القرآن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]»[(٢)].

والذين قالوا إن «ما» مصدرية اختلفوا اختلافا كثيرا، واضطربت أقوالهم، وكلها أقوال باطلة، كما قال ذلك شيخ الإسلام في تفسير هذه الآية، وكون «ما» مصدرية هو أصل قول الظاهرية.

قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليهم إعتاق رقبة، أي: مملوكٍ عبدٍ أو أمة، من التعبير بالجزء وإرادة الكل، ووجه التعبير بالرقبة من جملة بدن الإنسان أن الرقيق مُشَبَّه بالأسير الذي يفك عن رقبته ويطلق، وجاء تقييد الرقبة بمؤمنة في كفارة القتل، وقاس العلماء على القتل سائر الأسباب الموجبة للكفارة بالعتق.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر، فيحرم الجماع بالاتفاق، واختلف العلماء في دواعي الجماع؛ كالقبلة والضم والمباشرة، والأحوط تجنب ذلك. والتَّماسُّ من كنايات القرآن اللطيفة عن الجماع، فهي كقوله ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿وَقَدْ

(١) المحلى (١٠/ ٥٢).

(٢) جامع المسائل (١/ ٤٠٥) تحقيق محمد عزير شمس.

أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١]، وقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ولم يذكر المَسِيس في القرآن إلا مسندا للرجال، إلا في هذه الآية فقد أسند للرجل والمرأة معا، ولم أر من تعرض له، فلعل الحكمة ـ والله أعلم ـ أن المسيس في الآيات الأخرى متعلق بالطلاق، وهو مختص بالرجال، وهو مسيس مباح، كقوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وأما في هذه الآية فالمقام مقام تحريم، وهو لازم للرجل والمرأة، فلا تحل له، ولا يحل لها.

﴿ذَٰلِكُمْ ﴾ أي: الحكم بالكفارة، وهو مبتدأ، خبره ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾، والموعظة هي التذكير بالأمر والنهي والوعد والوعيد، أي: ذلكم الحكم من الله بالكفارة تزجرون به عن ارتكاب المنكر، فإن الكفارة دليل على ارتكاب الجناية ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: عالم بجميع أعمالكم الظاهرة والباطنة، ومنها التكفير، فلا يخفى عليه شيء سبحانه، وفي هذا تنبيه على أن الله مطلع على ما يكون من المظاهرين الذين يخونون أنفسهم، فيعودون إلى نسائهم دون كفارة، وأنهم مؤاخذون على فعلهم ذاك.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ رقبة يعتقها، أو لم يقدر على ثمنها ﴿فَصِيَامُ ﴾ أي: فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ لا يفصل بينهما، ولو أفطر يوما في أثناء الشهرين من غير عذر، كسفر أو مرض، انقطع التتابع، ولزمه أن يستأنف الصيام، ولا يطأ زوجته حتى يتم صيام الشهرين، ولهذا أعيد القيد مرة أخرى وهو قوله سبحانه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ للدلالة على أنه لا يكون التماس إلا بعد انقضاء الصيام، فلا يظن أن مجرد شروعه في الصيام كاف في العود إلى الوطء.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام شهرين متتابعين لكبر أو مرض ﴿فَإِطْعَامُ﴾ أي فعليه إطعام ﴿سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ فيطعمهم ما يشبعهم، ولا يقرب زوجته حتى يطعمهم، ولم يذكر شرط عدم التماس هنا اكتفاء بذكره في الموضعين السابقين، هذا قول الجمهور. وقيل: لا يحرم التماس قبل الإطعام؛ لأن الله لم ينص على هذا القيد مع الإطعام، وقد ذكره مع العتق والصيام.

وقول الجمهور أولى؛ حملا للمطلق على المقيَّد في الآية، ولأن الإطعام قد يتهيأ له في يومه ذلك، فيكون تحريم التماس قبل الإطعام أولى.

دلَّت الآيتان على أن كفارة الظهار على الترتيب: عتق رقبة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، ولا يصير إلى الثاني حتى يعجز عن الأول، ولا ينتقل إلى الثالث إلا إذا لم يستطع الثاني.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأحكام، وهو مبتدأ، خبره: ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي: لتؤمنوا إيمانا كاملا مستلزما للعمل بالشريعة التي شرعها الله لكم، واللام للتعليل ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ أي: أحكامه التي حدها لعباده، والحد هو النهاية المانعة بين الشيئين، شبَّه ما شرعه تعالى من الأحكام بالحدود المانعة بين الشيئين، وأطلق عليها اسم الحد استعارة، لكونها حاجزة بين الحق والباطل. المعنى: خذوا أنفسكم بهذه الأحكام، والزموها، واحذروا من تعديها والاستخفاف بها؛ فإن ذلك من فعل الكافرين ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجع.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن من ظاهر من زوجته ثم عزم على مراجعتها ومعاشرتها، وهو المراد بالعود على قول الجمهور، وهو الصحيح، فإنه يجب عليه الكفارة قبل

المسيس: عتق رقبة، فصيام، فإطعام. وقيل: العود تكرار لفظ الظهار، وهو قول الظاهرية، وضعَّفه ابن تيمية بأن من كرر قولا لا يقال: عاد إليه.

٢- أن كفارة الظهار على الترتيب، فلا يجزئ الإطعام إلا من لم يجد الرقبة ولم يستطع الصيام.

٣- أنه يحرم على المظاهر وزوجته أن يتماسّا؛ فيحرم عليهما الجماع قبل فعل الكفارة بالعتق أو الصيام بالإجماع، أو بالإطعام على الصحيح.

٤- أن وجوب الكفارة موعظة من الله للمسلم لينزجر عما حرم الله عليه ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

٥- كمال علم الله بأعمال عباده.

٦- وجوب التتابع في صيام الشهرين.

٧- اليسر في شريعة الإسلام، فالواجبات فيها منوطة بالاستطاعة.

٨- وجوب استيفاء الشهرين في الصيام.

٩- وجوب استيفاء العَدد في الإطعام.

١٠- أن فعل الواجبات وترك المحرمات مما يحقق الإيمان بالله ورسوله ﷺ ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

١١- أن الواجبات حدود الله لا يجوز تعديها، وأن المحرمات حدود الله لا يجوز قربانها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

١٢- أن جحد الأحكام المذكورة في هذه الآيات كفرٌ بالله يفضي إلى عذاب الله.

١٣- إثبات جزاء الكافرين بالعذاب الأليم.

ولما أخبر سبحانه عمَّا أعده للكافرين من العذاب الأليم أتبع ذلك بتفصيل تهديدهم مما سيكون لهم في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

هاتان الآيتان تضمنتا الخبر من الله بما أصاب الكفرة المحادين له ولرسوله ﷺ من الخزي والإذلال، كما أخزى من قبلهم وأذلهم مع ما أعد لهم من العذاب المهين في الآخرة، يوم يبعثون فينبئون بأعمالهم التي أحصاها الله عليهم، وقد نسوها، هذا وقد أنزل الله من الآيات البينات ما هو حجة على الكافرين، وقطعٌ لعذرهم، والله على كل شيء شهيد.

۞ التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ تأكيد الخبر بـ «إن» يدل على عظم شأنه ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يعادون الله ورسوله، ويخالفون أمرهما، وهذه هي المشاقة لله ورسوله في قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، وإنما ذكر المحادة هنا لمناسبة ذكر حدود الله في الآية السابقة، وأصل المحادة أن يكون كل من المختلفين في حد غير حد صاحبه، أي: في جهة، كعُدْوَتي الوادي، وهو تمثيل للمتخاصمين المتنازعين، لتفظيع عملهم وتقبيح موقفهم، فهؤلاء لمَّا لم يمتثلوا أمر الله، ولم ينقادوا لشرعه صاروا محادين لله ورسوله، ولهذا جازاهم الله

شر الجزاء، فقال سبحانه: ﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أُذلوا وأهينوا، فلم يظفروا بشيء سوى الهلاك والخزي، وجاء التهديد بصيغة الماضي لتحقق وقوعه؛ لصدوره من الله الذي هو على كل شيء قدير، فهو كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] المعنى: سيُكبتون ويُذلون ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: من كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، سنةَ الله في كل من عاداه وعادى أولياءه من الأمم السابقة واللاحقة، وفي هذا بشارة للمؤمنين بظهورهم على أعدائهم الكافرين، ومن شواهد ذلك ما وقع للمسلمين في غزوة بدر والخندق وغيرهما ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ أي: والحال أنا قد أنزلنا آيات بينات أي: واضحات، فلا عذر لهم، والمراد آيات القرآن، التي تدل على صدق الرسول ﷺ، وتبين مصير المحادين لله ولرسله من الكافرين، ففي الدنيا لهم الكبْت، وفي الآخرة ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: يهينهم فيذهب عِزهم وكِبْرهم، وهذا مناسب لعذاب الدنيا، وهو الكبت، فاجتمع لهم الذلة والهوان والخزي والخسران في الدنيا والآخرة جزاء وفاقا، ولا يظلم ربك أحدا.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ «يومَ» مفعول به منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر لهم يوم يبعثهم الله جميعا، وفي هذا تهويل لذلك اليوم وتعظيم لشأنه ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي: يخبرهم بأعمالهم كلها، والضمير يعود على الكافرين، توبيخا وفضحا لهم على رؤوس الأشهاد، وهذا في مقابل تكذيبهم للرسل في الدنيا، وتباهيهم بذلك ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ الضمير يعود على العمل المفهوم من قوله: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ أي: أحاط الله بعملهم كلِّه كمًّا وكيفا وزمانا ومكانا، فلم يفت عن علمه تعالى شيء، قال تعالى مثنيا على نفسه: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ أي: نسوا أعمالهم، والنسيان على بابه، وسببه استهانتهم بها، فلا يشعرون بخطرها؛ لأنهم لا يؤمنون بعظيم إثمها ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: مطلع فلا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، والشهيد بمعنى الشاهد من الشهود، بمعنى الحضور.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن المحادة لله ولرسوله ﷺ- وهي المشاقة، وهي أشدُّ المخالفة والعصيان- من شأن الكافرين.

٢- أن الكبت سنة الله في المحادين لله ولرسله.

٣- أن جزاء الكافرين في الآخرة عذابٌ مهين.

٤- أن آيات القرآن منزلة، فالقرآن منزل، وشواهد هذا في القرآن كثيرة.

٥- إثبات علو الله على خلقه.

٦- إثبات يوم البعث وهو يوم القيامة.

٧- إثبات البعث وهو إحياء الأموات وإخراجهم من قبورهم.

٨- إنباء المكلفين بأعمالهم يوم القيامة، وقد أحصاها الله عليهم.

٩- إحصاء الله لأعمال العباد بعلمه، وبما وكَّل من الملائكة الحافظين.

١٠- نسيان الكافرين لأعمالهم، ثم مواجهتهم بها محصاة عليهم في كتاب ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

١١- استخفاف الكافرين بقبيح أعمالهم؛ لذا نسوها.

١٢- أن البعث لجميع الأولين والآخرين.

١٣- اطِّلاع الله على أعمال العباد وأحوالهم وعلى كل شيء.

ولما أخبر سبحانه عن علمه بالمجادلة وسمعه لكلامها، وأثبت علمه بأعمال الكافرين، وأنه شهيد على كل شيء أكَّد ذلك كله بالإخبار عن إحاطة علمه بكل شيء، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

۞ التفسير:

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم، والخطاب لغير معين، فهو عام لكل من له عقل وعلم يفهم به الخطاب، فالرؤية علمية؛ والاستفهام للتقرير؛ أي: قد علمت علما يقينا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من جميع المخلوقات من الملائكة والجن والإنس وغيرهم، وما يكون من أحوالهم وأقوالهم، وتخصيص السماوات والأرض بالذكر لأنهما منتهى علم المخاطبين، والأكثر في القرآن تقديم السماوات على الأرض، وذلك لعظمها وعلوها وشرف سكانها، والتعبير بالمضارع «يعلم» لدوام علمه سبحانه وشموله لكل ما يقع في كل زمان، فهو تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يخفى عليه سر ولا علانية، ولهذا قال على سبيل التخصيص بعد التعميم: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي: ما يوجد، ويكون مضارع كان التامة ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: من تناجي ثلاثة، من إضافة المصدر إلى فاعله، والنجوى هي المحادثة سرًّا، وهي اسم مصدر كالشَّكوى والدَّعوى، يقال: ناجاه مناجاة ونجوى، وهي مأخوذة من النجوة أي: المكان المرتفع، وذلك أن المتناجيين يخلوان في مكان

لئلا يطلع عليهما أحد، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ نجوى فاعل يكون التامة، و«مِن» حرف جر زائد لتنصيص العموم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﷻ ﴿رَابِعُهُمْ﴾ أي: معهم فيكونون أربعة، فهو تعالى مطلع عليهم يسمع كلامهم، ويعلم سرهم ونجواهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي: ولا نجوى خمسة ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: ولا أقلَّ من ذلك العدد كالأربعة والاثنين والواحد إذا ناجى نفسه؛ فإن الله يعلم ما توسوس به نفسه ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ كالستة فما فوقها، والمقصود إحاطة علم الله بنجوى المتناجين، فشملت الآية جميع الأعداد: اثنان منها بالنص لفظا، وهما الثلاثة والخمسة، واثنان بالنص معنى، وهما الاثنان والأربعة، وسائر الأعداد بعموم قوله: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: بعلمه فيراهم ويسمعهم؛ فإن الآية بدئت بالعلم وختمت به ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ أي: في أي مكان وجدوا، حتى ولو كانوا تحت الأرض عن قرب أو عن بعد، فإن الله يعلم ما يجري بينهم، وهم في تفاوت أمكنتهم قربا وبعدا في علم الله سواء.

قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يخبرهم الله بأعمالهم كلها دقيقها وجليلها، ويقررهم بها، مما عملوه في الدنيا من خير أو شر، ثم يجزيهم بها في ذلك اليوم العظيم، وسمي يوم القيامة بذلك لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، وأصل القيامة مصدر قام، والتاء للمبالغة، لأنه قيام لأمر عظيم، لا نظير له على الإطلاق، وفي قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ جاءت «ثم» المفيدة للتراخي؛ لأن إنباءهم بما عملوا متراخ بمدة طويلة، وذلك بعد البعث، والله أعلم، وفيه إشارة إلى سعة علمه تعالى، وأنه لا يضيع لديه شيء، ولا تخفى عليه خافية مهما امتد الأمد، ثم ختمت الآية بما يؤكد مضمونها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، وهذا عموم لا أعمَّ منه، ولا مخصص له، وفيه التحذير من المعاصي، والترغيب في الطاعات.

لقد قررت هذه الآية الكريمة شمول علم الله تعالى لكل شيء من المسموعات والمبصرَات مما نرى وما لم نر، فعلمه تعالى محيط بكل شيء من حركات الأفلاك والذرات بكل صغير وكبير، أو رطب أو يابس، أو حي أو ميت، متقدم أو متأخر، وسع علمه كل شيء، ولا يخفى عليه من أمر خلقه شيء، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وما يسقط من ورق الأشجار، وما يظلم عليه الليل ويشرق عليه النهار، وقد أبدأ القرآن وأعاد في إثبات صفة العلم لله تعالى، في آيات كثيرة وبأساليب مختلفة، والشواهد على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقوله: ﴿ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾، ومن هنا قيل: إن صفة العلم لله تعالى هي أعظم الصفات التي تمدَّح الله بها في كتابه العظيم، ولا شك أن معرفة ذلك يقينا مما يورث في القلب الخشية ويزيد في الإيمان.

۞ الفوائد والأحكام:

١- علم النبي ﷺ وكلِّ مؤمن بإحاطة علمه سبحانه بكل شيء.

٢- إثبات صفة العلم لله تعالى.

٣- إثبات علمه تعالى بالكليات والجزئيات، ففيها:

٤- الرد على الفلاسفة والمتكلمين في مسألة العلم.

٥- إثبات المعية العامة لله تعالى؛ المقتضية لعلمه بالعباد وسمعه لأقوالهم ورؤيته لأفعالهم.

٦- أن أقوال المتناجين لا تخفى على الله.

٧- أن المعية العامة مقتضاها العلم، فلا تدل على الحلول، بل هو تعالى مع عباده، وهو فوق عرشه، فلا منافاة بين علوه ومعيته. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للمعطلة الحلولية الذين ينفون علو الله على خلقه، ويقولون: إنه تعالى في كل مكان. تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

٨- إحصاء الله لأعمال العباد.

٩- إنباؤهم بها يوم القيامة، ومجازاتهم عليها.

١٠- إثبات يوم القيامة.

١١- إثبات عموم لا يقبل التخصيص، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

ولما ذكر سبحانه أنه يعلم السر والنجوى خاطب رسوله ﷺ على سبيل التعجيب عن القوم الذين نهوا عن التناجي بالإثم والعدوان، ثم عادوا لما نهوا عنه، وأتوا بأفعال أخرى مشينة، فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يعجب الله نبيه من أولئك الذين نهاهم الله عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ثم يعودون لما نُهوا عنه، ومن قبيح صنعهم أنهم إذا جاؤوا إلى الرسول ﷺ يسيؤون الأدب معه، ويحيونه بما لا يليق به، خلاف ما فرض الله من تعزيره وتوقيره ﷺ، ويغترون بإمهال الله لهم، فتوعدهم الله بجهنم التي عذابها أشد عذاب.

۞ التفسير:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ أي: ألم ينته علمُك إلى الذين نهوا عن النجوى، وهم قوم من اليهود، والاستفهام للتعجب والتعجيب، أي: حمل المخاطب على التعجب، أي: انظر وتعجب، والخطاب للرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي نهاهم عن التناجي، وهو أيضا خطاب لكل سامع أو قارئ، وإنما نهوا عن النجوى لأنهم كانوا يتناجون بالقبيح، ويتغامزون سخرية بالمؤمنين بمحضر منهم، أما التناجي بالبر والتقوى فذلك محمود في الشرع، بل مأمور به، كما في الآية الآتية ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: يرجعون إلى ما نهوا عنه من التناجي

وقول السر، بعد أن أمسكوا عنه، وهذا من الترقي في ذمهم؛ لأن الرجوع إلى القبيح بعد النهي عنه والترك له أقبح من فعله ابتداء، ثم بيَّن ما يتناجون به فقال: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ﴾ دائما ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ وهو كل ذنب، من الكفر وما دونه، ومنه ذمهم للنبي ﷺ وأصحابه ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ على المسلمين ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: بمخالفته في كل ما يأمرهم به، وهذا من ذكر الخاص بعد العام؛ فإن معصية الرسول داخلة في الإثم والعدوان، لكن خصت بالذكر لعظم شناعتها، وفي ذكر النبي ﷺ بوصف الرسالة دون ذكر اسمه العلم، بيان لقبح معصيتهم من أول الأمر؛ لأن وصفه بالرسالة يقتضي طاعته لا معصيته.

هذا، ولليهود قبائح أخرى حريَّة بأن تُشهر فضحًا لهم؛ فمنها ما ذكره الله بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وهذا دليل على أن المعنيِّين في الآية هم اليهود؛ فإنهم - بإجماع العلماء - هم الذين يقولون في تحيتهم للرسول ﷺ: السامُ عليك، أي: الموت.

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سامٌ عليك، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٦٥٨٩)، وحسن إسناده ابن كثير في التفسير (٨/ ٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٢٢): «إسناده جيد»، ويشهد له ما رواه مسلم (٢٢٦٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: أتى النبي ﷺ أناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم قال: «وعليكم» قالت عائشة: قلت: بل عليكم السام والذام، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة، لا تكوني فاحشة»** فقالت: ما سمعت ما قالوا؟ فقال: **«أوليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت: وعليكم»**.

قولـه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ﴾ أيهـا الرسـول وحضروا مجلسـك ﴿حَيَّوۡكَ﴾ بما ظاهره التحية، وهي في حقيقتها شتمٌ ودعاء بالشـر، وأصل التحية الدعاء بالحياة، ثم كثر حتى استعمل في الدعاء، ثم خصَّه الشـرع بدعاء مخصوص، وهو السـلام عليكم ﴿بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: حيَّـوك بتحيـة ظالمـة لـم يشـرعها الله ﷻ، ولا حيـاك بهـا، فإنهم يقولون: السـامُ عليك يا محمد، أما تحيـة الله لأنبيائه فهي التحية الطيبة المباركـة، وهـي ما جـاء في قوله تعالـى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، وقولـه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١]، وقولـه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقولـه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [إبراهيم: ١٠٩]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، والله ينادي رسوله بقوله: يا أيها الرسول، ويا أيها النبي.

قولـه: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: فـي صدورهـم، أو فيمـا بينهـم إذا خـلا بعضهـم إلـى بعض ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ أي: هلَّا يعذبنا الله بسـبب قولنا في محمد وأصحابه، فلولا حرف، أصل معناه طلب حصول ما بعده، المعنى: أنهم يطلبون العذاب استعجالا واستهزاء، يقولون: لو كان نبيًّا حقًّا لعاجلَنا الله بالعـذاب، ولـم يعذبهم الله في الدنيـا، بل ادخر لهم العذاب فـي الآخرة، وهو أخـزى مـن عذاب الدنيا وأكبر، وهؤلاء قوم مـن اليهود، كما تقدم، وقد رد الله عليهـم بقولـه: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: كافيهـم جهنم ومـا فيها من العقاب؛ فإنها تغنـي عن كل عذاب، ولهذا قال: ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ أي: يدخلونها ويقاسـون حرها، والصَّلْـي هو الإحـراق بالنار ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ذم وشـدة وعيد، و«بئس» فعل ماض لإنشـاء الذم، والمصيـر فاعل، والمخصوص بالذم محـذوف والتقدير: بئس المصيرُ جهنم، نعوذ بالله منها.

الفوائد والأحكام:

١- أن من دواعي العَجَب الاغترار بمعصية الله، والاغترار بإمهاله.

٢- أن الواجب أن ينتهي العبد عمَّا نهاه الله عنه، ويثبت على ذلك.

٣- تحريم الإصرارِ على المعصية، والاغترارِ بحلم الله.

٤- تحريم التناجي بالإثم والعدوان.

٥- تحريم معصية الرسول ﷺ، وتحريم سوء الأدب معه ﷺ في التحية وغيرها.

٦- علوُّ قدر النبي ﷺ عند الله.

٧- أن النهي يقتضي استمرار الكف عن فعل المنهي عنه؛ لأنه ذمهم على العَود.

٨- علم الله بما تنطوي عليه النفوس، ففي الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

٩- أن القول والكلام يطلق على ما في النفس إذا قُيِّدا بذلك، أما الكلام المطلق فما كان باللسان.

١٠- علم الرسول ﷺ بالمذكورين المذمومين في الآية، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

١١- تأييد الله لنبيه ﷺ بفضح أولئك، وإطْلاعه على ما يسرونه في نفوسهم.

١٢- قبح العَود إلى الذنب بعد قيام الحجة أو بعد التوبة.

١٣- وعيد من وصفوا في هذه الآية بدخول جهنم.

١٤- أن الوعيد بجهنم كافٍ عن كل وعيد.

١٥- أن جهنم أسوأ مصير، فأشقى الناس من يصير إليها.

ثم نهى المؤمنين أن يسلكوا سبيل اليهود في التناجي المحرَّم فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

هـذا خطاب من الله للمؤمنين، ينهاهم سـبحانه عن التناجـي بالإثم والعدوان ومعصيـة الرسـول، وهـو ما ذمَّ الله بـه اليهود في الآية السـابقة، ويأمـر تعالى عباده المؤمنيـن بضـد ذلك، وهـو التناجي بالبر والتقـوى، كما يأمرهـم بالتقوى عموما، ويبيـن أن النجوى المذمومة من الشـيطان ليحزن المؤمنيـن، وأن ذلك لن يضرهم شيئا، لكن عليهم أن يتوكلوا على الله، فإنه حسبهم ﷻ.

۞ التفسير:

تصدير الآية بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ له فوائد منها:

أولا: أنه دليل على أهمية الحكم المذكور، ويظهر ذلك من وجوه:

١- تكرر ذكر المنادى؛ فمرة بـ «أيّ» وهي نكرة مقصودة، وأخرى بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

٢- الإيضاح بعد الإبهام في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بعد قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٣- اجتماع التعريفين في «أيّ» و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤- التوكيـد بحرف التنبيه «يـا»؛ فإن النداء يوجب انتباه المنادى، فإذا قلت: يا

فلان، فإنه يلتفت نحوك، ويصغي إليك.

ثانيا: أن النداء بوصف الإيمان دليل على أن امتثال الأمر أو اجتناب المنهي عنه بعد صيغة النداء من مقتضيات الإيمان، ففي هذا إلهاب لعزائم المؤمنين، واستثارة لهممهم.

ثالثا: أن ترك الامتثال أو فعل المنهي نقص في الإيمان.

وهنا قاعدة نافعة، وهي أنه إذا نودي الإنسان بوصف فإنه يزداد وصفه هذا بحسب زيادته في الاتصاف بما أمر به، أو بتباعده عما نهي عنه، ففي الآية الكريمة يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾؛ فإيمان المؤمنين يزداد بحسب قيامهم بالتناجي بالبر والتقوى، وابتعادهم عن الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: يا من صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ ﴾ أي: إذا أردتم المناجاة، وهي المحادثة سرًّا فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ كما يفعل اليهود، والنهي عن التناجي بذلك نهي عن الجهر به من باب أولى، ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ﴾ أي: بفعل الخير ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ أي: ترك المعصية، ولعظم شأن التقوى أعاد الأمر بها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي: تجمعون للثواب والعقاب ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ إنما أداة حصر لتأكيد الكلام، و«أل» في النجوى للعهد الذكري، أي: النجوى المحرمة السالفة ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾، أي: من وسوسته وتزيينه، فإن الشيطان يأمر بالتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: ليدخل عليهم الحُزن؛ فإن المؤمنين إذا رأوا المتناجين حسبوا أنهم يتناجون في نازلة وقعت بالمسلمين أو هزيمة، وما أشبه ذلك، يقال: حَزَنه يَحْزُنه، بوزن قتله،

وأحزنـه يُحزِنه، كلاهما بمعنى واحد، فالفعل ثلاثي ورباعي، وفي قراءة الجمهور ﴿لِيَحْزُنَ﴾، وقرأ نافع: ﴿لِيُحْزِنَ﴾.

وقولـه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الجـار والمجـرور ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ خبـر النجـوى، و«مِـن» لابتـداء الغايـة؛ لأن الشـيطان هو الداعـي للنجـوى والآمر بها، وقوله: ﴿لِيَحْزُنَ﴾ خبر ثان.

قولـه: ﴿وَلَيْسَ﴾ أي: الشيطان ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ بضـار المؤمنيـن ﴿شَيْـًٔا﴾ مـن الضـرر، وهـو نكـرة فـي سياق النفـي، فيفيـد عمـوم نفي كل ضـر، وإن قـلَّ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه الكوني، وهو مشيئته وقدره، فعلى المؤمنين ألا يبالوا بتناجي أعدائهـم، فإنـه لا يصيبهـم إلا مـا كتب الله لهـم، ولهذا قـال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الفاء زائدة لتحسين الكلام وتأكيده، المعنى: فليفوضوا أمورهـم إلـى الله، ويعتمـدوا عليه في بلـوغ مرادهم، فإنه من تـوكل على الله كفاه، ومن اعتصم به وقاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، [الإسراء: ٦٥].

۞ الفوائد والأحكام:

١- تحريـم التناجي بالإثـم والعدوان، وتحريم التكلم بالإثـم والعدوان علنا، من باب أولى.

٢- وجـوب قصر الكلام بالتناجـي أو الإعلان على البـر والتقوى، والبر فعل كل مأمور، والتقوى ترك كل محظور.

٣- وجوب تقوى الله في كل الأمور خوفا من الله الذي إليه الحشر والنشور.

٤- إثبات الحشر يوم القيامة، وهو جمع الناس يوم القيامة للحساب.

٥- أن التناجـي الـذي يحـزن المؤمـن مما يدعـو إليه الشـيطان، ومنـه الانفراد بالحديث سرًّا عن الجليس، كما جاء في الحديث: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى**

رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»[(١)].

٦- أن ما يأمر به الشيطان لإيذاء المؤمن لا يضره شيئا إلا بإذن الله.

٧- حرص الشيطان على ما يسوء المؤمن.

٨- أن الحزن أذًى، ولا يستلزم ضررًا.

٩- تسلية الله للمؤمنين وتصبيرهم على أذى اليهود.

١٠- إثبات الإذن الكوني لله تعالى، وهو أمره ومشيئته.

١١- أن التوكل على الله أقوى سبب في اتقاء الضرر.

١٢- وجوب قصر التوكل على الله وحده، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٣٢)، ومسلم (٢١٨٤)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولما نهى الله عباده المؤمنين عما هو سبب للتنافر والبغضاء أمرهم بما هو سبب للمحبة والألفة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

هذا إرشاد من الله للمؤمنين إلى بعض آداب المجالسة، وهو التفسُّح في المجلس في حال ضيق المكان، ليجد الداخل مكانا، وإذا اقتضى الأمر القيام من المكان وجب ذلك، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ يعني: ارتفعوا، ووعد على ذلك السعة والرفعة، وختم هذا التوجيه بالتذكير بخبرته تعالى بأعمال عباده.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ ﴾ أيًا كان القائل ﴿تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ أي: توسعوا، يقال: فسَح لأخيه في المكان يفسَح ـ بوزن مَنع ـ إذا وسَّع له، وأوجد له فُسحة، وذلك بضم ما انبسط من الثياب والجسد، والمجالس جمع مجلِس، وهو موضع الجلوس، سواء كانت في البيوت، أو في دور العلم، أو في المساجد، فكل ذلك يندب التفسح فيه، ولذا جاءت الكلمة بالجمع ﴿ٱلْمَجَٰلِسِ ﴾ في قراءة عاصم، وقرأ الجمهور: ﴿الْمَجْلِسِ﴾ بالإفراد، والمراد الجنس، وعلى هذا فالمشروع في المجالس التفسح، ولا يجوز لأحد أن يقيم غيره من مجلسه

ليقعد فيه، قال ﷺ: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مقعده، ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا**»(١).

ولا يبعد أن يشمل حكم الآية ومعناها تحدث الجالسين؛ فلا يستبد أحد بالحديث، بل يفسح لمن بدا له أن يتكلم، ولا يقاطع أحدا في حديثه، فهذا كله من أدب المجالس.

وقوله: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يوسع الله لكم في كل ما تطلبون فيه السعة في الرزق، وفي الصدر، وفي العُمر، وفي القبر، وفي الجنة، كما يفيده حذف متعلَّق ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، والآية وإن كانت واردة في التوسعة على الجالسين؛ فإنها تدل بالإشارة على أن كل من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة**»(٢).

وفي الآية أن الجزاء من جنس العمل، وهذا له نظائر في الشرع، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وكقوله ﷺ: «**من بنى لله مسجدا بنى الله له مثله في الجنة**»(٣)، ويأتي أيضا هذا في باب العقاب، كقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي: إذا قيل: انهضوا للتوسعة للقادمين فانهضوا ولا تتثاقلوا، وليس في ذلك غضاضة عليكم، ويدخل في هذا ما إذا دعوا إلى خير كالصلاة والجهاد والأمر بالمعروف، فعليهم أن يقوموا، وأصل النَّشْز:

---

(١) رواه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧)- واللفظ له- عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي (٣١٨)، وابن ماجه (٧٣٦)؛ عن عثمان رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الألباني.

الارتفاع، يقال: نشَز ينشُز وينشِز، من باب قعَد وضرَب.

وقوله: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ «يرفع» هذا جواب الأمر، والأصل أنه مجزوم بالسكون، لكن حرك بالكسر لالتقاء الساكنين، المعنى: يرفع الله المؤمنين الممتثلين لأوامر الله ورسوله ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ أي: ويرفع الذين أوتوا العلم مراتب عالية في الدنيا والآخرة، وعطف ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من عطف الخاص على العام؛ للدلالة على علو شأنهم، كأنهم جنس آخر، وذلك لما جمعوا بين العلم والعمل، فصاروا قدوة لغيرهم، ولهذا قال ﷺ: «**وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**»(١)، رواه أبو داود، وعند الترمذي: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»(٢).

وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إشارة إلى أن العلم في أصله هبة وإيتاء من الله تعالى وفضل يؤتيه من يشاء، نسأل الله من فضله، وهذا كثير مطرد في القرآن، كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [القصص: ١٤]، وقال عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقال عن داود وسليمان: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ [النمل: ١٥] وقال عن الخضر: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة للدلالة على خبرته تعالى بأعمال العباد، والخبير هو العالم ببواطن الأمور وجلياتها، و«ما»

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني.

يحتمل أن تكون اسـما موصولا، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملون أو بعملكم خبير، فيعلم من يمتثل أوامره ممن لا يمتثل، ولا تخفى عليه خافية منكم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الإيمـان يدعـو إلى طاعـة الله في أمره ونهيه؛ لذا يذكِّـر الله به قبل الأمر والنهي.

٢- أن لصاحب المكان أمر الجالسين بما فيه المصلحة لبعضهم.

٣- أن السابق إلى مكان مأذونٍ فيه أحقُّ به.

٤- وجوب التفسح والارتفاع على الجالسين إذا طلب ذلك صاحب المكان.

٥- أن لصاحب الدار سلطانا تجب مراعاته.

٦- أن الجزاء من جنس العمل.

٧- أن العلم والإيمان سبب الرفعة في الدنيا والآخرة.

٨- خبرته تعالى بأعمال عباده، فالوعد والوعيد في ذكر اسـمه الخبير ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

٩- كمال الإسلام وشموله لجميع الآداب والأخلاق الفاضلة.

ثم ذكر ما يجب لمناجاتهم النبيَّ ﷺ، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاة النبي ﷺ أن يُقدِّموا قبل مناجاته صدقة، وفي ذلك خير لهم وطهارة لقلوبهم، وأنه إن شق عليهم ذلك فلم يفعلوا فليلزموا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ. والله خبير بنياتهم وأعمالهم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه، وأعاد الخطاب للمؤمنين تعظيما لما تضمنته الآية في شأن مناجاة النبي ﷺ ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: أردتم مناجاته ومساررته في بعض شؤونكم ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: فقدموا قبل المناجاة صدقة للفقراء، لا للنبي ﷺ؛ لأنه لا يأكل الصدقة، وفي الكلام استعارة؛ شبهت النجوى بإنسان تعظيما لشأنها، ثم حذف المشبه به ورمز له ببعض لوازمه، وهو اليدان.

أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت الآية بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه،

فأراد الله ﷻ أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك كفَّ كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها[1]، ﴿ذَلِكَ﴾ أي: تقديم الصدقة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الأجر، وتعظيم جناب النبي ﷺ ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم من داء الشحِّ ومن الجُرأة على النبي ﷺ بالإكثار عليه؛ إذ تصبح النفوس علوية زكية بعد الصدقة، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ومنه سميت الصدقة زكاة، وكم وجد الصالحون من آثار حميدة للصدقة في قلوبهم من الطمأنينة والغبطة والأنس، وهذا كلُّه من دلائل زيادة الإيمان في القلب، ولذا قال ﷺ: «**والصدقة برهان**»[2]، أي: حجَّة ودليل على إيمان المتصدّق ويقينه بوعد الله.

والتكليف بفرض الصدقة قبل المناجاة له فوائد، منها: تعظيم مقام النبي ﷺ، ومنها: نفع الفقراء، ومنها: التخفيف عن النبي ﷺ؛ فإن طائفة من المسلمين لما علموا بافتراض الصدقة أمسكوا عن طلب المناجاة، إما حُبًّا في المال وإما شُحًّا، ومنها: التمييز بين من يؤثر الدنيا ومن يؤثر الآخرة، هذا ولم يذكر في الآية مقدار الصدقة، والظاهر أن القدر المجزئ منها ما يسد جوعة الفقير، والله أعلم.

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدقون به، وهذا يدل على وجوبها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر الذنب ويتجاوز عنه ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: يرحم عباده، وهذا تمهيد لنسخ الحكم في قوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أي: هل خفتم الفقر من تقديم الصدقات؟ وهو استفهام أريد به إظهار ما خطر في نفوسهم ليكون مقدمة للتخفيف الآتي، وفيه لوم لهم، والفعل الماضي في ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ يدل على تحقق الإشفاق عندهم، وجمعت الصدقات ـ والله أعلم ـ لأن الإشفاق إنما يكون من تعدد الصدقات بتعدد المناجاة، وأفردت في الآية السابقة لأن الفرض للمناجاة صدقةٌ واحدة.

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٤٨٨)، تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٤٤).
(٢) رواه مسلم (٣٥١٧) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ أي: فحين لم تفعلوا ما أمركم الله به، ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الجملة حالية، أي: عذركم ورخص لكم في ترك الصدقة، وهذا نسخ لوجوبها، وهو تخفيف من الله تعالى عنهم، وإذن لهم بالمناجاة دون تقديم صدقة، لأنهم كانوا محتاجين إلى مناجاة النبي ﷺ دائما، فهذه الآية ناسخة للآية السابقة بإجماع المفسرين، وفي قوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ دليل على أنه لم يتصدق أحد البتة، وما روي عن علي أنه تصدق وعمل وحده بالآية فهو ضعيف، كما قال القرطبي(١)، وقال ابن العربي: لا يصح(٢).

قوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا جواب «إذْ»(٣)، المعنى: إذ لم تقدِّموا الصدقة فقوموا بما أوجب الله عليكم من مباني الإسلام: الصلاة والزكاة، وقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون أن يقول: صلوا، تنبيها على أن المراد أداء الصلاة بتوفية حقوقها من الشروط والأركان والواجبات والمستحبات ظاهرا وباطنا ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي افترض الله في أموالكم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر، وهذا من عطف العام على الخاص تنبيها على وجوب الاستقامة على دين الله، وتقديم طاعة الله على طاعة رسوله لأنها هي الأصل ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: محيط بأعمالكم باطنا وظاهرا، وسيجازيكم عليها، والجملة استئنافية لتقرير معنى ما قبلها.

۞ الفوائد والأحكام:

١ - أن من حقوق النبي ﷺ على المؤمنين: الأدبَ معه بترك كثرة المناجاة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٣٢٥). (٢) أحكام القرآن (٤/ ٢٠١).

(٣) لأن «إذ» الظرفية هنا أجريت مجرى الشرط. نبّه على ذلك الرضي في شرح الكافية (٤/ ٤٧٥- تحقيق حسن يوسف عمر)، وجوّز أيضا أن يكون من باب ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: على تقدير «أمّا».

٢- أن الله شرع لتحقيق ذلك الصدقة قبل المناجاة، ليكفَّ عن المناجاة من لا تكون حاجته إليها شديدة.

٣- أن فيما شرع الله لعباده من القربات خيرا وطهارة لمن امتثل أمر الله، وقام بحق النبي ﷺ.

٤- إثبات اسمين لله تعالى الغفور والرحيم، وما دلَّا عليه من صفة المغفرة والرحمة.

٥- أن من لم يجد ما يتصدق به فلا إثم عليه، وهذا موجَب مغفرته ورحمته تعالى؛ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦- مشقة بذل المال على النفوس؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

٧- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]، ولذا قال ﷺ: «**والصدقة برهان**»(١) أي: على الإيمان.

٨- أن في الصدقة طهارة للمتصدق، فهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

٩- نسخ حكم الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ.

١٠- أن من رحمة الله بعباده التخفيف بنسخ ما يشق عليهم.

١١- أن النسخ يكون إلى غير بدل.

١٢- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. ومن الخير التخفيف برفع ما فيه مشقة.

١٣- النسخ قبل الفعل.

---

(١) رواه مسلم (٣٥١٧) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

١٤- أن أعظم شكر لنعمة التيسير والتخفيف في الشرائع: لزومُ طاعة الله ورسوله والمحافظة على الفرائض بإقام الصلاة وإيتاء الصلاة.

١٥- أن من أسماء الله: الخبير، والخِبرة كمال العلم بخفي الأمور.

ولما ذكر الله بعض قبائح اليهود من التناجي بالإثم والعدوان، وغير ذلك، ونهى المؤمنين عن ذلك، ذكر الله شأن إخوانهم المنافقين، فقال سبحانه:

﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ذكر حال المنافقين في الدنيا والآخرة، ذمًّا لهم وتهديدًا، وتحذيرًا للمؤمنين من سلوك طريقهم، وافتتحت الآيات بالتعجيب من حالهم، وختمت بما انتهى إليه أمرهم، وهو غاية الخسران.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ أي: ألم ينته علمك إلى الذين ﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهم اليهود، والذين تولوهم هم المنافقون، والتولي من الموالاة، وهي المودة والمحبة والنصرة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح للخطاب، فهو عام، والاستفهام مراد به التعجب والتعجيب من حال أهل النفاق الذين تولوا اليهود مع أنهم من غير جنسهم وليسوا على ملتهم؛ لأن المنافقين مشركون، فصار

المنافقون أولياء لليهود، وهم من أشد أعداء المسلمين، وأصبحوا عيونا لليهود على المسلمين ينقلون إليهم أخبارهم، ويطلعونهم على أسرارهم، وإنما حمل المنافقين على موالاة اليهود التقاء الفريقين على عداوة الإسلام والمسلمين، وميلُ المنافقين إلى اليهود يدل على شدة كيد المنافقين العظيم للمسلمين وبغضهم لهم؛ كما تشعر هذه الموالاة بين الفريقين بقوة المسلمين الصاعدة يومئذ، واشتداد شوكتهم ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: أن المنافقين ليسوا من المسلمين في باطنهم، ولا من اليهود في ظاهرهم، بل هم مذبذبون بينهما، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «**مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تَعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة**»(١).

قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿تَوَلَّوْا﴾، فهي داخلة في حكم التعجيب، المعنى: أن المنافقين يحلفون كذبًا للمؤمنين إذا لقوهم إنهم مؤمنون، والفعل المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾ لحكاية الحال، أو للدلالة على تكرر حلفهم الفاجر، كما قال سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، فهذا ديدنهم كلما واجهوا المسلمين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: المنافقون يعلمون أنهم في حلفهم هذا كاذبون، وجملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من الواو في قوله ﴿يَحْلِفُونَ﴾ تفيد التشنيع عليهم بما

(١) رواه مسلم (٢٧٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

هو في غاية القبح؛ إذ حلفوا عالمين بكذب أنفسهم.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين، قد كاد يَقلِص عنهم الظل، فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه»، قال: فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فكلَّمه، قال: علامَ تشتمني أنت وفلان وفلان؟! نفرٌ دعاهم بأسمائهم، قال: فذهب الرجل فدعاهم فحلفوا بالله، واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾(١).

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: هيَّأ الله للمنافقين في الآخرة عذابا شديدا بسبب كفرهم ونفاقهم، فهم في الدرك الأسفل من النار، وتنكير «عذاب» للتعظيم، وأنه لا نظير له ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «ساء» فعل ماض جامد لإنشاء الذم، أي: قبُح عملهم، وبلغ الغاية في السوء والفساد ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الكاذبة جمع يمين، وهو الحلف ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقاية يستترون بها لئلا تستباح دماؤهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا۟﴾ بأنفسهم وصدوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام بتشويه حقيقته والطعن في رجاله ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مخز لهم أشد الخزي، جزاء هذا الصد والإضلال، فالعذاب الشديد لحلفهم، والمهين لصدهم عن سبيل الله.

قوله: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تدفع عنهم يومَ القيامة ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ التي يفخرون بها في الدنيا، وكانوا أصحاب ثراء ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من عذاب الله شيئا، فـ ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به لتغني ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء الأشقياء ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبد الآباد، ولا ينقطع عنهم العذاب، ولا يطلق أصحاب

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤٠٧)، و(٣٢٧٧) ط. الرسالة، وحسن إسناده محققوه، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وقال ابن كثير في التفسير (٨/ ٥٣): «إسناده جيد».

النار إلا على من يخلد فيها، فلا يقال لعصاة المؤمنين أصحابُ النار، ولو دخلوها وعذبوا ما عذبوا.

قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: اذكر يومَ يبعثهم الله للجزاء والحساب جميعا فلا يَفلت منهم أحد ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: يحلفون لله في الآخرة إنهم مسلمون، وليسوا كفارا ولا منافقين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون في الدنيا، كما قال تعالى عن إخوانهم المشركين: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]، وهذا فيه رد على من ادَّعى أنه لا يكون في الآخرة كذب، وفيه إشارة إلى أنهم مستمرون على نفاقهم؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ويظنون في الآخرة لإلفهم الكذب في الدنيا أنهم على شيء نافع ينجيهم من عذاب الله، وماهي إلا محض خيالات كاذبة، و«على» في الآية مستعملة في معنى الاستعلاء، يقال: فلان على علم، وهذا من الاستعلاء الدال على التمكن في العلم، شبهت حاله بحال من اعتلى الشيء وركبه وتمكن منه، ومنه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، ويقال في الذمِّ: فلان ليس على شيء، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية، [المائدة: ٦٨].

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ «ألا» حرف تنبيه يفيد إيقاظ السامع لأهمية ما بعده ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: الكاملون في الكذب، كأنه لا أحد يكذب غيرهم؛ إذ كذبوا على الله وهم بين يديه، وقد اشتملت الجملة على أربعة مؤكدات هي: «ألا»، و«إنَّ»، وضمير الفصل «هم»، واسمية الجملة؛ لإفادة رسوخ الكذب فيهم.

قوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: استولى عليهم الشيطان، وأحاط بهم باطنا وظاهرا بوسوسته وإغوائه حتى اتبعوه، والاستحواذ استفعال من حُذْتُ

الإبلَ إذا سُقتَها وجمعتَها، ثم أطلق على الاستيلاء، وعند الصرفيين أن «استحوذ» وإن كان فصيحا في الاستعمال؛ إلا أنه على خلاف القياس الصرفي، وهو أن الواو إذا تحركت وسكن ما قبلها قلبت ألفا، مثل استعاذ واستقام.

قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلم يذكروه بألسنتهم ولا بقلوبهم، ولم يعملوا بأمره تعالى، وإنما اتبعوا الشيطان إلى ما يريد من المعاصي والآثام، ولذا قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنافقون ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: جنوده وأتباعه، ومن كان الشيطان قائده فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال هنا: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ غاية الخسران؛ إذ كانت نهايتهم إلى النار، وهذا مصيرهم المحتوم؛ ولذا أكد الخبر بعدة مؤكدات: «ألا»، و«إنَّ»، وضمير الفصل «هم»، واسمية الجملة، وفي الآية أبلغ تحذير من سلوك طريق المنافقين.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن المنافقين صنف ثالث بين المؤمنين والكفار؛ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾. والله يذكر الأصناف الثلاثة: المؤمنين والكافرين والمنافقين في مواضع كثيرة من القرآن كما في أول سورة البقرة، والأحزاب، وسورة الفتح، كما في قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

٢- أن تولي المنافقين لليهود وغيرهم من الكفار يخرجهم عن المؤمنين، وإظهارهم الإيمان يخرجهم من حكم الكفار ظاهرا.

٣- أن دأب المنافقين تولي الكافرين.

٤- أن اليهود مغضوب عليهم.

٥- إثبات أن الله تعالى يغضب.

٦- تمالؤ الكفار والمنافقين على عداء المسلمين والكيد لهم.

٧- أن دأب المنافقين الحلفُ على الكذب، وهو ما يدَّعون من الإيمان، ومن براءتهم مما نسب إليهم من الأقوال والأفعال القبيحة.

٨- أن كذب المنافقين عن علم وعمد، لا عن خطأ وجهل؛ لقوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

٩- أن الكذب هو الإخبار بما لا يطابق الواقع عمدا كان أو خطأ، وكذبُ المنافقين صادر عن علم وعمد، كما تقدم، ويتفرع على ذلك فائدة، وهي:

١٠- الرد على من زعم أن الخبر لا يكون كذبا إلا مع علم المخبِر بعدم مطابقة الخبر للواقع.

١١- أن ارتكاب القبيح مع العلم أسوأ من ارتكابه دون علم.

١٢- وعيد الله للمنافقين بما أعد لهم من العذاب الشديد، وهو الدرك الأسفل من النار.

١٣- أن سبب ذلك الجزاء سوء أعمالهم.

١٤- أن كفر المنافقين أغلظ من كفر غيرهم، فلذا كان عذابهم أشد.

١٥- ذم الله للمنافقين وتقبيح أعمالهم؛ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

١٦- أن مقصودهم من الأيمان اتقاءُ سخط المؤمنين عليهم وعقوبتهم؛ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي: سترا ووقاية.

١٧- أن نجاة المنافقين بأيمانهم الفاجرة سبب لتماديهم في الإعراض عن سبيل الله، وهو الإيمان واتباع الرسول ﷺ، وفي صدهم غيرهم عن الإسلام.

١٨- أن كفرهم ونفاقهم هو سبب ما استحقوه من العذاب المهين.

١٩- قطع أملهم في أموالهم وأولادهم أن تدفع عنهم عذاب الله.

٢٠- الحكم عليهم بالخلود في النار.

٢١- تنويع أساليب الوعيد لهم في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وقوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٢٢- إثبات البعث من القبور.

٢٣- وجوب الإيمان بالبعث، وهو من الإيمان باليوم الآخر، وهو يوم البعث.

٢٤- أن المنافقين يكونون في الآخرة في عماهم الذي كانوا فيه في الدنيا، لذلك يحلفون لله متبرئين من شركهم، كما كانوا يحلفون للمؤمنين في الدنيا، ثم إنهم يحسبون أنهم في هذا الحلف محسنون، ظانين أن ذلك يخلصهم، وتفسير هذه الآية في سورة الأنعام في قوله تعالى عن المشركين: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]، وهذا في بعض أحوالهم يوم القيامة، وفي حال أخرى يقرون بشركهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ [النحل: ٨٦]. فلا تعارض بين الآيتين.

٢٥- أن سبب هذا العمى والضلال استحواذ الشيطان عليهم، وهو استيلاؤه عليهم، وتسلطه على قلوبهم.

٢٦- أن من غلب عليه الشيطان أنساه ذكر الله، ومن نسي ذكر الله ظفر به عدوه الشيطان.

٢٧- أن للشيطان قدرة على التسلط على من يواليه، وذلك بقدر الله، فمن يواليه يضله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

٢٨- أن المنافقين هم حزب الشيطان، وكذلك سائر الكفرة.

٢٩- في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٣٠- أن الخسران كل الخسران هو عاقبة حزب الشيطان.

ولما ذكر الله في الآيات السابقة بعض أحوال الكافرين من اليهود والمنافقين وسوء مصيرهم، أخبر بأنهم مهما بلغوا في القوة والكثرة فإنهم الأذلون، وإنهم مغلوبون؛ لأن الله هو القوي العزيز، فلا غالب له، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيات الحكم بالذلة والهزيمة للمحادين لله ورسله من الكفار والمنافقين، وبالعزة والغلبة لله ورسله وأوليائه من المؤمنين، وأنه لا يجتمع في قلب أحد من المؤمنين الإيمان بالله ورسوله وموادة المحادين لله ورسوله، ولو كانوا من أقرب الأقربين؛ لأن المؤمنين حزب الله فلا يتولون حزب الشيطان، وهما نقيضان في الحال والأعمال والمآل، فحزب الشيطان هم الخاسرون، وحزب الله هم المفلحون.

۞ التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: يعادون الله ورسوله، ويخالفون أمر الله ورسوله من الكفار والمنافقين، وهذه هي المشاقة لله ورسوله في قوله

سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وتقدم تفسير المحادة في اللغة في أول السورة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ أي: في جملة المغلوبين المقهورين، فلا أحد أذلَّ منهم، كما تفيده صيغة التفضيل، وهذا فيه البشارة للمؤمنين بأنهم الأعزاء، وأن الله ناصرهم على عدوهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: كتب الله في اللوح المحفوظ وقضى بأن الغلبة والنصر له ولرسله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ أي: ذو قوة متين، وله القوة جميعا ﴿عَزِيزٌ ﴾ لا يغالَب، فهو قادر على نصر أوليائه ورسله، ومن آثار عزته وقوته أن حكمه نافذ وقضاءه ماض.

ولما ذكر سبحانه تولي المنافقين لليهود المغضوب عليهم، وعجَّب من موالاتهم اليهود، بيَّن سبحانه أنه لا يجتمع في قلبٍ الإيمانُ بالله واليوم الآخر مع موادة أعداء الله وموالاتهم؛ لأن شرط الإيمان بالله محبتُه وطاعتُه، وهما يقتضيان معاداة أعدائه، فقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ الخطاب عام، أي: لا يمكن أيها السامع أن تجد قوما ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ إيمانا حقيقيا، وهم ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وسمي اليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، فالإنسان إذا بعث في ذلك اليوم فلا موت بعده؛ فإما إلى الجنة وإما إلى النار وقوله: ﴿يُوَآدُّونَ ﴾ أي: يحبون ويوالون ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من اليهود والنصارى وسائر المشركين ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ المعنى: ولو كان المحادُّ أقرب قريب، ففي سبيل الولاء لله ولرسوله ينقطع كل ولاء مع المحاد لله ورسوله، ولو كان الأبَ الذي تجب طاعته، أو الابنَ الذي هو فلذة الكبد، أو الإخوانَ المناصرين، أو العشيرةَ التي تكون بها القوة والمنعة، والمراد مطلق الأقارب، ولكن خص المذكورون لقوة قرابتهم، ووقع ترتيبهم في الآية على وفق ترتيبهم في القرابة، من الأقوى إلى من دونه، وفي ذلك بيان للحكم من أول وهلة، تضمنت الآية

النهي القاطع عن موالاة الكافرين، وجاء النهي بصيغة الخبر ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ مبالغة في التحذير من ذلك بأبلغ الوجوه.

ولا يدخل في ذلك المعاشرة والمخالطة التي تقتضيها أواصر القرابة، فذلك معفو عنه؛ لأنه من الأمور الطبيعية الجبليّة.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المؤمنون الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبته في قلوبهم، ومن مقتضى ذلك تحبيبُه لهم وتزيينه في قلوبهم، مما يوجب لهم الفرح به وكراهة ضده، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وجعل القلوب موضع الكتابة لأنها مستقر الإيمان، ولفظ الكتابة يدل على معنى الإثبات، وعلى تمكن الإيمان في القلوب.

وذهب ابن جرير وابن كثير إلى أن المراد بالكتْب هنا الكتبُ الكونيُّ القدريُّ، فهي على هذا كقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾، وليس هذا بظاهر، بل الظاهر أنه بمعنى أثبت، كما تقدم، وقدمه القرطبي، وعزاه إلى الربيع بن أنس، ورجحه الشنقيطي في أضواء البيان.

قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوّاهم بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وهو النور والهدى،كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

قوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبد الآباد،

فنعيمهم مقيم وسرورهم دائم، ولفظ الخلود هذا لا يدل على الخلود الأبديِّ لأهل الجنة، ولكن دلَّت عليه نصوص أخرى من الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقوله ﷺ: «**يا أهل الجنة خلود بلا موت**»[(١)]، وفي صحيح مسلم في وصف أهل الجنة: «**وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا**»[(٢)]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

قوله: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هذا أعظم من دخولهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وفيه إشارة إلى أن ما نالوه من الثواب هو برضا الله عنهم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي: بما أعطاهم من الجزاء الحسن، قال ابن كثير: «وفي قوله: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ سرٌّ بديع؛ وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم».

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي: وحدهم لا غيرهم، ولا هم مع غيرهم، فهم أنصار الله وأولياؤه وأهل كرامته، وهذا شرف لا يماثله شرف ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بجنته ورضوانه، وأصل الفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهذا وعد من الله لا يخلف؛ ولذا أكد الكلام بأربعة مؤكدات، كما مر شرحه في نظيرتها.

۞ الفوائد والأحكام:

١ - أن العزة والنصر للمؤمنين، والذلة والخذلان للكافرين.

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

٢- أن القوة والغلبة لله ورسله، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾.

٣- أن من أسماء الله القوي والعزيز.

٤- سبقُ القدر بأن الغلبة لرسل الله وأوليائه، ففي الآية: شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

٥- أنه لا يجتمع في قلبٍ الإيمانُ بالله واليوم الآخر وموادةُ أعداء الله.

٦- أن من أصول الإيمان: الإيمانَ باليوم الآخر.

٧- أن موادة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقربين مما يناقض حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين.

٨- أن الموادِّين للمحادِّين لله ورسوله لا يُعدُّون من المؤمنين؛ لقوله: ﴿لَّا تَجِدُ﴾.

٩- ثناء الله على أوليائه بجمع الإيمان في قلوبهم، وتأييده لهم بروح منه من الوحي والملائكة.

١٠- وعد الله لهم بالخلود في الجنان، والفوز منه تعالى بالرضوان.

١١- إثبات الرضا لله تعالى.

١٢- رضا المؤمنين عن ربهم لإنعامه عليهم بالنجاة من النار والخلود في الجنات.

١٣- فيها شاهد للحكمة المعروفة: من ترك شيئا لله عوَّضه الله خيرا منه، فهؤلاء لما تركوا موادة الأقربين عوَّضهم الله برضاه والفوز بكرامته، ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾.

١٤- أن من أعظم النعيم في الجنة الأنهار الجارية.

١٥- تشريف المؤمنين بأنهم حزبُه تعالى، وبشراهم بغاية الفلاح، وهو الظفر

بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب.

١٦- المقابلة بين أولياء الله وأعدائه في النعت والنسبة والعاقبة؛ فالكفار والمنافقون حزب الشيطان، وهم الخاسرون، والمؤمنون حزب الله، وهم المفلحون.

تمت سورة المجادلة، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الحَشْرِ

سورة الحشر مدنيةٌ، ونقل القرطبي عن ابن عباس أنها تسمى سورة بني النضير، وعدد آياتها أربعٌ وعشرون، وهي إحدى السور المسبحات؛ لأنها افتتحت بالتسبيح ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وختمت به ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. وتسبيح هذه العوالم العلوية والسفلية لله تعالى يتضمن تقديسه وتنزيهه عن كل نقص، وأنه سبحانه موصوف بكل كمال، وافتتاحُ السورة وختمُها بالتسبيح يدل على أن ما تضمنته السورة من ذكر أفعاله تعالى وأسمائه وصفاته مقتضٍ لذلك.

وقد تضمنت الآيات من الثانية إلى العاشرة قصة بني النضير، وما فعله الله بهم من إخراجهم من ديارهم بالجلاء، وتسليط رسوله ﷺ والمؤمنين عليهم بتخريب بيوتهم وقطع نخيلهم وغنيمة أموالهم، فصارت فيئًا لله ورسوله ﷺ وللمؤمنين من المهاجرين والأنصار، وفي حكمهم الذين جاؤوا من بعدهم متبعين لهم ومستغفرين.

وتضمنت الآيات من الحادية عشرة إلى السابعة عشرة ذكر المنافقين

وعلاقتهـم باليهود وإكذابَ الله لهم في وعودهم لإخوانهم، وتشـبيههم بالشـيطان الذي غرَّ الإنسان حتى كفر بالله، فكانت عاقبتهما الخلود في النار.

ثـم توجه الخطاب بعد ذلك للمؤمنيـن متضمنا وصايا من الله وبيانا للتباين بين عاقبة الفاسقين والمؤمنين ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ الآية، ثم ختمت السورة بالتنويه بشأن القرآن وعظمة تأثيره، وبذكر بعض أسمائه تعالى وصفاته، وأنه الذي لا إله إلا هو ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى عن تسبيح أهل السماوات والأرض لرب السماوات والأرض بلسان الحال والمقال، كما قال تعالى عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى عن تسبيح أهل الأرض: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، وختم الآية باسمين كريمين ﴿الْعَزِيزُ﴾ و﴿الْحَكِيمُ﴾ لاقتضائهما تسبيحه وتنزيهه تعالى.

۞ التفسير:

قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: نزَّه الله ومجَّده وقدَّسه عمَّا لا يليق به جميعُ ما في السماوات وما في الأرض من الملائكة والإنس والجن والأحياء والجمادات وسائر المخلوقات، والفعل «سبَّح» يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، لكن ضمِّن معنى التقديس فعدِّي باللام، كما يدل له قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وافتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه من حسن الافتتاح المعروف عند البلغاء وأمراء الكلام؛ إذ يؤذن الافتتاح بالتسبيح بموضوعات السورة التي أشير إليها آنفا، وهي من آثار عظمته تعالى ومجده وعزته وحكمته.

وجاء التسبيح بصيغة الماضي في هذه السورة، وفي الحديد والصف، وبصيغة المضارع في الجمعة والتغابن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، وبصيغة الأمر في سورة الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وبالمصدر في سورة الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، إيذانا باستحقاقه تعالى أن يسبَّح ويذكر اسمه في جميع الأوقات والأحوال، وفيه تنبيه المكلفين ألا يفتروا عن التسبيح والذكر، كما أخبر الله عن الملائكة أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

واختلف المفسرون هل التسبيح المخبر عنه في الآية واقع بلسان المقال أو بلسان الحال؟ ظاهر الآية أنه بلسان المقال؛ فالعوالم العلوية والسفلية كلها تسبح الله، وإن لم ندرك كيفيات تسبيحها كلها؛ لأن الله قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

و«ما» في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اسم موصول يعم العقلاء وغيرهم؛ لأن المعروف في العربية أن ما يَعقل إذا اختلط بما لا يعقل جاز أن يعبَّر عن الجميع بـ «ما»، وكُرِّرت «ما» للتأكيد، والتنبيه على استقلال ما في السموات بالتسبيح، واستقلال ما في الأرض بالتسبيح، وقدمت السماوات لعظمها وعلوها وشرف سكانها، وجمعت السماوات ـ والله أعلم ـ لأن كل سماء مستقلة عن السماء الأخرى، وأفردت الأرض لأنها بخلاف ذلك، أي: متصل بعضها ببعض.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الواو للحال أو للاستئناف ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي الذي له القدرة التامة والإرادة النافذة فلا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ويلاحظ اقتران هذين الاسمين في كثير من آيات القرآن، وذلك أنه تعالى يضع مقتضَى عزته في موضعه، خلافا للمخلوق؛ فإنه

قد يكون عزيزا غير حكيم، أو حكيما غير عزيز، ومناسبة ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين إشارة إلى أن عزته وحكمته من موجِبات تسبيحه وتقديسه.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تسبيح ما في السماوات وما في الأرض من الملائكة والجن والإنس والحيوانات والجمادات لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٢- أن الله منزه عن جميع النقائص والعيوب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

٣- إثبات جميع صفات الكمال لله.

٤- إثبات ربوبيته تعالى وإلهيته وتوحيده؛ لأن خضوع هذه العوالم لله سبحانه من أجل أنه خالقها ومالكها ومدبرها، وهذا معنى أنه ربُّها، وهو مستلزم أنه الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه.

٥- إثبات اسمين من أسمائه تعالى وهما العزيز والحكيم، وصفتين من صفاته، وهما العزة والحكمة.

٦- أنه تعالى القوي الغالب الذي لا نظير له.

٧- أنه تعالى حكيم في شرعه وقدره، يضع الأشياء في مواضعها.

ثم ذكر سبحانه بعض آثار عزته وحكمته فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية الخبر من الله تعالى بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم بنو النضير من ديارهم وأموالهم، وهو إجلاؤهم عنها، خلاف ما ظنوا، وأنهم كانوا يخربون بيوتهم استعدادا للرحيل، وبعدما حكم عليهم بالجلاء صاروا يخربون بيوتهم بأيديهم وبأيدي المؤمنين، وذلك أن الله قذف في قلوبهم الرعب، فأزمعوا الرحيل، وهذا الجلاء عقوبة عاجلة، وفي هذا عبرة لذوي البصائر الذين يتفكرون فيما تجري به الأقدار، وما يفعله الله بأعدائه، ولذا قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ﴾ أي: الله ﷻ بمشيئته النافذة وقدرته التامة ﴿ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النَّضِير بإجماع المفسرين إلا قولا للحسن بأنهم بنو قريظة، وهو قول مردود؛ فإن بني قريظة لم يخرجوا ولم يُجلوا، ولكن قُتلوا.

وبنو النضير إحدى طوائف اليهود الثلاث، الذين كانوا يسكنون في نواحي المدينة، وهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، وكان استيطانهم المدينة - فيما ذكر - انتظارا منهم لما يجدونه في كتابهم من بعثة النبي محمد ﷺ، ولكنهم لم يؤمنوا برسالته ﷺ، بل كفروا به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟

بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكان من خبر نبينا ﷺ أنه لما قدم المدينة عقد مع الطوائف اليهودية الثلاث عقدا ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، ولكنهم جميعا خانوا ونقضوا العهد، وأول من نقض منهم بنو قينقاع، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، إذ اجتمعوا لحرب المسلمين فيما بين بدر وأحد، فحاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه، وذكر سبب آخر في غزو المسلمين لهم، وهو أن امرأة من العرب قدمت بجَلَب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

قلت: ولا يبعد وقوع السببين، والله أعلم، وأيًا ما كان، فقد حاصرهم النبي ﷺ وأمر بإجلائهم، وغنم المسلمون أموالهم.

ثم نقضت بنو النضير العهد بعد أحد في السنة الرابعة؛ إذ انحازوا إلى المشركين ضد النبي ﷺ وأصحابه، ونقل ابن كثير عن ابن إسحاق ووافقه عليه جلُّ أهل المغازي، كما يقول ابن حجر(١)، أن النبي ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية رجلين من بني عامر قتلهما عمرو بن أمية الضَّمري رضي الله عنه، وكان معهما عهد وأمان من النبي ﷺ، ولم يعلم بذلك عمرو، فأظهر بنو النضير الملاينة للنبي ﷺ في أن يعينوه، وكان النبي ﷺ جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم، فأمروا

(١) فتح الباري (٧/ ٣٣).

رجلا منهم هو عمرو بن جَحَّاش أن يعلو الجدار، ويلقي على النبي ﷺ صخرة تقتله، فنزل الوحي من السماء بخبرهم، فقام النبي ﷺ من مكانه كأنه ذاهب إلى حاجة له، ولكنه قفل راجعا إلى المدينة، ثم جاءهم بجيش فحاصرهم ست ليال، حتى رضوا بالجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل من الأمتعة والأموال حاشا السلاح، ثم خرج أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة منهم بخيبر.

وهذه المصالحة على الجلاء إنما كانت في أول الإسلام ثم نسخت لما قوي المسلمون، وفرضت الجزية، فلا يجوز مع قوة المسلمين إلا القتل أو السبي أو الجزية.

ثم نقضت بنو قريظة العهد في السنة الخامسة من الهجرة، وكانوا أشد اليهود عداوة للمسلمين، فخانوا يوم الأحزاب؛ إذ انحازوا إلى المشركين، فحكَّم النبي ﷺ فيهم سعد بن معاذ، فحكم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم وقسم أموالهم بين المسلمين، فقتل منهم في يوم واحد ست مئة أو سبع مئة صبرا، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، وهي التي طرحت الرَّحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب]، وبالقضاء على بني قريظة خلت المدينة من اليهود.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ «مِنْ» بيانية، بيَّنت المراد بالذين كفروا، وسمَّى الله بني النضير كفارا مع أنهم أهل كتاب، فهم أصحاب التوراة؛ لأنهم كفروا برسالة محمد ﷺ ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ في المدينة ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ متعلق بأخرج، أي: أخرجهم في أول الحشر، واللام في ﴿لِأَوَّلِ﴾

للتوقيت، ومآلها إلى معنى «في» الظرفية، كالتي في قولك: كتبتُه لسبع خلون، وقوله: ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الحشر الأول، والحشر هو إخراج جَمْع من مكان إلى آخر، وكان هذا أولَ إخراج لأهل الكتاب من جزيرة العرب، حيث لم يصبهم جلاء قبل ذلك، وهناك حشر آخر وقع لهم، وهو إخراج عمر الفاروق لهم من خيبر في وقت خلافته؛ لأمر النبي ﷺ، وفي الآية معجزة قرآنية وعلم من أعلام النبوة؛ إذ تضمنت الإشارة إلى أن حشرا آخر سيقع لليهود بعد ذلك.

﴿مَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾ من ديارهم وأموالهم بهذا الذل والهوان؛ لقوة حصونهم، وشدة بأسهم، وكثرة أنصارهم، وما لهم من الأموال والنخيل والسلاح ﴿وَظَنُّوٓا۟ ﴾ أي: بنو النضير ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: من عذابه وبأسه وتسليط أوليائه عليهم، والحصون جمع حِصن، وهو كل موضع حصين لا يوصل إلى جوفه، يقال: تحصَّن إذا اتخذ الحِصن مسكنا، ثم توسع فيه، فقيل: درع حصينة، وما أشبه ذلك، فهؤلاء اليهود ظنوا لفرط جهلهم وغرورهم أن حصونهم المنيعة القوية تمنعهم من أمر الله فيهم، كما يفيده تقديم الخبر ﴿مَّانِعَتُهُمْ ﴾ على المبتدأ ﴿حُصُونُهُم ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ أي: فجاءهم عذاب الله وبأسه بالرعب والجلاء من حيث لم يخطر ببالهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي: ألقى فيها الخوف من المسلمين والفزع الشديد الذي استحكم فيها وملأها، ولا سيما بعد قتل أحد كبرائهم وهو كعب بن الأشرف؛ ولذا صار من آثار ما حل بهم من الرعب أنهم يفعلون بأنفسهم ما يفعله عدوهم، وهو أنهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي: ينقضون سقوفها وأبوابها لحملها معهم على الإبل، ولئلا يسكنها المسلمون من بعدهم ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فكان المسلمون يهدمونها من الخارج ليقتحموها عليهم، وقوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم

بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بدأ بتخريبهم لأنه أعجب، وأضاف الله التخريب كله إليهم سواء كان بأيديهم أو بأيدي المؤمنين لأن غدرهم هو السبب في إطلاق أيدي المؤمنين في التخريب ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جمع بصَر، أي: فاتعظوا يا أولي الألباب والعقول النيِّرة المبصرة، وإن الاعتبار بحال أولئك ظاهر لكل من ألقى بصره نحوهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، وهذا خطاب لغير معين، فهو عام، أي: لا تفعلوا مثل ما فعلوا من الكفر والعداوة لله وللمؤمنين، فيحل بكم مثل ما حل بهم من العقوبة، والاعتبار مأخوذ من العبور، وهو الانتقال بحكم الشيء إلى نظيره، وعليه فمن فعل فِعل اليهود أصابه ما أصابهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن بني النضير من أهل الكتاب من اليهود.

٢- إطلاق اسم الكفر على من كذب برسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب.

٣- أن الله هو الذي أخرجهم من ديارهم بما ألقى في قلوبهم من الرعب، ولم يكن ذلك الإخراج بتسبب من المؤمنين.

٤- أن المسلمين لم يكونوا يظنون خروج بني النضير من ديارهم.

٥- أن اليهود كانوا يظنون أن حصونهم تمنعهم، وقد خاب ظنهم، فأتاهم الله بتسليط المؤمنين عليهم فغزوهم وحصروهم.

٦- أن من مجاز اللغة إضافة الفعل إلى مَنْ أمر به، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، وليس هذا من إتيان الله نفسه المذكور في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾.

٧- أن من نصر الله للمؤمنين قذف الرعب في قلوب الكافرين، كما قال ﷺ: «**وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ**»[1].

---

(١) البخاري (٢٨١٥)، ومسلم (٥٢٣)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٨- أن من سنة الله المكر بأعدائه.

٩- أن من حُكم عليهم بالجلاء فإن قلوبهم تتعلق بأموالهم؛ لذلك صار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ليأخذوا ما فيها من الأبواب والأخشاب.

١٠- جواز تخريب بيوت الكفار نكاية بهم وغيظا لهم.

١١- الندب إلى الاعتبار بما يفعله الله بأعداء الرسل، ومن ذلك ما فعله الله بيهود بني النضير.

١٢- أن ذوي البصائر هم أهل الاعتبار.

١٣- إثبات القياس، وهو أن حكم الشيء حكمُ نظيره؛ لقوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾، وهذا ما جرت به سنة الله في أحكامه الكونية والشرعية، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

١٤- أن قصة بني النضير من عجائب ما فعله الله بأعدائه؛ إذ مكر بهم كما مكروا بالرسول ﷺ غير مرة، ففيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾ [النمل].

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان بيان ما يستحقه يهود بني النضير من العذاب في الدنيا والآخرة، وبيان السبب في ذلك.

۞ التفسير:

قوله: ﴿ وَلَوۡلَآ ﴾ الواو للاستئناف، فالكلام مستأنف لبيان استحقاق بني النضير العذاب العاجل في الدنيا، وهو أن الله قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذبهم بالقتل أو السبي أو ما شاء سبحانه من أنواع العذاب.

قوله سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَآ ﴾ لولا حرف امتناع لوجود، فهي تفيد امتناع جوابها لوجود شرطها، معنى الآية: امتنع عذاب الله لهم في الدنيا لوجود قضاء الله السابق عليهم بالجلاء ﴿أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ ﴾ أنْ مصدرية، فهي وما بعدها في تأويل مصدر، أي: لولا كتابة الله على بني النضير وهو حكمه السابق بالخروج من ديارهم على هذا الوجه المهين، يقال: جلا القوم عن منازلهم، وأجلاهم غيرُهم ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ هذا جواب لولا، أي: لعذبهم بما هو أفظع من ذلك، وهو القتل والسبي، كما وقع لإخوانهم بني قريظة فيما بعد، ولكن الله جلت قدرته جعل مآلهم الجلاء والخروج عن الوطن، فلا يكون لهم في المدينة دار، ولا يبقى فيها منهم رجل، وليس هذا بيسير أيضا على النفوس، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ

أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم ﴾ [النساء: ٦٦]، فجعل الله الجلاء عديلا لقتل النفس، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فكان الإخراج من الأوطان من الأسباب الموجبة للقتال.

ثم إن في إجلاء بني النضير والاستيلاء على أسلحتهم دون الاشتباك معهم في حرب استبقاءً لقوة المسلمين للفتوحات الآتية، لا رحمة لبني النضير، على ما قيل.

قوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ فهم مخلدون في نار جهنم، ولا نجاة لهم منها، والجملة مستأنفة، وليست معطوفة على جواب الشرط ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾؛ لأنها لو كانت معطوفة للزم من ذلك نجاتهم من عذاب النار، فإن قوله: ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ هو جواب لولا، والجملة منفية؛ ولذا ينبغي للقارئ أن يقف عند قوله: ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾؛ لأن وصلها بما بعدها يوهم أنها معطوفة عليها وليس كذلك.

ثم بين سبحانه السبب الذي من أجله أخرجوا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي: الأمر النازل بهم في الدنيا وما سيحيق بهم في الآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ ﴾ بسبب أنهم عصوا الله وخالفوا أمره ﴿وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: وشاقوا رسوله وكذبوه، وأصل المشاقة أن يكون الإنسان في شقٍّ ومخالفه في شق آخر، وقريب منها المحادة. ومن يقوى على مشاقة الله ومحادته؟!

قوله: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾ من هؤلاء أو غيرهم يعاقبه أشد العقاب، وأدغمت القاف في القاف في ﴿يُشَآقِّ ﴾ على لغة تميم، وفي الموضع الآخر في الأنفال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأنفال: ١٣] بفك الإدغام على لغة أهل الحجاز، فالوجهان معروفان في اللغة: الفك والإدغام.

واقتصر على ذكر مشاقة الله لأنها متضمنة لمشاقة الرسول، كما صرح بذلك في الآية الأخرى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وللتناسب مع قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وقوله: شديدُ العقابِ، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: إن عقابه شديد، أي: قويٌّ لا يماثله عقاب، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر]، قيل: سمي الجزاء عقابا؛ لأنه يقع عقب الذنب مؤاخذةً به.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الجلاء مكتوب على يهود بين النضير في الكتاب الأول.

٢- أن ذلك هو المانع لعذابهم في الدنيا بأيدي المؤمنين، أو بعذاب من عند الله تعالى.

٣- أن مصيرهم إلى النار في الآخرة.

٤- أن الإخراج من الوطن من أعظم المصائب، ولذا كان من العقوبات، وهو فيما بين الناس من الظلم والعدوان، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

٥- أن جلاء بني النضير وبني قينقاع من المدينة بدايةٌ لتطهير الحجاز من وجود اليهود، بل تطهير لجزيرة العرب كلها من وجود اليهود والنصارى، ولهذا قال ﷺ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما**»(١).

٦- إثبات الجزاء على الأعمال في الدنيا والآخرة.

٧- إثبات الكتب الكوني.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٨- أن سبب هذا الشقاء أنهم شاقوا الله ورسوله، أي: عادوا الله ورسوله بالكفر والتكذيب والكيد.

٩- أن هذا العقاب العاجل والآجل على مشاقتهم ليس خاصًّا بهم، بل هو جزاء كل مشاق لله ورسوله ﷺ، ﴿وَمَن يُشَآقِ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

١٠- تعظيم منزلة الرسول ﷺ؛ إذ قرنت مشاقته بمشاقة الله.

١١- التحذير من أسباب عقاب الله.

١٢- إثبات الأسباب الشرعية، وترتيب مسبَّباتها عليها.

١٣- أن عقاب الله شديد.

١٤- أن تخصيص العلة لا يقدح في صحتها؛ وجهه: أن مشاقة الله ورسوله مقتضيةٌ للعذاب، ولم يعذَّب بنو النضير لأن الله قد كتب عليهم الجلاء، فتخلُّفُ الحكم فيهم لا يقدح في أن المشاقة مقتضية للعذاب.

قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية بيان حكم إتلاف أموال الكفار المحاربين وما في ذلك من الحِكَم.

۞ التفسير:

هذه الآية نزلت في بني النضير بإجماع المفسرين؛ وذلك أنه لما نزل بهم النبي ﷺ محاصرا لهم تحصنوا بحصونهم، فأمر النبي ﷺ بقطع نخيلهم، فصاحوا حينئذ بالمسلمين: كنتم تنهون عن الفساد في الأرض وما تفعلونه هو الفساد؟! فكأن ذلك وقع في نفس بعض الصحابة، روى الترمذي عن ابن عباس: أمروا بقطع النخل فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا، فلنسألنَّ رسول الله ﷺ؛ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآية[(١)].

قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ «ما» اسم شرط جازم وهو في محل نصب مفعول به، وناصبه هو فعل الشرط ﴿قَطَعْتُم﴾، أيْ: أيَّ شيء قطعتم، والخطاب للمؤمنين، ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ الجملة بيانٌ لإيضاح الإبهام في «ما»، واللِّينة هي النخلة، قيل: مأخوذة من اللِّين الذي يدل على الرخاء والنعمة، فالنخلة كلها طيبة؛ فهي

(١) الترمذي (٣٣٠٣)، وقال: «حسن وغريب»، ورواه النسائي في السنن الكبرى (٨٥٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٣١).

طيبة في ثمرها وفي كل ما يخرج منها، وطيبة في هيئتها وصورتها، ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي: كما كانت، فلم تتعرضوا لها بقطع، و﴿قَآئِمَةً﴾ حال، والأصول جمع أصل، وهو الجِذع، كما قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وجمع الأصول لأن المراد جنس النخل، وهي كثيرة.

قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة للجواب؛ المعنى: قطعكم للنخل وترككم له بإذن الله؛ أي: بأمره ورضاه، فالجار والمجرور متعلق بكلا الفعلين: القطع والترك، لا بالقطع وحده، ولم يذكر التحريق لأنه داخل في معنى القطع، وقد ثبت تحريق النبي ﷺ لنخل بني النضير في حديث ابن عمر في الصحيحين[1].

وقوله: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اللام في ﴿وَلِيُخْزِىَ﴾ للتعليل، وهذا معطوف على قوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، من عطف العلة على السبب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، المعنى: قطعكم للنخل أو ترككم له جائز، وليخزي الله الفاسقين، أي: ليهين بني النضير ويذلهم؛ إذ يرون هذا النخل الذي غرسوه بأيديهم - وهو من أنفس الأموال وأكرمها - يحرق بعضه ويقطع بعضه، ويؤول باقيه إلى عدوهم؛ ففي القطع إخزاء لهم بذهابه، وفي الترك إخزاء لهم ببقائه للمسلمين، وتسمية بني النضير بالفاسقين لبيان أن ما جرى عليهم هو بسبب فسقهم، أي: كفرهم بالله تعالى، وتكذيب نبيه ﷺ.

وقطع نخل العدو وأشجارهم وهدم ديارهم وضربها بالمجانيق يرجع فيه إلى المصلحة؛ فإن علم المسلمون أنها تؤول إليهم فتركها أولى، وإن علموا أنها ستبقى بأيدي الكفار فالتخريب والقطع أولى، هذا؛ ولو آلت إلى المسلمين وقد قطعت

---

(١) البخاري (٣٨٠٧)، ومسلم (١٧٤٦).

وحرقت فلا بأس بذلك؛ إذ تكون من جملة الخسائر التي تقع من جراء الحرب.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن من حرب الكفار المحاربين إتلافَ أموالهم؛ كقطع أشجارهم وتحريقها، وتخريب بيوتهم.

٢- أن ما فعله المسلمون في بني النضير كان بإذن الله الكوني والشرعي.

٣- إثبات الإذن الكوني والشرعي.

٤- أن الحكمة من ذلك غيظ الكفار وإذلالهم وخزيهم.

٥- أن المقتضي لفعل ذلك بهم هو فسقهم، وهو كفرهم ومشاقتهم لله ولرسوله ﷺ.

٦- أن إتلاف البيوت وقطع الأشجار في الجهاد في سبيل الله ليس من الإفساد؛ لأن مصلحته تربو على مفسدته؛ فلا يتوجه الطعن به على المسلمين.

٧- أن المسلمين مخيرون في ذلك بين الفعل والترك حسبما يرونه من المصلحة.

٨- في الآية شاهد لقاعدة ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت إحدى المصلحتين لتحصيل أعلاهما.

٩- أن النخل أفضل أنواع الشجر.

١٠- أن قطع النخل أغيظ للعدو.

١١- إثبات التعليل في أفعاله تعالى وأحكامه؛ لقوله: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، والرد على من أنكر ذلك من الجهمية والأشاعرة الذين يقولون: إن أفعاله تعالى صادرة لا عن حكمة، بل لمجرد المشيئة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية بيان السبب في كون أموال بني النضير صارت فيئا للمسلمين لا غنيمة.

۞ التفسير:

لما جلا بنو النضير عن ديارهم، وتركوا أموالهم ودورهم ظن المسلمون أنها ستخمس كغنائم بدر، فبيَّن الله في هذه الآية أن كل ما تركه بنو النضير هو للنبي ﷺ خاصة دون أصحابه(١)، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من بني النضير، وهذه الآية عطف على ما قبلها، و«ما» اسم موصول مبتدأ، خبره: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾، ومعنى أفاء: أعاد الشيءَ وردَّه، وفاء: رجَع، وضمِّن أفاء معنى أنعم، ولذا عدِّي بعلى، المعنى: ما أعاده الله على رسوله من مال الكافرين، وأصل الفيء الرجوع، ومنه فيء الظل، وهو عوده إلى الناحية التي ابتدأ منها، ومنه قوله: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩]، أي: ترجع، والفيء في الشرع ما أخذه المسلمون بحق من أموال الكفار بدون قتال، وقد يطلق على ما أخذوه منهم بقتال، أما الغنيمة؛ فلا تطلق إلا على ما أخذ بعد الحرب والقتال، والأموال التي في أيدي الكفار هي في الحقيقة للمؤمنين؛ لأنهم القائمون بما

---

(١) قال السهيلي: «ولم يختلفوا في أن أموال بني النضير كانت خاصة بالرسول ﷺ» فتح الباري (٧/ ٣٣٠).

أمرهم الله به من عبادته وشكره، فهم أحق بهذه الأموال من الكفار المغتصبين لها، ولهذا رجعها الله إلى المؤمنين، وسماها فيئا.

قوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ خبر المبتدأ، و«ما» نافية، واقترن الخبر بالفاء لأن المبتدأ اسم موصول ففيه شبه بالشرط، والإيجاف الإسراع في السير، وفي حديث ابن عباس في الإفاضة من عرفات، قال ﷺ: «**يا أيها الناس، ليس البر بإيجاف الخيل ولا الإبل، فعليكم بالسكينة**»(١)، يقال: وجَف الفرسُ يجِف وجْفًا ووجيفًا: إذا أسرع، وكذا البعيرُ، وأوجفتُه إيجافًا: إذا حركتَه وحملتَه على الإسراع ﴿مِنۡ خَيۡلٖ﴾ من زائدة لتأكيد النفي ﴿وَلَا رِكَابٖ﴾ أي: ما يُركب، وغلب إطلاقه على الإبل، والرِّكاب اسم جمع، واحده راحلة، ولا واحد له من لفظه، يقال: لراكب البعير راكب، وأما راكب الفرس فيسمى فارسا، والخيل والركاب من آلات الحرب، وقدمت الخيل لأنها أهم.

معنى الآية: أن ما أنعم الله به على رسوله من أموال اليهود لم تتعبوا -أيها المسلمون- في تحصيله بسفر ولا قتال، ولا حركتم من أجله الخيل والركاب، وإنما جاءكم عفوا بلا مشقة، فهو نصر من عند الله، وذلك بالصلح بين الرسول ﷺ وبني النضير، وكان ذهابهم إلى أرض بني النضير مشيا على الأقدام، وكانت أرضهم في حكم المدينة، فلم يكن بينها وبين أرضهم سوى ميلين، وما وقع من الحصار وقطع النخل فهو شيء يسير، ولا يعد قتالا.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ أي: ما حصلتموه بالقهر والغلبة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يشاء أخذه وإهلاكه،

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٥٠٧)، قال محققوه: «إسناده صحيح»، قلت: وأصله في البخاري (١٥٨٧)، ومسلم (١٢٨٢).

فهذه سنته تعالى في المكذبين أنه يسلط عليهم رسله، وجمع الرسل ليكون دليلا لتسليط رسولنا على بني النضير؛ كأنه قيل: ولكن الله يسلط رسوله عليهم؛ لأن عادته تعالى جرت بتسليط رسله على من يشاء، وما وقع لبني النضير هو أن الله ألقى في قلوبهم الرعب، فرضوا بالجلاء وترك أموالهم ودورهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لا يغالب ولا يمانَع ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأظهر الاسم الشريف «اللهُ» مع أنه ذكر في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾؛ لأن الجملة تذييل للآية، ولأنه في مقام إظهار قدرته تعالى ونصره لأوليائه.

دلَّت الآية على أن الأموال التي يأخذها المسلمون من الكفار، ولم يقاتلوا عليها أنها كلَّها لا ينطبق عليها حكم الغنائم التي تخمَّس، ويكون خمسها لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعةُ الأخماس الباقية للمقاتلين، كلَّا؛ فالمال الذي لم يقاتل عليه المسلمون لا يقع تحت هذا الحكم، وإنما هو كله للرسول ﷺ خاصة، فيعطي منه أهله نفقة سنتهم، ثم يضع ما بقي منه في الأصناف التي ذكرها الله في الآية الآتية، قال عمر رضي الله عنه: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، وكان ينفق على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُراع عدة في سبيل الله(١).

ولهذا لم يقسم الرسول ﷺ أموال بني النضير بين جميع الغزاة، وإنما أعطى المهاجرين فحسب؛ ليرفع بذلك مؤنهم عن الأنصار؛ إذ كانوا قاسموهم في أموالهم وديارهم، وأعطى ثلاثة من الأنصار لفقرهم، وهم أبو دُجانة سِمَاك بن خَرَشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصِّمَّة.

---

(١) البخاري (٢٧٤٨)، ومسلم (١٧٥٧). الكُراع: الدَّواب التي تصلح للحرب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وجمهور العلماء على أن الفيء لا يخمَّس، كقول مالك وأبي حنيفة وأحمد، وهذا قول السلف قاطبة، وقال الشافعي والخرقي ومن وافقه من أصحاب أحمد: يخمَّس، والصواب قول الجمهور، فإن السنن الثابتة عن النبي ﷺ وخلفائه تقتضي أنهم لم يخمسوا فيئا قط، بل أموال بني النضير كانت أول الفيء، ولم يخمِّسها النبي ﷺ»(١).

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن أموال بني النضير صارت للمسلمين فيئا.

٢- بيان سبب ذلك؛ وهو أنها صارت للمسلمين بلا قتال؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾.

٣- الفرق بين الفيء والغنيمة في الحقيقة والأحكام.

٤- تسليط الله رسوله ﷺ على بني النضير بالحصار حتى قبلوا الجلاء.

٥- أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأتمر بأمر ربه فيما يفعله بأعدائه.

٦- أن من سنة الله تسليط رسله على أعدائه.

٧- إثبات قدرة الله على كل شيء.

٨- الرد على القدرية المنكرين لعموم القدرة.

---

(١) منهاج السنة (٦/ ١٠٧).

قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية بيان مصارف الفيء، وبيان وجوب طاعة الرسول ﷺ في أمره ونهيه.

۞ التفسير:

لما بين الله تعالى أن ما أخذ من بني النضير من الفيء ليس من قبيل الغنائم فلا يقسم قسمها، بين تعالى مصرف هذا الفيء بعامة في سائر ما يفتح من القرى بغير قتال، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ أي: ما أنعم الله به على رسوله، ولم تعطف الآية بواو على سابقتها لأنها بيان لها، ولا يفصل بين المبيِّن والمبيَّن بالواو ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ جمع قرية، وهي البلدة العامرة بالسكان، والمراد جميع بلدان الكفار التي ستفتح بعد ذلك من غير قتال، وفيه البشارة بالفتوحات الإسلامية، وهو شاهد بإعجاز القرآن وصدق أخباره ﴿فَلِلَّهِ﴾ يجعله لمن يشاء، ويأمركم فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ يأخذ منه نفقته، وهذا في حياته، وأما بعد موته فيصرفه الإمام في وجوه البر ومصالح المسلمين؛ من بناء المساجد، وحفر الأنهار، وبناء القناطر، وإصلاح الطرق، وإعانة المرابطين، وغير ذلك ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القربى مصدر، و«أل» نائبة عن ضمير الغائب، أي: قرابته ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب المؤمنون، وهؤلاء حرمت عليهم الصدقة، فيعطون من الفيء، ودخل بنو المطلب

في الفيء مع بني هاشم ولم يدخل بقية بني عبد مناف؛ وهم عبد شمس ونوفل؛ لأنهم شاركوا بني هاشم حين حوصروا في الشِّعب، مسلمُهم طاعة لله ولرسوله، وكافرُهم حمية للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب عمّ رسول الله ﷺ، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فإنهم لم يوافقوهم، بل حاربوهم ونابذوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ﷺ، ولهذا ذمهم أبو طالب في قصيدته الشهيرة بقوله:

جزى الله عنَّا عبدَ شمسٍ ونوفلًا عقوبةَ شرٍّ عاجلًا غيرَ آجِلِ(١)

فنصر بنو هاشم وبنو المطلب رسول الله ﷺ، بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «**إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام**»(٢).

قوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو من مات أبوه ولم يبلغ، هذا من الإنسان، ويتيم الحيوان هو الذي ماتت أمه، فيعطى اليتامى من الفيء ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي: ذوي المسكنة والفقر، جمع مسكين، وسمي بذلك لأن الفقر أسكنه، أي: أذله ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المنقطِع في سفره، البعيد عن ماله، والسبيل الطريق، جعل المسافر ابنا للطريق لملازمته له، وكل من لزم شيئا نسب إليه؛ كما يقال للناس: بنو الزمان، ولطير الماء: ابن الماء، ونحو ذلك.

قال ابن جُزي في تفسيره التسهيل: « الصحيح أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال(٣)؛ فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب، فهذا يخرج منه الخمس ويقسم باقيه على الغانمين، وأما هذه الآية

---

(١) ديوان أبي طالب (ص٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٦٧٤١)، والنسائي (٤١٣٧) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، وأصله في البخاري (٣٣١١ و٣٩٨٩) بلفظ: «إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد».

(٣) هي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾... الآية [الأنفال: ٤١].

ففي حكم الفيء، وهو ما يؤخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، وإذا كان كذلك فكل واحدة من الآيتين في معنى غير معنى الأخرى، ولها حكم غير حكم الأخرى، فلا تعارض بينهما ولا نسخ، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء، وفي الأنفال لفظ الغنيمة، وقد تقرر في الفقه الفرق بين الفيء والغنيمة، وأن حكمهما مختلف، وهو قول الجمهور، وبه قال مالك وجميع أصحابه، وهو أظهر الأقوال»(١)، وذكر معنى ذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في الكلام على آية الأنفال(٢).

قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾ أي: تولى الله قسمة الفيء في هذه الوجوه لئلا يكون المال متداوَلًا بين الأغنياء فقط، كما كانت الحال في الجاهلية حيث يستأثر الأغنياء بالغنائم دون الفقراء، وقوله: ﴿يَكُونَ﴾ منصوب بأن مضمرة بعد كي، و«لا» حاجز غير حصين، و﴿دُولَةً﴾ خبر كان، واسم كان ضمير مستتر عائد على ما أفاء الله.

ثم أمر الله عباده المؤمنين بطاعة الرسول ﷺ في الأخذ والترك فقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي: وما أعطاكم الرسول من المال وما شرعه لكم من الشرائع فاقبلوه بالرضا، ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: عن أخذه أو فعله ﴿فَانتَهُوا﴾ أي: ابتعدوا عنه ولا تقربوه؛ وهذا هو حق النبي ﷺ على المؤمنين، الطاعة والامتثال من غير مراجعة ولا ارتياب، وهذه الآية أصل في اتباع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته، ودلت الآية على أنّ كل ما أمر به النبيّ ﷺ هو أمرٌ من الله تعالى، روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد كانت تقرأ القرآن، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال لها: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ

---

(١) التسهيل ٣/ ٣٤٩.
(٢) أضواء البيان (٢/٣١٧).

وهو في كتاب الله تعالى؟ قالت: لقد قرأتُ ما بين لوحي المصحف فما وجدتُه، فقال: والله لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، ثم قرأ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

ثم أكد سبحانه وجوب طاعة الرسول ﷺ في جميع أوامره ونواهيه، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بطاعة الله ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ شديدُ العقابِ، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: إن عقابه شديد، أي: قويٌّ لا يماثله عقاب، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر]، قيل: سمي الجزاء عقابا؛ لأنه يقع عقب الذنب مؤاخذةً به.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن مصارف الفيء هي مصارف خمس الغنيمة، قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٢- أن ما يؤول إلى المسلمين من أموال الكفار يكون ملكهم، ويصرف في المصارف المذكورة.

٣- بيان الحكمة من ذكر مصارف الفيء، وهي ألا يكون دولة بين الأغنياء يستبدون به دون الفقراء.

٤- أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال العام والمباح مشتركا بين المسلمين، فالعام مثل الفيء والخراج، والمباح مثل الأرض الموات والركاز.

٥- أن أموال الكفار الأصل أنها للمسلمين حلال لهم؛ لأنهم عباد الله الذين

(١) رواه البخاري (٤٦٠٤)، ومسلم (٢١٢٥).

يستعملونها في طاعته؛ لذلك سمي ما يحصل للمسلمين من أموال الكفار فيئا؛ لأن الفيء بمعنى الرجوع، وبهذا الاعتبار قد تسمى الغنيمة فيئا؛ فالفيء أخص بما ظفر به المسلمون بغير قتال. وهو المشهور في الاصطلاح.

٦- وجوب طاعة الرسول ﷺ.

٧- أن ما أحل الله لعباده وما شرع لهم هو عطية من الله بواسطة رسوله، فعلى العباد أخذها وقبولها بالعمل بها، كما قال ﷺ في القصر: «**صدقة تصدق الله بها عليكم؛ فاقبلوا صدقة ربكم**»(١).

٨- وجوب الانتهاء عمّا نهى عنه الرسول ﷺ.

٩- فيها شاهد لقوله ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم**»(٢).

١٠- وجوب تقوى الله، وهي اتقاء غضبه وعذابه بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

١١- أن الله شديد العقاب.

١٢- تخويف العباد بذلك ليتقوا الله ويطيعوه.

---

(١) رواه مسلم (٦٨٦) عن عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧)؛ عن أبي هريره رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ
مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا
بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات ذكر أصناف من تندرج فيهم مصارف الفيء المذكورة في الآية السابقة، وهم المهاجرون والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم يستغفرون لهم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلخ، بيان أو بدل من قوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية، لبيان دخول الأصناف الثلاثة المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم في الاستحقاق من الفيء، فبيَّن الله تعالى في الآيات أن الفيء يعطى للفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وأموالهم، والإخراج من الديار عديل لقتل النفس، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦].

قوله سبحانه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الجملة حال من الواو في قوله: ﴿أُخْرِجُوا۟﴾ لتفخيم شأنهم، أي: حال كونهم طالبين منه تعالى ﴿فَضْلًا﴾ أي: ثوابا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ بأن يرضى الله عنهم، وهذا ترقٍّ من العالي إلى الأعلى؛ فإن

رضوان الله أكبر من كل عطاء، ومن كل نعيم في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ ﴾ معطوف على ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾، والجملة حال، أي: خرجوا ناصرين لله ورسوله، ولهذا وصفهم الله بكمال الصدق، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ أي: في إيمانهم وجهادهم قولا وفعلا، ولا أدلَّ على صدقهم من تركهم الديار والأموال، وتأمل كيف حصر الصدق فيهم، كأنه لا أحد أصدقُ منهم، وأشار إليهم باسم إشارة البعيد «أُوْلَئِكَ» لعلو منزلتهم، فحق لهم هذا النعت من ربهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ﴾ هذا هو الصنف الثاني من المستحقين للفيء، وهم الأنصار، والموصول معطوف على «الفقراء»، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ﴾ أي: دار الهجرة، وهي المدينة، أي: نزلوها واتخذوها متبوَّأً أي: منزلا، وسمي المنزل مَباءة ومتبوّأً لأن صاحبه يبوء إليه، أي: يرجع، والتعريف في الدار للتنويه؛ كأنها الدار التي تستحق أن تسمى دارا ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: لزموا الإيمان أو أخلصوا الإيمان، فـ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ معطوف على ﴿ٱلدَّارَ﴾ من عطف الجمل؛ فهو منصوب بفعل يناسبه غير فعل التبوؤ؛ لأن التبوؤ يكون في الأماكن، كما قال الشاعر عن فرسه:

عَلَفْتُها تِبْنًا ومَاءً بَارِدا(١)

أي: وسقيتها ماءً باردا.

ولم يجئ التعبير عن الأنصار باسمهم مع أنه المناسب في مقابل «المهاجرين» لمدحهم بملازمة الإيمان ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل تبوؤ المهاجرين للمدينة ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ الجملة مستأنفة للمدح، أي: يحب الأنصار إخوانهم

---

(١) من شواهد النحو المشهورة المجهولة القائل، وهو من الرجز، وبعده قوله:

حتى شتت همّالةً عيناها

المهاجرين إليهم، ويواسونهم بأموالهم، لما استقر في نفوسهم من أخوة الإيمان، مع أن العادة جرت في الناس أنهم لا يحبون من ينتقل إليهم لتوقع المضايقة في الرزق أو في المكان أو في كليهما.

قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: حسدا مما أوتي المهاجرون من الفيء، وما أُعطوه من المناقب وشرف الهجرة، وكان النبي ﷺ قد أعطى المهاجرين من مال بني النضير، ولم يعط من الأنصار سوى ثلاثة لحاجتهم، كما تقدم، فلم يحزن ذلك الباقين، ولم يكن في نفوسهم حرج من ذلك، ودلَّت الآية على فضيلة المهاجرين، وأنهم أفضل من الأنصار مع ما للأنصار من الفضائل؛ لأن الله آتى المهاجرين ما لم يؤت الأنصار، فإن المهاجرين جمعوا بين النصرة والهجرة.

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من خلقهم الإيثار، أي: يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء، ومفعول الإيثار محذوف للتعميم، أي: يبذلون لهم كل ما في أيديهم.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: فاقة وفقر، وهذا منتهى الكرم أن يجود المرء بما عنده مع شدة حاجته إليه، وقد استفاضت الأخبار عن سماحة الأنصار وإيثارهم إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطِع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تُقطِع لإخواننا من المهاجرين مثلها، الحديث(١)، ومن ذلك نزول الأنصار عن شطر أموالهم للمهاجرين، كما جاء في صحيح البخاري عن أنس قال: قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك

(١) البخاري (٣٥٨٣).

ومالك، دلني على السوق[١]، ومن ذلك أيضا أن الأنصار قالوا للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا - أي: المهاجرين - النخل، أي: نخل الأنصار، فقال النبي ﷺ: «**لا**»، فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا[٢].

ولقد أثنى النبي ﷺ على الأنصار بقوله: «**لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار**»[٣].

قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن سَلِم - بتوفيق الله - من الشح، وهو البخل الشديد، وأضاف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨]، أي: جُبلت عليه، قال ﷺ: «**اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**»[٤]، قال ﷺ: «**لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم**»[٥]، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بسعادة الدارين، وختام الآية بهذه الجملة فيه ثناء على الأنصار، ودليل على سلامة نفوسهم من داء الشح الوبيل.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هؤلاء هم الصنف الثالث من أهل الفيء، وهم الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان من المؤمنين في مختلف الأزمان والأوطان إلى يوم القيامة، يقدَّم المحتاج على

---

(١) البخاري (٢٢٤٧).
(٢) البخاري (٢٣٢٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) البخاري (٤٠٧٥)، ومسلم (١٠٦١)؛ عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه.
(٤) رواه مسلم (٢٥٧٨) عن جابر رضي الله عنه.
(٥) رواه الإمام أحمد (٧٤٨٠)، والنسائي (٣١١٠)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال محققو المسند ط. مؤسسة الرسالة: «صحيح بطرقه وشواهده».

غيره، فالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟﴾ وعلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، قال الآلوسي: «وهذا هو الذي يدل عليه كلام عمر رضي الله عنه، وكلامُ كثير من السلف كالصريح فيه»(١)، يريد بكلام عمر ما رواه ابن جرير وغيره عنه رضي الله عنه أنه قرأ قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، ثم قال: والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، ثم قال: والله ما هو لهؤلاء وحدهم، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، ثم قال: استوعبت هذه الآيات المسلمين عامة، فليس أحد إلا له حق في هذا المال(٢).

وعلى هذا الاختيار تكون جملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ في موضع نصب على الحال، وبهذا يتبين ضعف القول بأن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾، وأن الآية مستأنفة، فهذا قول ضعيف؛ لأنه يقطع الآية عمَّا قبلها، ويخرجها عن سياقها، فلا تكون دالة على أن المذكورين صنف من أهل الفيء، ومما يبين ضعف هذا القول أيضا ما نبه عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في سياق تضعيف هذا القول، قال: «لأنه يقتضي أنه تعالى أخبر بأن كل من يأتي بعد المهاجرين والأنصار يقول: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية، والواقع خلافه؛ لأن كثيرا ممن جاء بعدهم

(١) روح المعاني (٢٨/ ٥٤).

(٢) تفسير ابن جرير (٢٢/ ٥١٦)، ورواه البيهقي أيضا في السنن الكبرى (٦/ ٣٥١)؛ عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر به، قال الألباني: «إسناده صحيح». إرواء الغليل (٥/ ٨٣) وراه البيهقي أيضا (٦/ ٣٥١) عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، وحسن إسناده الألباني في الإرواء (٥/ ٨٤)، قال صاحب الدر المنثور (١٤/ ٣٦٠): «ورواه عبد الرزاق، وأبو عبيد وابن زنجويه؛ معا في الأموال، وعَبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن مردويه».

يسبون الصحابة ويلعنونهم»[١]، قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: يدعون بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يا ربَّنا، وهذا توسل إلى الله بربوبيته، وهو من أدب الدعاء ﴿ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ في الدين، المعنى: تجاوز عن ذنوبنا جميعا واسترها، وأخوة الدين أعز من أخوة النسب وأعلى وأقوى، وفي الآية الحث على حسن الإخاء بين المؤمنين، وأن حقًّا على المسلمين أن يذكروا أسلافهم بخير، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ اعتراف منهم بفضل المهاجرين والأنصار وسبقهم لهم بالإيمان، وأنه الباعث على الدعاء لهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: حقدا وحسدا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لجميع المؤمنين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ﴾ أي: ذو رأفة، وهي أرقُّ الرحمة وألطفها ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة، وهذا توسل إلى الله بهذين الاسمين الكريمين، وبما دلَّا عليه من الرأفة والرحمة أن يجيب دعاءهم فيغفر لهم، ويطهر قلوبهم من الغل على إخوانهم.

فهذه من صفات المؤمنين التابعين لأسلافهم أنهم يدعون لهم ويشهدون لهم بالفضل عليهم، وأن صدورهم سالمة من الضغينة تجاههم، وأنهم يمجدون الله بأجمل الصفات وأحسن النعوت، وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة، قال ابن كثير ﵀: «وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»، ثم ساق ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم عن عائشة ﵂ أنها قالت: أُمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم! ثم قرأت هذه الآية[٢]، نسأل الله أن يرزقنا حب الصحابة أجمعين، وأن يجمعنا

(١) أضواء البيان (٢/ ٦٩)، وقال ذلك في تفسير سورة الأنفال؛ فإن الشيخ لم يفسر سورة الحشر، عليه رحمة الله.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).

بهم في دار كرامته ورضوانه.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن هذه الأصناف الثلاثة هم المستحقون للفيء؛ وهم المهاجرون والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم؛ ويتفرع على ذلك:

٢- أن جميع المسلمين مستحقون للفيء إلى آخر الدهر، يقسم بينهم بحسب مراتبهم وحاجتهم، ويصرف في مصالحهم.

٣- أن الفقراء منهم أحق بالفيء من غيرهم.

٤- فضل المهاجرين على الأنصار؛ لتقديمهم في الذكر عليهم.

٥- بعض وجوه فضل المهاجرين:

٦- تركهم أوطانهم وأموالهم طلبا لفضل الله ورضوانه، سواء خرجوا مختارين، أو أخرجوا مكرهين.

٧- أن غايتهم من الهجرة طلب الثواب من الله.

٨- أن من غايتهم أن ينصروا الله ورسوله.

٩- نعتهم بالصدق بطريق الحصر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

١٠- بعض وجوه فضل الأنصار:

١١- السبق إلى الإيمان.

١٢- حبهم للمهاجرين.

١٣- طهارة قلوبهم من حسد المهاجرين.

١٤- وصفهم بالإيثار مع شدة الحاجة.

١٥- أنهم بهذا الإيثار وقوا شح أنفسهم.

١٦- نعتهم بالفلاح بطريق الحصر: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

١٧- ذم الشح؛ وهو شدة البخل والحرص.

١٨- أن من الأخلاق الكريمة: الإيثار بالمنافع الدنيوية.

١٩- الترغيب في هذه الفضائل.

٢٠- أن من أسماء المدينة الدار، نصَّ عليه النووي وجماعة(١).

٢١- فضل الذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار، وتبعوهم على الإيمان، ومن وجوه فضلهم أنهم يستغفرون لمن سبقهم من المؤمنين، ويدعون بطهارة قلوبهم من الغل على المؤمنين.

٢٢- أن الرافضة المبغضين للصحابة لا يستحقون من الفيء شيئا.

٢٣- الترغيب والحث على سلامة القلوب والألسن لأصحاب رسول الله ﷺ، ومن آثار ذلك الاستغفار لهم والترضي عنهم.

٢٤- استحباب الدعاء بهذا الدعاء ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٥- التوسل إلى الله بربوبيته ورأفته ورحمته.

٢٦- أن من أسمائه تعالى الرؤوف والرحيم.

---

(١) شرح مسلم (٩/ ١٥٥).

لما ذكر الله ما حل ببني النضير، وبيَّن مصارف فيئهم وفيء غيرهم من أهل القرى، ذكر ما كان من حال المنافقين مع بني النضير من تثبيتهم إياهم، ووعدهم لهم بنصرهم على المسلمين، فقال سبحانه:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان التعجيب من حال المنافقين مع إخوانهم من الكافرين من اليهود، ووعودهم لهم، وتكذيب الله إياهم.

۞ التفسير:

قوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ولغيره، فهو عام لكل من يعقل الخطاب، أي: ألم تر ببصرك وتعلم بحال الذين نافقوا، والاستفهام للتقرير والتعجيب، أي: حمل المخاطب على التعجب، أي: انظُر وتعجب إلى ما جرى من المنافقين مع إخوانهم اليهود، والمنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، والنفاق لفظ شرعي، خُصوا بهذا الاسم وإن كانوا كفارا، قيل: مأخوذ من نافِقاء اليَرْبُوع؛ وذلك لأن جُحر اليَرْبوع له بابان، أحدهما يسمى النافِقاء، فإذا طلب من أيهما خرج من الآخر، وسمي المنافق بذلك لأنه وضع لنفسه طريقين إظهار الإسلام وإضمار الكفر، فمن أيهما طلبته خرج من الآخر،

ويلحظ هنا ذكر هؤلاء المنافقين بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، وهذا لا نظير له في القرآن إلا قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وفيما سواهما يذكرون بلفظ المنافقين، ويمكن أن يوجه ذلك بسببين:

الأول: لفظيٌّ، وهو افتتاح الآية بهذا الاستفهام ﴿۞أَلَمۡ تَرَ﴾؛ فإنه اطَّرد في القرآن أن يليه الاسم الموصول «الذي» أو «الذين»، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

الثاني: معنويٌّ، وهو أن المعنيَّ بالذين نافقوا في الآية جماعة من المنافقين ذكرهم المفسرون، والله أعلم بأسرار كتابه.

هؤلاء المنافقون ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف مبيّن للمتعجَّب منه، وصيغة المضارع لبيان تكرر ذلك منهم، ولاستحضار الحال ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ اللام للتبليغ[1]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود من بني النضير، وكتابهم التوراة، وسماهم كفارا لأنهم كفروا برسالة محمد ﷺ، وكذبوا بالقرآن، ولهذا جعلهم الله إخوان المنافقين لا في النسب، بل في الكفر والتكذيب، وإخوانا في عداوتهم للنبي ﷺ، ولذا وعدهم المنافقون بنصرهم إذا قاتلهم المسلمون، وقالوا لهم: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾ من دياركم وأموالكم قسرا، وهو الجَلاء، واللام هي الموطئة للقسم، وجواب القسم: ﴿لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ ونذهب معكم حيث تذهبون ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا﴾ أي: ولا نطيع أحدا يمنعنا من نصركم أو الخروج معكم ﴿أَبَدٗا﴾ أي: دائما ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ أي: وإن قاتلكم أحد لنعاونكم عليهم،

(١) هي الجارة لاسم السامع لقول أو ما في معناه، نحو: «قلتُ له وأذنتُ له، وفسَّرتُ له». قاله في مغني اللبيب (ص٤٤١).

يريدون بذلك المسلمين، وأصل ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ ولئن، حذفت منها اللام الموطئة للقسم، وذلك قليل، والأكثر إثباتها، ومن الحذف قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة: ٧٣]، وقد أكذب الله المنافقين في وعودهم المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي: فيما وعدوهم به، وجاء الرد من الله بلفظ الشهادة تأكيدا لتكذيبهم، فصار في هذا الرد أربعة مؤكدات: الخبر بالجملة الاسمية، وإنَّ، ولام الابتداء، ولفظ الشهادة.

ولما كذَّبهم الله إجمالا في كل ما قالوا، كذَّبهم على سبيل التفصيل؛ فقال سبحانه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي: لئن أُخرج اليهود من المدينة لا يخرج المنافقون معهم ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: لا يقاتلون معهم بل يخذلونهم، وهذا شأن المنافقين في كل زمان؛ فإنهم يظهرون النصح لأوليائهم من الكافرين، وهم بخلاف ما يدَّعون؛ فلا يثق بهم من جرَّبهم.

قوله: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: بالقتال معهم، على سبيل الفرض والتقدير؛ لأن الله نفى نصرتهم في الجملة السابقة ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾، وما أخبر الله بأنه لا يكون فإنه لا يمتنع فرض وجوده، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وهو كثير في القرآن.

قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ أي: المنافقون ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ وهذا كناية عن فرارهم وانهزامهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يُنصر اليهود، بل يهلكون؛ لأن الله حكم بخذلانهم، وفي الآية تثبيت للمؤمنين وبشارة، وفي الجمل الثلاث ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟﴾، وما بعدها إخبارٌ عن أمر غيبي تحقق في الواقع، وهو عدم خروج المنافقين مع اليهود، وعدم نصرتهم لهم، ولو نصروهم لولوا الأدبار، وفي هذا علَم من أعلام

نبوته ﷺ، وشاهد من شواهد إعجاز القرآن.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن للمنافقين أثرا في نقض بني النضير للعهد.

٢- أن حال المنافقين مع اليهود عجيبة، ويظهر ذلك في الوعود الكاذبة، وانخداع اليهود بهم.

٣- عقد الأخوة بين المنافقين واليهود.

٤- تأكيد المنافقين وعودهم بالأيمان.

٥- أن اليهود لن يغني عنهم المنافقون شيئا بهذه الوعود، فمِن جهلهم وسفههم تصديق وعودهم والانخداع بها.

٦- أن اليهود كفار؛ ففيها:

٧- الرد على من يصحح دينهم، أو يتحاشى وصفهم بالكفر.

٨- شهادة الله عليهم بالكذب.

٩- علم الله بما كان وما لا يكون، لو كان كيف يكون.

لما أخبر الله تعالى عن اليهود أنهم لا يُنصرون ذكر سبحانه دليلا على عدم نصرهم، وهو ما ألقي في قلوبهم من الرعب، فخوفهم من المؤمنين أشدُّ من خوفهم من الله، فقال سبحانه:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤)﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان الإخبار عن بعض أخلاق اليهود الذميمة، تشنيعا عليهم، وتحذيرا من مشابهتهم.

۞ التفسير:

قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون، واللام لام الابتداء المفيدة للتأكيد ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ﴾ الضمير في ﴿صُدُورِهِم﴾ يعود على يهود بني النضير؛ لأن الحديث عنهم، وهو اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿رَهْبَةً﴾ تمييز محول عن المبتدأ، أي: لَرهبتُكم الكائنة في صدورهم أشدُّ وأعظمُ من رهبتهم من الله، فالمؤمنون مرهوبون، واليهود راهبون، والآية مصوغة على طريقة بديعة من الإيجاز ليحصل الابتداء بضمير المسلمين، وقوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ تأكيد لوقوع الخوف حقيقة، كقولهم: رأيته بعيني، والمراد في قلوبهم، وفي ذكر الصدور ـ والله أعلم ـ إشارة إلى تمكن الرهبة منهم بحيث ملأت صدورهم، وإنما اشتد خوف اليهود من المؤمنين لما معهم من الإيمان الذي هو أعظم سلاح يتسلح به

أهله؛ فهو القوة المعنوية التي لا تغلب، وهو السبب الأعظم لنصر الله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من شدة خوف اليهود من المؤمنين أشدَّ من خوفهم من الخالق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ عظمة الله، ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم.

ثم ذكر الله دليلا على رهبتهم من المؤمنين فقال سبحانه: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لا يقدرون على مقاتلتكم حال كونهم مجتمعين ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: إلا في حال كونهم في قرى محصَّنة بالأسوار والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: من وراء حيطان يستترون بها، وجُدُر جمع جِدَار، مثل كُتُب وكتاب، المعنى: أنهم لا يبرزون للقتال في العراء؛ لشدة خوفهم منكم، وفي الآية إلهاب للمؤمنين، وحثٌّ لهم على قتال اليهود، وبشارة بالنصر عليهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أصل البأس الحرب، والمراد هنا العداوة، أي: عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ أيها الناظر إليهم، والخطاب لغير معين ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين متفقين على رأي واحد وكلمة واحدة ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: والحال أن قلوبهم شتى، أي: متفرقة لا ألفة بينها، شتى: جمع شَتِيت، كمرضَى ومريض وقتلَى وقتيل، والشتيت هو المتفرق، قال قتادة: تجد أهل الباطل مختلفةً شهادتُهم، مختلفةً أهواؤُهم، مختلفةً أعمالُهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق(١)، وفي الآية إرشاد للمؤمنين إلى الاجتماع والاعتصام بحبله المتين وكتابه المبين، وتحذير لهم من التخالف والتدابر واتباع الهوى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عداؤهم فيما بينهم وتفرقهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا عقول لهم يعقلون بها أمر الله ويتدبرون آياته، ويعقلون

---

(١) رواه ابن جرير بسند حسن (٢٢/ ٥٣٨).

قبـح مـا هم عليه، وإذا كان اليهود موصوفين بعـدم العقل وهـم مجتمعون، فأحرى أن يوصـف بذلـك كل واحـد منهم على انفـراده، والحاصـل أن الله تعالى نفى عن هؤلاء الأشرار الفقه والعقل، فدل على سقوطهم عن مرتبة العقلاء.

۞ الفوائد والأحكام:

١- شدة خوف اليهود من المؤمنين، وهذا من النصر بالرعب الذي يجعله الله في قلوب الكافرين.

٢- قلة خوف اليهود من الله تعالى.

٣- علم الله بما في القلوب.

٤- أن من قبيح الأخلاق خوفَ المخلوق أشدَّ من خوف الخالق.

٥- وجوب الخوف من الله ﷻ.

٦- أن مـا تخلَّـق بـه اليهود من قبيح الأخلاق سـببه عـدم الفقه فـي معرفة الله ومعرفة شرعه.

٧- وصـف اليهـود بالجبن، يدل لذلك أنهم لا يقاتلـون المؤمنين إلا في قرى محميّة بالحصون، أو من وراء الجدران.

٨- فسادُ ذاتِ بينِ اليهود، وعداوة بعضهم لبعض.

٩- إظهارهـم الألفـة فيما بينهم، وهـو متفرقون فـي باطنهم؛ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

١٠- أن سبب الفرقة بينهم وعداوة بعضهم لبعض: فسادُ عقولهم.

١١- بشارة المؤمنين بسوء حال اليهود حثًّا على قتالهم.

١٢- التحذير من مشابهة اليهود في أخلاقهم.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات تمثيلَ يهود بني النضير بسلفهم بني قينقاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ قبل بني النضير، وتمثيلَهم بالإنسان الذي غره الشيطان فأمره بالكفر فأطاعه، ثم تبرَّأ منه، ووجه الشبه أن يهود بني النضير غرَّهم المنافقون بالوعود الكاذبة، كما في الآية السابقة: ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ الآية.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ «كمثل» خبر لمبتدأ محذوف، أي: مثَلهم كمَثَل، أي: صفتهم كصفة الذين من قبلهم، واعلم أن لفظ المَثَل في القرآن يأتي على وجهين:

الأول: المَثَل بمعنى الصفة، كقوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: صفة الجنة ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الرعد: ٣٥]، ومنه هذه الآية التي نحن بصددها.

الثاني: المَثَل بمعنى الصفة الغريبة التي يتوصل إليها بطريق التشبيه البديع، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:

٢٤]، وكقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وغير ذلك من الآيات، ولضرب المثل فوائد، منها: حصول العظة والعبرة، وتقريب المعاني المعقولة للأفهام بتشبيهها بالمحسوسات. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: صفتهم كصفة الذين من قبلهم، والمعنى: مثَلُ بني النضير ـ أي: صفتهم ـ في نقضهم للعهد وما نزل بهم من الجلاء والذل والهزيمة كمثَل الذين من قبلهم ﴿قَرِيبًا﴾ أي: في وقت قريب، وهو منصوب على الظرفية، والمراد بنو قينقاع؛ فإنهم أولُ من نقض العهد من اليهود مع النبي ﷺ، وذلك في السنة الثانية من الهجرة، وكانوا أكثر اليهود أموالا، وأشدهم بأسا، فلما كانت وقعة بدر، أظهروا البغي والعداوة، ونبذوا العهد، فأخرجهم رسول الله من المدينة إلى الشام، وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر، ولهذا أخبر تعالى أنهم ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا سوء عاقبة كفرهم وإجرامهم في الدنيا، وهو الجلاء، وأصل الوبال الثِّقَل والمكروه، ومنه: طعام وبيل، إذا كان ثقيلا على المعدة، ومطر وابل، أي: ثقيل القطر، ثم صار الوبال مستعملا في كل ما يؤذي معنويا؛ لأنه ثقيل على النفس ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجع، وتنكير العذاب يدل على شدته، وأنه فوق كل وصف.

ثم ضرب الله مثلا للمنافقين مع بني النضير بالشيطان مع الإنسان، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وكمثل، حذف حرف العطف، وحذفه معروف في كلامهم، كقولهم: أنت عاقل، أنت كريم، أنت شجاع، المعنى: مثَل المنافقين في إغراء بني النضير بقتال المسلمين ووعدهم الكاذب لهم بالنصر ثم تخليهم عنهم، كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: زيَّن له الكفر وأغواه بوسوسته له، والمراد بالشيطان والإنسان الجنس ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان طاعة للشيطان، ودلت الفاء على

إسراعه في متابعته، كأنه ملك مطاع ﴿قَالَ﴾ الشيطان ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ ومن كفرك، لا أحمل وزرك، ولا أملك خلاصك، تبرأ منه في العاقبة، وتركه لمصيره، ونفض يديه منه، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: رب الخلائق كلها، وهذا كذب منه واستهزاء ليزيد هذا الإنسان حسرة على استجابته لما دعاه إليه من الكفر؛ وإلا فلو كان الشيطان يخاف الله لما ضلَّ وأضلَّ، ويحتمل- والله أعلم- أن يكون هذا من الشيطان في الآخرة حين يرى العذاب، فيطمع أن ينجو منه بهذه البراءة، وليس بناج، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ بالنصب خبر كان مقدَّم، أي: عاقبة الشيطان والإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ خلودا أبديًّا، و﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾ منصوب على الحال، والجار والمجرور خبر «أن»، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الخلود في العذاب ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين، وقول الشيطان هذا للإنسان شبيه بقوله للمشركين يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

۞ الفوائد والأحكام:

١- التشابه بين طائفتي اليهود بني النضير وبني قينقاع في سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، وبنوع العقوبة في الدنيا والآخرة؛ فقوله تعالى في بني قينقاع: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ ـ وهو الجلاء ـ هو ما حلَّ ببني النضير. وقوله في بني قينقاع: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ـ أي: في الآخرة ـ كقوله في بني النضير: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾.

٢- تشبيه بني النضير في انخداعهم بوعود المنافقين بالإنسان الذي غره الشيطان، فأوقعه في الكفر فتبرأ منه.

٣- تشبيه المنافقين بالشيطان في الكيد والمكر.

٤- أن الشيطان شيء قائم بنفسه؛ إما من الجن أو من الإنس؛ ففيه:

٥- الرد على من يزعم أن الشياطين قوى الشر في الإنسان.

٦- أن عاقبة الضال بالكفر والمضل واحدةٌ، وهي الخلود في النار.

٧- أن الخلود في النار جزاء الظالمين، وهم الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولما ذمَّ الله اليهود والمنافقين أعقب ذلك بوعظ المؤمنين وأمرهم بلزوم تقوى الله، وحذرهم من مشابهة الكافرين من اليهود والمنافقين، فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات توجيه الخطاب من الله لعباده المؤمنين، ووصيتَهم بالتقوى ومحاسبة النفس، وتحذيرَهم من مشابهة أعداء الله من الكفار والمنافقين، ووعْدَهم بالفوز في جنات النعيم.

۞ التفسير:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: يا من صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه، وكثيرا ما تصدَّر الأوامر والنواهي في القرآن بهذا النداء، وإن له فوائد منها:

الأولى: أنه دليل على أهمية المأمور به، وعظيم شأنه؛ لما في هذه الصيغة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ من أنواع التأكيد؛ وهي:

١- تكرير المنادَى؛ فـ«أيّ»، منادَى وهي نكرة مقصودة، والموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ منادَى، وهما شيء واحد.

٢- الإيضاح بعد الإبهام في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بعد قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾.

٣- اجتماع المعرفتين «أيّ» و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

٤- التأكيد بحرف التنبيه «يا»؛ فإن النداء يوجب انتباه المنادَى، فإذا قلت: يا

فلان، التفت تجاهك، وأصغى إليك.

الفائدة الثانية: أن النداء بوصف الإيمان دليلٌ على أن امتثال الأمر من مقتضيات الإيمان، وأنه يزيد في الإيمان، فهذا فيه استثارة لهمم المؤمنين وعزائمهم، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرْعِها سمعك؛ فإنه خيرٌ تؤمر به، أو شرٌّ تنهى عنه[1]، يعني: يحصل لك به العبرة والاتعاظ، فيؤول إلى خيرٍ لك أيضا.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الخطاب للرجال والنساء، وغلِّب الرجال، وتغليبهم من سنن العرب في كلامها.

قوله سبحانه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية من فعل أوامره واجتناب مناهيه ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ اللام لام الأمر ﴿نَفْسٌ﴾ أي: الإنسان المكلف بروحه وجسده، وتنكير نفس للعموم، أي: لتنظر كلُّ نفس ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ من العمل ﴿لِغَدٍ﴾ أي: ليوم القيامة، سماه ﴿غَدًا﴾ لقربه عند الله عز وجل، تشبيها له باليوم الذي يلي يومك، وكلُّ آتٍ فهو قريبٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧]، واللام في قوله: ﴿لِغَدٍ﴾ للتعليل، أي من أجل النجاة والسعادة في يوم القيامة، المعنى: ليحاسب كلٌّ منكم نفسه اليوم عمَّا عمله لغد من الأعمال الصالحة؛ فاليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، وتنكير «غدٍ» لعظمه وما فيه من الأهوال، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تأكيد للأمر بالتقوى لعظم شأنها، ثم وعد وأوعد وبشَّر وأنذر فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عليم بأعمالكم ظواهرها وبواطنها، وما تسرون منها وما تعلنون.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

ثم حذَّرهم من مشابهة الأشقياء من اليهود والمنافقين، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: تركوا أداء حقوقه، وهذا أبلغ في النهي من: لا تنسوا الله؛ لأن النهي عن التشبه بأهل الباطل أبلغُ في التحذير من النهي عن الباطل نفسه ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ ﴾ أي: خذلهم، فأنساهم حقوق أنفسهم، فلم يعملوا بما فيه نجاتها من العذاب، وهذا من قبيل الجزاء من جنس العمل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله، فهم غاية في الفسق، وفسقهم هو الكفر؛ كأنهم لا أحد أعظم منهم فسقا؛ لما يفيده أسلوب الحصر.

ثم نبه تعالى على الفرق الشاسع بين الفاسقين أصحاب النار والمتقين أصحاب الجنة، فقال: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ ﴾ في الحال والمآل ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسوا الله فصاروا إلى النار في شقاء سرمديٍّ، وقدَّم أصحاب النار في الذكر - والله أعلم - للمبادرة بإبطال ما يقتضيه فعلُ من آثر الضلال على الهدى والعذابَ على المغفرة، وهذه عادة القرآن في نفي التسوية بين الضدين؛ فإنه يبدأ بالأدنى؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ ﴾ [الرعد: ١٦].

وقوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ ﴾ الذين اتقوا الله ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ الجملة مؤكدة لنفي الاستواء، أي: الفائزون بالنعيم المقيم والسعادة الأبدية؛ لأنهم ظفروا بالمطلوب ونجوا من المرهوب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، هذا؛ ونفي استواء الفريقين تنبيه على ما هو مستقر في العقول من عدم استواء أصحاب النار وأصحاب الجنة، وتقبيح لمن اشترى النار بالجنة بإيثار الكفر على الإيمان.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تكريم المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب بصفة الإيمان.

٢- تذكيرهم بما يقتضي الاستجابة لأمر الله ونهيه؛ وهو الإيمان.

٣- وجوب تقوى الله في كل حال وحين.

٤- تأكيد الوصية بالتقوى.

٥- وجوب محاسبة النفس بالنظر فيما يقدِّمه العبد من عمل صالح لآخرته.

٦- أن الله خبير بما يعمل العباد، وفي التذكير بذلك وعد ووعيد وترغيب وترهيب.

٧- تحريم مشابهة المعرضين عن ذكر الله المفرِّطين في حقوقه.

٨- أن الجزاء من جنس العمل؛ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

٩- إثبات الجزاء على الأعمال حسَنها وسيئها.

١٠- إطلاق اسم الفسق على المنافقين والكافرين؛ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

١١- أن أولئك الفاسقين هم أصحاب النار، وأن المؤمنين هم أصحاب الجنة، وهم الفائزون.

١٢- أن الفاسقين هم الخاسرون.

١٣- التباين العظيم بين المؤمنين والفاسقين في الأعمال والأحوال والمآل، وهو الجزاء.

١٤- إثبات حكمة الله في أحكامه؛ فلا يسوِّي بين المختلفات، ولا يفرِّق بين المتماثلات

لما أخبر الله عن حال الفريقين أصحاب النار وأصحاب الجنة وأنهم لا يستوون، وكان القرآن هو النور المبين، والهادي إلى مسالك المتقين، والمحذر من طرق الضالين؛ نوَّه الله بشأنه، وأخبر الله عن عظمته، وشدة تأثيره، فقال سبحانه:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية التنويه بعظمة القرآن، وشدةَ تأثيره، وضربَ المثل لذلك بإنزال القرآن على جبل، وبيانَ الحكمة من ضرب الأمثال.

۞ التفسير:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا﴾ «لو» حرف شرط غير جازم يدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط، وفعل الشرط قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ والجواب: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾، وجاءت اللام في جواب «لو» لأنه مثبت، هذا هو الأكثر، وقد تحذف منه قليلا، كما في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، أما إذا كان جواب «لو» منفيًّا فلا تدخله اللام، هذه هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ومما دخلت فيه اللام على جواب «لو» المنفيِّ قول الشاعر:

ولَـو نُعطَـى الخِيـارَ لمـا افترَقْنا ... ولَكِـنْ لَا خِيَـارَ مَـعَ اللَّيَالِـي[1]

---

(١) من شواهد النحويين، وهو في المصادر بلا نسبة. ينظر: مغني اللبيب (ص ٣٥٨)، وأوضح المسالك (٤/ ٢٣١)، وخزانة الأدب (٤/ ١٤٥).

قولـه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ هـذا مثـل ضربـه الله ﷻ لبيـان عظمة القـرآن وقـوة تأثيره، والـكلام على الفـرض والتقدير؛ المعنى: لـو خوطب الجبلُ بهـذا القـرآن العظيم بمـا فيه من ذكر أسـماء الله وصفاته وعزتـه وجبروته وعظمته وكبريائـه، وما تضمنه مـن المواعظ والقوارع والوعد والوعيد والحِكَم والتكاليف والأحكام وقصص الأنبياء والمرسلين وأخبار الغابرين ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ أيها الرائي على صلابتـه وشـدته ﴿خَٰشِعًا﴾ أي: متذلـلا ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متشـققا متزلـزلا ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: خوفا من الله ﷻ ومهابة له، والقصد بهذا المثل:

١- تعظيم القرآن.

٢- الحضُّ على تدبره، وتفهُّم معانيه.

٣- توبيـخ أصحـاب القلوب القاسـية الذين لا ينتفعون بمواعـظ بالقرآن، ولا تخشـع لـه قلوبهم، فـإذا كانت الجبال الصمُّ الراسـيات التـي هي مضرب المثل في القسوة، بحيث لو أنزل عليها القرآن لخشعت واصَّدَّعت، فكيف لا يتأثر الإنسـان بهذا القرآن؟! اللهم إلا أن يكون قلبه كالحجارة أو أشـد قسوة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال سـبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، قـال بعـضُ السـلف: مـن لـم يردعـه القـرآنُ والموت، لـو تناطحت الجبالُ بين يديه لم يرتدع.

فالمقصود أن في الآية تشبيه قلوب المعرضين والكافرين في قسوتها بحجارة الجبال، وأن هذه القلوب أقسى من الجبال، فالجبال لو أنزل عليها القرآن لخشعت وتصدعـت، ولهـذا قـال تعالـى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ في القـرآن ومنها هـذا المثل ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾، والمثـل هو الصفة العجيبة الغريبة تذكر للعظة والاعتبار،

كصفة الجبل لو أنزل عليه القرآن، وضربُ المثل على هذا ذكرُ هذه الصفة، ولفظ المثل حقيقة عرفية في القول السائر، ثم يستعار لكل أمر غريب وصفة عجيبة الشأن، تشبيها له بالقول السائر في الغرابة؛ لأنه لا يخلو عن غرابة، ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: نسوقها للناس بينة واضحة لينتفعوا بها، وبما تدل عليه من المعاني؛ فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعاني المحتجبة للأفهام، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: من أجل أن يتفكروا فيها، ويعملوا فيها أفكارهم ليأخذوا منها العظة، وأصل التفكر تطلب القلب لمعاني الأشياء، وينبغي للمؤمن إذا مر بأمثال الله المضروبة في القرآن أن يقف عندها، ويتدبرها، ويجمع لها قلبه وفكره، ليخرج منها بأجلِّ عظة وأعظم عبرة، وما أقل المنتفعين بهذه الأمثال! قال ابن القيم رحمه الله: «أهل العلم هم المنتفعون بهذه الأمثال التي يضربها الله لعباده، والمختصون بعلمها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [طه: ٤٣]، وفي القرآن بضعة وأربعون مثلا، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين»(١).

۞ الفوائد والأحكام:

١- التنبيه على عظمة هذا القرآن المنزل على محمد ﷺ.

٢- التنبيه على شدة تأثيره فيما نزل عليه.

٣- التعريض بذوي القلوب القاسية بأنها أشد من الحجارة، كالذين قال الله فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

٤- فرض وقوع ما لا يقع في سنة الله، والإخبار عمَّا يترتب على ذلك.

٥- علم الله بما لا يكون لو كان كيف يكون.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٦).

٦- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] أي: لكان هذا القرآن.

٧- أن لهذه الجمادات إدراكا يناسبها، ولذا فهي تسجد وتسبِّح وتخشى الله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

٨- أن من طرق البيان ضرب الأمثال لتقريب المعقول بالمحسوس.

٩- أن من حكمة ضرب الأمثال التفكر والتذكر للوصول إلى معرفة الغاية من ضرب الأمثال.

١٠- مشروعية التفكر في آيات الله الكونية والشرعية.

١١- الدلالة على عظمته تعالى بما له من صفات الكمال ونعوت الجلال؛ لذكره تعالى نفسه بصيغة الجمع في الجملتين، وهذا كثير في القرآن.

١٢- إثبات الحكمة في كلامه تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٣- إثبات القياس؛ لأن المثل يتضمن إعطاء الشيء حكم نظيره.

ولما كانت هذه السورة متضمنة دلائل عظيم قدرته تعالى من نصره لأوليائه وأخذه لأعدائه، ووصفا للقرآن العظيم الذي هو كلامه تعالى، وأثره في الصمِّ الراسيات، أتبع ذلك بذكر أوصافه تعالى وبعض أسمائه الحسنى الدالة على عظمته تعالى وكمال عزته، وأنه المستحق لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، والمستحق للعبادة وحده؛ لأنه الإله الذي لا إله إلا هو، فقال سبحانه:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

اشتملت هذه الآيات على أجلِّ المعاني، وهو ما تضمنه ثناء الرب سبحانه على نفسه، بتفرده بالإلهية والربوبية، وبإثبات عدد من أسمائه الحسنى وصفات كماله، واستحقاقه لجميع الأسماء الحسنى، ولذا تسبحه العوالم كلها.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ «هو» مبتدأ، وهو ضمير منفصل يعود إلى الله في الآيات السابقة، و«الله» خبر المبتدأ، ومعناه الإله، والاسم الموصول «الذي» صفته، و﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ صفة ثانية، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا للضمير المنفصل، وقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جملة مستأنفة، والضمير المنفصل مبتدأ، والرحمن خبر أول، والرحيم خبر ثان.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الله ﷻ الذي لا معبود بحق سواه، وفي هذا نفي لجميع الشركاء التي يعبدها المشركون ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو كل ما غاب عن حواس الخلق وإدراكهم، فيشمل كل ما غاب من أمور الماضي والحاضر والمستقبل، وما في الدنيا والآخرة، فكله يعلمه الله ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما ظهر لحواسهم فشهدوه وعلموه، و«أل» في الغيب والشهادة للاستغراق الحقيقي، فيفيد أن علمه تعالى محيط شامل لكل شيء، ما ظهر وما بطن، وقدَّم الغيب على الشهادة بيانا لسعة علمه تعالى، وأنه يستوي عنده السر والعلانية ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: ذو الرحمة الواسعة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الراحم لمن يشاء من عباده؛ فالرحمن يدل على الرحمة الذاتية اللازمة لذاته، والرحيم يدل على الرحمة الفعلية التي تكون بمشيئته.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أسلوب حصر يفيد أنه الموصوف بمضمون هذين الاسمين وحده، وأنه تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وتعقيب صفة العلم بالرحمة يدل على سعة رحمته كسعة علمه، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ الجملة مستأنفة، «هو» مبتدأ، والاسم الشريف خبره، والاسم الموصول صفته، و «الْمَلِكُ» صفة ثانية، أو خبر ثان للضمير، والأسماءُ بعده مثله.

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كُررت الجملة لتأكيد ما تضمنته من التوحيد ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع المخلوقات المتصرف في خلقه - دون معين أو منازع - بالأمر والنهي، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإيجاد والإعدام ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: الطاهر المتنزّه عن كل نقص وعيب، و«الْقُدُّوسُ» صيغة مبالغة

تـدل علـى كمال تنزهه عن النقائـص والعيوب، وعلى كثرة تقديـس العباد له، كما قـال تعالى عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: السـالم فـي ذاتـه وصفاتـه وأفعاله مـن كل عيب وآفة، والمسـلِّم لعبـاده، ومجـيء الاسـمين الكريميـن ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ بعـد ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ مـن بـاب الاحتـراس، أي: أنه تعالـى منزه عن عيـوب الملوك فـي تصرفاتهم؛ من الظلم والجور واللعب والعبث ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسـله بما أيدهم به من المعجـزات والآيات البينات، فهو اسـم فاعل من الإيمان بمعنـى التصديق، وآمَن بمعنى صَدَّق، وقيل: إنه من الأَمن، فهو اسـم فاعل من آمَن غيرَه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤]، وفـي الدعـاء المأثور: «**اللهـم اسـتر عوراتـي، وآمـن روعاتـي**»[1]، وقولـه: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الشـهيد الرقيـب على عبـاده، قال ابن جرير: «وأصل الهيمنة، الحفظ والارتقاب. يقال، إذا رَقَب الرجل الشـيءَ وحفظه وشَـهِدَه: قد هيمن فلان عليه، فهو يُهَيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن»[2].

قولـه تعالـى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القـويُّ الذي لا يغالَـب، ولا نظير له ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ أي: المصلـح لأمـور عبـاده من معنى: جبْرِ الكسـر، وهو الجبَّـار أي: القهَّار الذي يقهـر الجبابـرة ويذلهـم بجبروتـه وعظمتـه، مـن الجبْـر بمعنـى الإجبـار، كما قال تعالـى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقيـل: من معنـاه العلو، من قولهـم: نخلة جبَّـارة، أي: عاليـة لا تنالها الأيدي، فظهر أن لاسـمه تعالى «الجبَّـار» ثلاثة معان: المصلـح والقهَّار والعالي ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: ذو العَظَمة والكبرياء المتعالي عن

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤٧٨٥)، وابن ماجه (٣٨٧١)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات».

(٢) جامع البيان (٨/ ٤٨٦).

كل سوء وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وفي الحديث القدسي قال تعالى: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما أدخلته جهنم**»(١).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيها لله، وهو منصوب على المصدرية، وهذا تنزيه من الله لنفسه، وخبرٌ بأنه سبحانه منزَّه عن كل نقص وعيب وشرك، وتعليمٌ للعباد أن ينزهوه ويقدسوه عن شرك المشركين ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن كل ما يُلحق به المشركون من الشريك والولد، والضمير يعود على معلوم من المقام، وهم المشركون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ الجملة مستأنفة، والضمير مبتدأ، والاسم الشريف خبره، والخالق صفة للاسم الشريف، أو خبر ثان للضمير، وما بعده مثله.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ أي: الخالق لجميع الأشياء الموجد لها بعد العدم، المقدِّر لها قبل الإيجاد؛ لأن الخلق في اللغة يدل على الإبداع والتقدير ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي: الموجد لمخلوقاته على مقتضى حكمته، مميِّزًا بعضُها عن بعض، مأخوذٌ من البَرْء الذي هو القطع والفصل ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الجاعل لمخلوقاته صورا كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦].

وبين هذه الأسماء الثلاثة تناسب في الترتيب، فأول ما يكون الخلقُ ثم البَرْءُ ثم التصوير، فأول ما يكون الخلق بمعنى التقدير، ثم البَرء وهو الإيجاد وإخراج

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٨٩٤)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٩٧)، قال محققو المسند: «حديث صحيح، وإسناده حسن»، قلت: وأصله في مسلم (٢٦٢٠) بلفظ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**».

المعدوم إلى حيز الوجود، ثم التصوير، ولعل هذا ظاهر في أطوار الجنين، فسبحان الله رب العالمين ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جملة مستأنفة، والحُسْنى أي: البالغة الحسن، أي: التي لا مثيل لها في الدلالة على أحسن المعاني وأكملها، والحسنى «فُعلى» صيغة تفضيل مؤنث الأحسن، وتقديم الجار والمجرور يفيد اختصاصه سبحانه بالأسماء الحسنى، التي هي أحسن الأسماء.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ جملة مستأنفة، أي: يمجده وينزهه عن كل نقص وعيب، وصيغة المضارع للدلالة على دوام التسبيح ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسبح له جميع ما في السماوات والأرض؛ لاتصافه بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن جميع صفات النقص والعيب، ومجيء «ما» دون «مَن» ليعم العقلاء وغيرهم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي الذي لا نظير له في قوته وعزته، والجملة معطوفة على قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَرِه، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ويلحظ التناسب ما بين فاتحة السورة وخاتمتها؛ فقد ختمت بمثل ما افتتحت من ذكر تسبيح العوالم له سبحانه، وذكر اسمين كريمين «الْعَزِيزُ» و«الْحَكِيمُ» وهذا من بديع التعبير ليكون الختام مذكرا بأولها.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن اسمَه تعالى الجامعَ لمعاني أسمائه وصفاته هو الله.
٢- إثبات الإلهية له وحده ﷻ.
٣- نفي إلهية كل معبود سواه.
٤- تنزيهه تعالى عن كل أنواع الشرك، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
٥- إثبات إحاطة علمه تعالى بكل غائب وشاهد.
٦- إثبات خمسة عشر اسمًا من أسمائه تعالى، وما تضمنته من الصفات:

ففي الآية الأولى ثلاثة: عالم الغيب والشهادة، الرحمن، الرحيم.

وفي الآية الثانية ثمانية: الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر.

وفي الآية الثالثة خمسة بتكرار العزيز مع الآية السابقة: الخالق، البارئ، المصور، العزيز، الحكيم.

وهذا كله من الإثبات المفصل.

٧- استحقاقه تعالى لجميع الأسماء الحسنى، وهذا من الإثبات المجمل، ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

٨- أن جميع أسماء الله تعالى حسنى؛ لأنها دالة على صفات الكمال، وفي ذلك رد على المعتزلة النافين لمعاني الأسماء.

٩- انقياد جميع العوالم لعزته وكبريائه تعالى، وأنها كلها تسبح له.

تمت سورة الحشر، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

هـذه السـورة مدنيـة بالإجماع، وتسـمى سـورة الممتحَنة ـ بفتح الحـاء ـ أي: المـرأة الممتحَنـة في إيمانها، لما جاء في السـورة من قولـه تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾، وتسـمَّى السـورة أيضا: الممتحِنة ـ بكسـر الحاء ـ على أنها صفة للسـورة، كما قيل في سورة براءة: الفاضحة.

وعدد آياتها ثلاث عشرة آية، وقد تضمنت السورة تحذير الله لعباده المؤمنين من تولي الكافرين أعداء الله وأعداء المؤمنين، وتضمنت ذكر الأسـباب المقتضية لذلك، وإرشاد المؤمنين إلى التأسي في ذلك بخليل الله إبراهيم عليه السلام والذين معه، ومـا يتضمنه التأسـي من البراءة من المشـركين وما يعبـدون من دون الله، وبغضهم وعداوتهـم، ومـن فروع هـذه البراءة والعـداوة والبغضاء تحريمُ نكاح المشـركات وإنـكاح المشـركين، ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾، ومـا يترتـب علـى ذلـك مـن أحكام، وقد ختمت السورة بمثل ما بدئت به من تحريم تولي الكافرين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية نهي بعض المؤمنين ممن حصل منه نوع تول للكافرين، وذلك بإلقاء المودة إليهم سرًّا، فعاتبهم الله في ذلك، وذكَّرهم بما يقبِّح ما بدر منهم بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، وأن ما فعلوه انحراف عن الصراط المستقيم.

۞ التفسير:

هذه الآية نزلت باتفاق المفسرين في الصحابي حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، حين بعث كتابا إلى المشركين يخبرهم فيه عن تجهُّز النبي ﷺ لغزوهم، والقصة في الصحيحين وغيرهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة- أي: امرأة[1]- معها كتاب، فخذوه منها»، قال: فانطلقنا تَعادَى بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب،

(١) الظعينة في الأصل هي المرأة تكون في الهودج، ثم توسع فيه، فصار يطلق على المرأة ظعينة، سواء أكانت في الهودج أو لم تكن فيه.

فقلنا: لتخرجِنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟!» قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرءا ملصقًا في قريش، يقول: كنت حليفا، ولم أكن من أنفُسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا من صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه وعملوا بشرعه، ونداؤهم بوصف الإيمان تكريم لهم، وتهييج لهم على الانتهاء عما سيُنهون عنه ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ «عَدُوِّي» مفعول أول لـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثان، أي: لا تجعلوا الكفار أحبابا وأنصارا لكم، والعدو يطلق على الواحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وعلى الجماعة ومنه قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقوله: ﴿عَدُوِّى﴾ ذكر تعالى عداوتهم له تنبيها على عظيم جُرمهم، وتهييجا للمؤمنين على معاداتهم، والمراد بعدوِّ الله وعدوِّ المؤمنين كفار قريش، على ما جاء في سبب النزول، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالحكم عام في

(١) البخاري (٢٨٤٥ و٤٠٢٥ و٤٦٠٨)، ومسلم (٢٤٩٤).

جميع الكفار، فلا يجوز لمسلم أن يوالي الكفار، ويجعلهم أولياء، ويتخذهم بطانة من دون المؤمنين.

قوله: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ هذا عتاب لحاطب رضي الله عنه وأمثاله، أي: ترسلون إليهم أخبار الرسول ﷺ والمؤمنين بسبب مودتكم إياهم، وكيف تنفع فيهم مودة وهم على هذه الحال من الكفر بما جاءكم؟! ولهذا قال: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ أي: والحال أنهم ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو القرآن ودين الإسلام ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ هذا تفسير لكفرهم وعداوتهم، أي: يخرجون الرسول ﷺ من بلده مكة، ويخرجونكم أيها المؤمنون أيضا، والفعل المضارع لاستحضار المخاطبين ما مضى من الإخراج، وجعله كالحاضر المشاهَد، وقدَّم الرسول لشرفه، ولعِظَم الجُرم بإخراجه، وصفة إخراجهم لهم أنهم آذوهم وضيَّقوا عليهم حتى ألجؤوهم إلى ترك مكة والهجرة إلى المدينة ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ مصدر مؤول في موضع المفعول لأجله، أي: يخرجونكم لأجل إيمانكم بالله ربِّكم، وفي الآية أسلوب التفات من التكلم إلى الغيبة؛ لم يقل: أن تؤمنوا بي، كما قال: عدوي وسبيلي ومرضاتي، وفائدته ذكر الاسم الشريف «الله» إعظاما للألوهية والربوبية الموجبتين للإيمان، وهذا من أعظم البواعث على قطع الموالاة بين المؤمنين والكفار؛ فإنهم أخرجوا الرسول والمؤمنين من ديارهم، لا لجناية إلا لأجل إيمانهم بالله! وهذا كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، ومن كان كذلك فإنه لا يستحق مودة ولا ولاية.

قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ هذا شرطٌ جوابه محذوف دل عليه ما قبله، التقدير: إن كنتم خرجتم من مكة جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي،

فلا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء، أي: إن كنتم أوليائي فلا تتولوا أعدائي، وهذا تهييج للمؤمنين على عدم موالاة الكفار، وقوله: ﴿جِهَٰدًا﴾ و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مصدران منصوبان على المفعول لأجله، والعامل الفعل ﴿خَرَجْتُمْ﴾ أي: لأجل إعلاء كلمتي وديني وطلبا لرضاي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ هي في معنى ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ فهي بدل منها، المعنى: تُفْضون إليهم بالمودة سرًّا لئلا يطلع أحد من الناس عليكم ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ أي: والحال أني أعلم منكم ومنهم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: بالذي تخفونه والذي تعلنونه، وقَدَّم العلم بالإخفاء لمناسبة قوله: ﴿تُسِرُّونَ﴾، ولأن ذلك أبلغ في الدلالة على كمال العلم، وأبلغ في التحذير من المخالفات؛ فإذا كان تعالى لا يخفى عليه ما يخفون، فالجهر من باب أولى، مع أنهما في علمه تعالى سواء، كما قال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، وقال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]،

قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ هذا أسلوب شرط، أي: ومن يفعله منكم بعد النهي عنه، أي: اتخاذ الكافرين أولياء والإسرار إليهم، فالضمير في «يفعله» عائد على المصدر المفهوم من قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى﴾ وقولِه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم﴾.

قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا جواب الشرط، أي: أخطأ الطريق السويَّ الصواب، وهو طريق الهدى والفلاح، وسواء السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف. قال القرطبي رحمه الله: «في الآية معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته، ونصيحته لرسول الله ﷺ وصدق إيمانه؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه، كما قال:

أعاتبُ ذا المودةِ من صديقٍ ... إذا ما رابني مِنهُ اجتنابُ
إذا ذهبَ العتابُ فليسَ ودٌّ ... ويبقى الودُّ ما بقيَ العتابُ»

فليس في الآية مؤاخذة لحاطب ﷺ، بل لوم وعتاب فحسب، ومع ذلك فقد تضمنت الآية الكريمة من النهي والتحذير عن موالاة الكفار، وتهجين ذلك وتقبيحه ما فيه أبلغ الزجر؛ ليجتنبه المسلمون، ويحذروا منه أشدَّ الحذر.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تكريم الله للمؤمنين بتخصيصهم بالخطاب، والثناءِ عليهم بالإيمان.

٢- تذكيرهم بما يقتضي منهم السمع والطاعة لما يرد عليهم من الأوامر والنواهي، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

٣- تحريم تولي الكافرين.

٤- أن السبب المقتضي لذلك عداوتُهم لله وأوليائه.

٥- أن ذلك علةُ النهي.

٦- أن من توليهم إظهارَ المودة لهم سرًّا، ولو رجاء منفعة، لا لدفع ضرر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٧- ذكر بعض مظاهر عداوة الكافرين لله وللمؤمنين، ومن ذلك أمران:

١- كفرهم بما جاء به الرسول ﷺ.

٢- إخراجهم الرسول ومن معه من المؤمنين من ديارهم.

٨- أن الحامل للكفار على إخراجهم المؤمنين هو إيمانهم بالله.

٩- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠].

١٠- أن من خرج من وطنه مهاجرا ومجاهدا في سبيل الله، لا يليق به تولي عدوه الذي أخرجه.

١١- الإشارة إلى الإخلاص؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِي﴾.

١٢- إثبات الرضا لله تعالى.

١٣- إثبات علم الله بالظواهر والبواطن.

١٤- وجوب مراقبة الله في السر والعلانية، واستحضار كمال علمه بالإسرار والإعلان.

١٥- أن تولي الكافرين ضلالٌ عن الصراط المستقيم.

ولما نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء، وذكر الأسباب المقتضية لذلك، أخبر سبحانه عن شدة عداوتهم، وعمَّا سيفعلونه بالمؤمنين لو ظفروا بهم، فقال سبحانه:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية نوعا آخر من مظاهر عداوة الكفار للمؤمنين، وذلك عند ظفرهم بالمؤمنين بأسر أو غيره؛ فإنهم حينئذ تظهر عداوتهم بأقوالهم وبأفعالهم، ويكونون لكم أعداء، وقد كانوا كذلك من قبل، وتتحقق هذه العداوة فعلا وقولا ظاهرا وباطنا.

۞ التفسير:

قوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، وثَقِف من باب تَعِب، يقال: ثقِفْتُ الرجلَ في الحرب إذا أدركتَه وانتصرتَ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]، ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: تظهر عداوتهم، وقد صرح في أول السورة بالعداوة، فالمراد هنا إظهارها، ولذا قيل: المراد هنا لازم العداوة، وهو ظهور عدم نفع التودد للكافرين، ويظهر أن الخطاب هنا للمؤمنين الذين بينهم وبين المشركين مودة، أي: إن هؤلاء المشركين الذين تُسرون إليهم بالمودة إن يظفروا بكم في حرب بين المؤمنين وبينهم، لن يبقوا على هذا الود الذي تحسبونه قائما بينكم

وبينهم، بل إنهم سيظهرون لكم العداوة ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمدونها إليكم بالضرب والأسر والقتل ﴿وَأَلْسِنَتَهُم﴾ بالشتم والسباب ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بكل ما من شأنه أن يسوءكم، ومع ذلك يتمنون أن تكفروا كما كفروا، ولهذا قال ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويظهرون لكم ما في قلوبهم من تمنيهم أن تكونوا كافرين بالله مثلهم، فـ«لو» مصدرية، فالفعل «تكفرون» مؤوَّل بمصدر؛ أي: ودُّوا كفركم.

وقد توهم بعضهم أن قوله: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ معطوف على جواب الشرط، وهو قوله: ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾، وهذا غلط؛ فإن ودادتهم الكفر حاصلة قبل الظفر بالمؤمنين وبعده، وعلى هذا فجملة ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ معطوفة على جملة الشرط وجوابه.

وفي هذا التمني بشرى بأنه لن يكون، لأن التمني تشهي حصول ما لا يمكن؛ إما لبعده أو لاستحالته، وتقديم بسط اليد واللسان على تمني الكفر لأنه أبين في العداوة، وإن كان الثاني أشدَّ وأعظم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن عداوة الكفار أشدُّ ما تكون حين ظفرهم بالمؤمنين، وقدرتهم عليهم.
٢- أن الكفار لا يألون المؤمنين أذًى بكل ما أمكنهم من قول أو فعل.
٣- حرصهم على رجوع المؤمنين عن دينهم: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].
٤- في الآية شاهد لمثل قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩].
٥- علم الله بأعمال القلوب؛ لقوله: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

ولما كان حاطبٌ قد كاتب أهل مكة بسبب ماله هناك من الأهل والبنين ليرعوه فيهم؛ أخبر تعالى أن هذه القرابة الذين توالون الكفار من أجلهم لن تنفعكم يوم القيامة؛ فقال سبحانه:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هذه الآية خبر من الله بأنه يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، ويفصل بينهم بحكمه الجزائي بين السعداء والأشقياء، وأنه لا ينفع أحدا قرابةٌ ولا ولدٌ في نجاة من عذاب، أو زيادةٍ في ثواب.

۞ التفسير:

قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قراباتكم، والرَّحِم في الأصل رحِمُ المرأة، وهو مستقر الجنين في بطن المرأة، ثم أطلق على القرابة حتى صار كالحقيقة ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لن تفيدكم عند الله شيئا قراباتُكم ولا أولادُكم الذين واليتم من أجلهم المشركين، ولن يدفعوا عنكم العذاب، ولن يدخلوكم الجنة، و«لا» حرف زائد لتوكيد النفي، وبيان أنه يشمل الفئتين معا، وكلًّا منهما على حدة، ويوم القيامة هو اليوم الآخر، وسمي يوم القيامة بذلك لأن الناس يقومون فيه من قبورهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، والقيامة في اللغة مصدر قام، زيدت التاء للمبالغة؛ لأنه قيام لأمر عظيم.

وقوله: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ ضمير الفاعل يعود على الله، وظرف «يفصل»

محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: يفصل الله بينكم يوم القيامة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [السجدة: ٢٥]، والفصل هو التفريق بين أهل الجنة وأهل النار؛ فإن الناس حينئذ يكونون فريقين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤-١٦]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس: ٥٩].

ويحتمل أن يكون المراد بالفصل هو الحكم فيما اختلف فيه العباد من التوحيد والبعث والجزاء، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: مطَّلع على جميع أعمالكم، فلا يخفى عليه منها شيء، وهذا وعد ووعيد.

۞ الفوائد والأحكام:

١- إبطال التعلق بالأنساب في طلب النجاة يوم القيامة.

٢- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾.

٣- أن المعوَّل في النجاة على الإيمان والعمل الصالح بعد رحمة الله.

٤- أن الله يفصل يوم القيامة بين العباد.

٥- كمال علم الله بأعمال العباد الظاهرة والباطنة.

٦- الإشارة إلى سبب النزول، وهو ما كان من حاطب رضي الله عنه.

ولما نهى الله المؤمنين عن تولي الكافرين، ذكر قصة إبراهيم، وضربه مثلا لهم حين تبرأ هو ومَن معه مِن قومهم ليتأسوا بهم، فقال سبحانه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان ندب الله للمؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم خليل الله والذين معه في البراءة من المشركين وما يعبدونه من دون الله، وإعلان العداوة والبغضاء لهم ما لم يؤمنوا بالله موحدين له في العبادة، متأسِّين به في كلِّ شيء إلا في وعده أباه أن يستغفر له، وإلا ما ثبت في شرعنا نسخُه.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة حسنة يُرغب فيها، والأُسْوة ما يُتأسَّى به، وظاهر السياق هنا أن المقصود بالأسوة هي الحسنة المحمودة، ففي وصفها بالحسنة تأكيد للندب إلى الأخذ بها، وتصدير الكلام بأسلوب ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ يراد به التأكيد، والتعريض بالإنكار على المخاطب، ولومُه في الإعراض عن العمل بما تضمنه الخبر عن إبراهيم والذين معه، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ

حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

قوله: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام أبي الأنبياء، فهو أسوة يُقتدى به في قوله وفعله هو ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من أتباعه على الإيمان في عصره وبعد عصره في البراءة من المشركين وما يعبدون، فاقتدوا بهم أيها المؤمنون ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ أي: حين قالوا معلنين وهم قلة ضعفاء ﴿لِقَوْمِهِمْ﴾ المشركين ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ أي: متبرئون منكم، جمع بَريء، مثل كَريم وكرماء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام والكواكب وغيرها ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ هذا بيان لقولهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ أي: كفرنا بكم وبمعبوداتكم، وأنكرنا ما أنتم عليه من الشرك ﴿وَبَدَا﴾ أي: ظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ أي: المعاملة بالسوء ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ وهي الكراهية في القلب ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان متعلق بالفعل «بدا» أي: نستمر على ذلك ولا نرجع عنه ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي: إلى أن تؤمنوا بالله وحده فـ«حتى» هي الغائية، و﴿وَحْدَهُۥٓ﴾ منصوب على الحال، المعنى: حتى تؤمنوا بالله مفردين له بالإيمان ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ استثناء متصل، وهو معترض في الخبر عن قول إبراهيم والذين معه، أي: اقتدوا بإبراهيم في جميع أحواله من أفعاله وأقواله إلا في قوله لأبيه آزر المشرك ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، وهذا وعد منه لأبيه أن يستغفر له، وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وذلك من إبراهيم قبل أن يتبيَّن أنه عدوٌّ لله، فلما تبيَّن له ذلك ترك الاستغفار له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ومن هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾، وقوله سبحانه عن نبيه محمد ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧] يظهر فضل نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء؛ فإن الله أمرنا باتباعه والاقتداء به اقتداء مطلقا لا استثناء فيه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ﴾ هذا من تمام قول إبراهيم لأبيه، وليس هو داخلا في الاستثناء، لأنه قولٌ حقٌّ يُقتدى فيه بإبراهيم، أي: والحال أني لا أقدر أن أدفع عنك من عذاب الله شيئا، ثم عاد السياق إلى الخبر عن قول إبراهيم والذين معه، فأخبر الله أنهم يقولون حين فارقوا قومهم: ﴿رَّبَّنَا﴾ أي: يا ربَّنا، وهذا توسل إلى الله بربوبيته ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: فوَّضنا أمورنا كلها إليك. وتقديم التوكل على ما بعده من الدعاء للتنبيه على أن الداعي ينبغي له التوكل قبل الدعاء ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: رجعنا إليك بالتوبة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع في الآخرة إليك وحدك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، وتقديم الجار والمجرور في الجمل الثلاث لقَصْر التوكل والإنابة والمصير على الله تعالى.

قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ تكرار النداء للإلحاح في الابتهال والتضرع ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تجعلنا مفتونين معذَّبين لهم، فالفتنة مصدر بمعنى اسم المفعول، أي: لا تسلط الكافرين علينا فيعذبونا بعذاب لا نتحمله، وهذا معنى قول ابن عباس(١)، ورجحه ابن جرير في تفسيره لآية يونس التي هي نظيرة هذه الآية، وهي قوله تعالى عن قوم موسى: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وقيل: الفتنة بمعنى اسم الفاعل، المعنى: لا تجعلنا فاتنين للكفار؛ فإنهم إذا ظهروا علينا ظنوا أنهم على الحق، وتمسكوا بكفرهم، صح هذا عن مجاهد وقتادة(٢).

---

(١) رواه ابن جرير (٢٢/ ٥٦٩) وإسناده حسن.

(٢) أخرج ذلك عنهما ابن جرير (٢٢/ ٥٦٩).

قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ أي: اغفر لنا ما سلف من ذنوبنا، أي: استرها وتجاوز عنها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي يضع الأشياء في مواضعها.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تفضيل إبراهيم عليه السلام بجعله إماما في التوحيد يقتدى به.

٢- أن الاقتداء بإبراهيم طريقة حسنة عند الله، ولذا عُرف بإمام الحنفاء.

٣- أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا إذا ثبت في شرعنا أنه شرعٌ لمن قبلنا، ولم يأت شرعُنا بخلافه.

٤- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:]

٥- أن من ملة إبراهيم - وهي إخلاصُ الدين لله - البراءةَ من المشركين ظاهرا وباطنا بالقلب واللسان، ومما يعبدون من دون الله.

٦- أن من مقتضَيات هذه البراءة العداوةَ والبغضاءَ.

٧- أن المسلم إذا تاب من الشرك وأخلص العبادة لله استحق من الموالاة والمحبة ما يستحقه سائر المؤمنين بحسب مراتبهم في الإيمان.

٨- تحريم الاستغفار للمشركين أحياءً وأمواتا.

٩- أنه لا حجة في ذلك باستغفار إبراهيم لأبيه.

١٠- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

١١- أن أفضل الرسل - وهما إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وعلى سائر الأنبياء وسلم - لا يملكون نجاة أحد من عذاب الله، لقوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ

لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

١٢- فيها شاهد لقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

١٣- فضل هذه الدعوات المتضمنة للضراعةِ إلى الله، وتفويضِ الأمر إليه، والإنابةِ إليه، والإيمانِ بالمصير إليه، وسؤالِ المغفرة، والعصمةِ من أن يكونوا فتنة للكافرين.

١٤- إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما العزيز والحكيم، وما تضمناه من العزة والحكمة.

١٥- توجه الأنبياء وأتباعهم إلى الله، وافتقارُهم إليه في حوائج الدنيا والآخرة.

ثـم أعـاد الله ما تقدم من الحث على الاقتداء بإبراهيم والذين معه لعظم شـأنه والتأكيد عليه، فقال سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هاتان الآيتان تأكيد مضمون الآيتين قبلهما، وهو التأسِّي بإبراهيم عليه السلام والذيـن معـه، كمـا تقـدم، وتعميمَ هـذا الحكم لكل مـن يؤمن بالله واليـوم الآخر، ووعيدَ من يعرض عن هذا الطريق؛ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، كما تضمنتا البشارة بهداية من عاداهم المؤمنون من أرحامهم، لتتبدل العداوة التي بينهم مودة؛ فإن الله غفور رحيم، وعلى كل شيء قدير.

۞ التفسير:

قولـه: ﴿لَقَدْ﴾ الـلام هـي الموطئة للقسـم ﴿كَانَ لَكُمْ﴾ أيهـا المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي: فـي إبراهيـم وأتباعه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ هـذا بـدل من ضميـر الخطاب في قولـه: ﴿لَكُمْ﴾[1]، فليس هـذا تخصيصا لبعض المؤمنيـن، ولكـن أريـد بهـذا البـدل التذكيـرُ أنَّ من كان مؤمنـا بالله واليـوم الآخر فإنه يتأسـى بإبراهيـم وقومه المؤمنين، وأنَّ ترك التأسـي إنما يكون من المعرضين عـن الإيمـان بالله واليوم الآخـر، بطريق المفهوم، وقولـه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ﴾ أي:

---

(١) هذا على الصحيح في جواز إبدال الظاهر من الضمير مطلقا، وكفى بالقرآن شاهدا له.

لقاء الله وثوابه ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: النجاة في اليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وإنما سمي اليومَ الآخر لأنه لا يوم بعده ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومنْ يعرضْ عن الأسوة بإبراهيم والذين معه ولا يتبرأ من المشركين، بل يتولاهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن جميع خلقه، فلا يضره سبحانه كفرُ الكافرين وإعراضُ المعرضين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على أقواله وأفعاله وأوصافه، والمحمود على كل حال ﷻ، وقد تكرر في القرآن اقتران الاسمين الكريمين الغني والحميد، ومنها هذا الموضع، ووجهه هنا أنه تعالى لا يقبل عمل الكافرين؛ لأنه باطل خبيث؛ فالله لا يقبله لكمال غناه، هذا أولا، وثانيا: لكمال حمده تعالى. وإنما يقبل الخبيثَ من يكون محتاجا أو غير كريم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

قوله: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: من المشركين من أقاربكم وغيرهم بسبب الإسلام ﴿مَّوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البغضاء وأُلفة بعد النفرة، وهذا وعد من الله تعالى للمؤمنين، وهو سبحانه لا يخلف وعده، وهذا معنى قول ابن عباس: إن «عسى» من الله واجبة[1]، ولقد أنجز الله ذلك؛ إذ لم يزل أولئك المشركون يتتابعون على الدخول في الإسلام، حتى أذن الله بفتح مكة في رمضان في السنة الثامنة، فأسلم جمهورهم، والتقوا جميعا على الأخوة في الله والبراءة من المشركين، وعادت بينهم المودة وبين أقربائهم من المؤمنين أقوى مما كانت عليه من قبل، وجمع الله الشمل، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على كل شيء، ومن ذلك التوفيق للإيمان وتأليف

(١) رواه ابن جرير (١١/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٦٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٣)، وإسناده حسن.

القلوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من عباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، ومن رحمته توفيقهم للإيمان، والتأليف بينهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- عظم شأن هذه الأسوة بإبراهيم والذين معه.

٢- أن هذه الأسوة مشروعة للمؤمنين دائما؛ لقوله: ﴿كَانَ﴾.

٣- تأكيد ذلك بالقسم ﴿لَقَدْ كَانَ﴾.

٤- أن أصحاب هذه الأسوة كلُّ من يؤمن بالله واليوم الآخر.

٥- أن الإيمان بالله واليوم الآخر يحمل على اتِّباع الأنبياء إيمانا واحتسابا، طاعة لله ورجاء لثوابه.

٦- ذمُّ مَن يعرض عن اتباع الرسل وعن تولِّي المؤمنين ومعاداة الكافرين، ولا يخاف الله واليوم الآخر.

٧- إثبات اليوم الآخر.

٨- أن الكافر ما دام حيًّا فإنه ترجى هدايته، بأن يتوب الله عليه ويقبل توبته.

٩- أن من أسلم من الكافرين تجب موالاته ومحبته.

١٠- أن الله على كل شيء قدير، ومن ذلك قدرته على تقليب القلوب.

١١- إثبات خمسة من الأسماء الحسنى، وما تتضمنه من الصفات، وهي: الغني، الحميد، القدير، الغفور، الرحيم.

ولما أمر الله بالبراءة من المشركين مطلقا رخَّص في صلة الذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم؛ فقال سبحانه:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان الفرق في المعاملة بين الكفار المحاربين والمسالمين.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ﴾ الإحسان إلى المشركين ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: لأجل الدين، مثل النساء والضعفة ومن بينكم وبينهم عهد ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ فإن الإخراج من الديار عظيم؛ ولذا جعله الله عديلا لقتل النفس ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦]، وقوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ مصدر مؤول في موضع جر بـ «عن»، وهو بدل اشتمال من قوله: ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والإحسان إلى هؤلاء، والبر هو حسن المعاملة بالصلة ولين القول ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: تُفْضُوا إليهم بالقسط، وهو العدل، ضمِّن «تقسطوا» معنى «تُفضوا» فعُدّي بـ«إلى» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين في أقوالهم وأفعالهم، ومن العدل أن يبرَّ الإنسان من يبرُّه، ويحسن إلى من أحسن إليه، وقد أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة، في عهد النبي ﷺ - أي: في عهده مع قريش في صلح الحديبية -

فسألتُ النبي ﷺ: آصِلها؟ قال: نعم، قال ابن عُيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾(١).

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ﴾ تولِّي ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لأجل دينكم، وناصبوكم العداوة ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ كمشركي مكة ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: أعانوا الذين أخرجوكم، فالله ﷻ ينهاكم عن توليهم بالمحبة والنصرة بحال من الأحوال، وقوله: ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ مصدر مؤول في موضع جر بـ«عن»، وهو بدل اشتمال من قوله: ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾ وأصل «تولوهم»: تتولوهم، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي: يتخذهم أنصارا وأولياء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بالكفر أو بما دون الكفر بحسب مقدار التولي ودرجته.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الكفار نوعان: الأول: محاربون، ويقال للواحد منهم: حربي. الثاني: مسالمون، وهم إما معاهَدون ذميُّون، أو مستأمِنون، أو كافُّون.

٢- الفرق في المعاملة بين المحارب وغير المحارب.

٣- تمييز المحارب من المسالم.

٤- أن قتالهم للمسلمين أو عدمه هو المميِّز بين المحارب والمسالم.

٥- جواز الإحسان إلى الكفار المسالمين والعدلِ معهم؛ كصلة الرحم، والصدقة على فقيرهم.

٦- تحريم تولي الكفار المحاربين بالنُّصرة، أو تقديم المنافع لهم.

٧- أن توليهم من الظلم؛ لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٣)، ورواه مسلم (١٠٠٣) دون ذكر نزول الآية.

لما نهى الله عن تولِّي المشركين، وكان النكاح من أقوى أسباب التولي بيَّن الله الأحكام المتعلقة بالمسلمة المهاجرة وهي ذات زوج كافر، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية حكم المؤمنات المهاجرات من زوجات الكفار، وما يجب على المسلمين فعله معهن، وحكمَ نكاحهن ابتداءً واستدامة، وما يجب لأزواجهن من الكفار.

۞ التفسير:

نزلت هذه الآية إثر صلح الحديبية عام ست، وكان مضمون الصلح وضع الحرب عشر سنين بين المسلمين والمشركين، فيأمن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على شروط بين الفريقين، منها أن من أتى إلى الرسول ﷺ من قريش رده عليهم، ومن ذهب من المسلمين إلى قريش لم يردوه، وفي صحيح البخاري أن الذي تولى عقد الصلح من قريش مع النبي ﷺ هو سهيل بن عمرو، فردَّ رسول ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو المذكور، ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلما، وجاءت المؤمنات مهاجرات فكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يَرجعها إليهم،

حتى أنـزل الله تعالـى فـي المؤمنات ما أنـزل[١]، وفي روايـة عند البخـاري أيضا: ثـم جـاءه نسـوة مؤمنات فأنـزل الله تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[٢].

قولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يـا مـن صدَّقـوا بـالله ورسـوله واتبعوه ﴿إِذَا﴾ ظـرف لمـا يستقبل من الزمـان ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ سـماهن مؤمنـات لأنه ظاهر أمرهن، ولما بدا عليهن من أمارات الإيمان كالهجرة ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من بلد الشـرك إلـى بلـد الإسـلام ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ الفاء واقعة في جـواب الشـرط، أي: فاختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن، فتُستحلف الواحدة منهـن أنها ما هاجرت بغضا لزوجها، ولا رغبة في عشـير، ولا طمعا في دنيا، بل حبًّا لله ورسـوله ﷺ، ونحو ذلك ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ هذه جملة معترضة، وفيها فوائد:

منها: أنه لا سبيل لنا إلى القطع بإيمانهن؛ بل الله هو الذي يعلم حقيقة حالهن.

ومنها: الإشـارة إلى الاسـترابة من بعضهن، والحضّ على امتحانهن، قاله ابن عطية.

قولـه: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ الفـاء للتفريـع، أي: فـإن ظَننتموهـنَّ ظنًّـا مؤكَّـدًا بأماراته الظاهرة ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ المراد بالعلم الظن، لا حقيقة اليقين، وسمي علما إيذانا بأنه كالعلم فـي وجـوب العمل به ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ بـأيِّ حال ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، ولو كانـوا أزواجهن، وهذا الحكم ـ وهو عدم ردِّ المؤمنات ـ ناسـخ لما عاهد عليه النبي ﷺ قريشـا من ردِّ من جاء إليه منهم مسـلما، فنُسخ هذا الشـرط في حق النسـاء بهذه الآية، وهذا نسـخ للسـنة بالقرآن، وهو ـ أي: كون السـنة تُنسخ بالقرآن ـ قول أكثر العلماء، وقيل: إن ما جاء في الآية في شأن النساء تخصيص للعموم، أو تقييد للإطلاق الوارد في الصلح،

(١) البخاري (٢٥٦٤). (٢) البخاري (٢٥٨١).

وقيل: لا نسخ في الآية ولا تقييد ولا تخصيص؛ لأن الشرط المذكور خاص بالرجال ولا يتناول النساء، وقد فات المشركين أن يتنبهوا إليه، والنبي ﷺ عالم بعدم دخولهن فيه، والحرب خدعة، فمن هنا لم يرد في شرط الصلح ذكر للنساء.

والفرق بين الرجل والمرأة ظاهر؛ فإن المرأة ضعيفة، ويخاف عليها أن ترتد، ثم ذات الزوج منهن تحرم على زوجها الكافر، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا المؤمنات حلال للكفار ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: ولا الكفار يحلون للمؤمنات، ونفي الحل من الجانبين تأكيدٌ لتحريم نكاح الكفار للمؤمنات، كما يقال: لستُ منكَ ولستَ مني ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ هذا خطاب لولاة أمور المسلمين، أي: أعطوا الأزواج الكفار ما دفعوا من الصداق لنسائهم المهاجرات إذا طلبوا ذلك، لئلا يجتمع على الزوج فقدان زوجته وماله، وسماه نفقة ولم يسمه مهرا لأنهن صرن غير زوجات ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم في ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: تتزوجوهن وإن كان أزواجهن الكفار لم يطلقوهن؛ لأن عقدها ينفسخ بإسلامها، فيباح نكاحها بعد استبرائها ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ أي: مهورهن لأنه أجر البُضع، ونصَّ الله على الصداق لئلا يتوهم أن ما أُعطي زوجها الكافر يغني عن صداق جديد ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ العِصَم جمع عِصْمة، وهي في الأصل ما يَعتصم- أي يتمسك- به الإنسان من حبل ونحوه، والمراد هنا عقد الزواج، والكوافر جمع كافرة، أي: ولا تتمسكوا بعقد زوجاتكم الكافرات المقيمات في دار الشرك، أو اللاحقات بها مرتدات، وهذا تحريم لاستدامة نكاح المشركات، فتحريم ابتدائه أولى، ووقع لعمر رضي الله عنه أنه طلق امرأتين له بمكة مشركتين: قُريبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية، ويستثنى من هذا الحكم الكتابيات؛ فإنه يجوز للمسلم الزواج بهن بنص القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] أي: حلٌّ لكم ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: اطلبوا من المشركين مهور زوجاتكم اللاتي

ارتددن ولحقن بالمشركين ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: وليطلب المشركون مهور زوجاتهم المهاجرات، وهذا من الإنصاف والعدل، وهذه الأحكام خاصة بالكفار المعاهدين، أما المحاربون فلا يعطون شيئا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر من الأحكام ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرع الله ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ الجملة حال من الحُكم، أي: ذلكم حكم الله يحكمه بينكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدره.

۞ الفوائد والأحكام:

١- وجوب الهجرة على النساء المؤمنات من بلاد الكفر.

٢- وجوب فراقهن لأزواجهن إن كنَّ ذواتِ أزواج.

٣- وجوب امتحان المهاجرات لمعرفة صدقهن.

٤- أنه إذا عُلم إيمانهن فلا يحلُّ رجْعهن إلى الكفار، حتى ولو كان بيننا وبينهم صلحٌ شُرط فيه رجْع من جاءنا منهم مؤمنا، كما جرى في صلح الحديبية، فهذا الشرط لا يشمل النساء.

٥- أن العلم يطلق على الظن أحيانا، لقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ أي: بعد الامتحان.

٦- أن الله هو الذي يعلم ما في القلوب، فيعلم المؤمن الصادق من غير الصادق.

٧- جواز إطلاق صيغة التفضيل في باب صفات الله، كأرحم الراحمين، وأحسن الخالقين؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

٨- تحريم المهاجرات على أزواجهن الكفار، وتحريمُ أزواجهن عليهن.

٩- أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾.

١٠- وجوب رد المهور لأزواجهن؛ ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾.

١١- إباحة نكاح المؤمنين للمهاجرات ذوات الأزواج بعد خروجهن من

العدة؛ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

١٢- تحريم نكاح الكافرات ابتداء واستدامة؛ ابتداءً لقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، واستدامة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

١٣- أن على كلٍّ من المسلمين والكفار إذا أتتهم المزوَّجَاتُ هارباتٍ أو مهاجراتٍ، فعلى كلٍّ من الفريقين ردُّ مهر الزوجة المهاجرة، وردُّ مهر المرأة الهاربة إلى المشركين؛ لقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾، ففيه:

١٤- أن بُضع المرأة متقوِّم؛ فمن تسبب في تفويت بُضع المرأة على زوجها وجب عليه له مهرها، كما حرر ذلك ابن القيم في بدائع الفوائد[١].

١٥- أن كل هذه الأحكام حكمُ الله بين عباده.

١٦- اشتمال هذه الأحكام على الحكمة.

١٧- إثبات اسمين من أسمائه تعالى الحسنى وما تضمناه من الصفات؛ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٠٩).

ولما أمر الله المؤمنين بطلب مهور زوجاتهم الهاربات إلى الكفار بيَّن سبحانه الحكم فيما إذا امتنع الكفار من دفع مهورهن، فقال سبحانه:

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية حكم ما إذا لحقت بعض أزواج المؤمنين بالكفار مرتدة، فعوقب الكفار بمنع مهور نسائهم المهاجرات عقوبة على منع صدُقات نساء المؤمنين المرتدات، وحينئذ يعطى المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم مثلَ مهورهن من الأموال التي مُنعها الكفار عقوبة على امتناعهم من إيتاء المؤمنين مهور نسائهم المرتدات اللائي لحقن بالكفار، فإن لم يوجد شيء من هذه الأموال عوِّض المؤمنون من بيت المال من الغنيمة أو غيرها، وتضمنت الآية وصية المؤمنين بتقوى الله الذي هم به يؤمنون.

۞ التفسير:

لهذه الآية سبب نزول، وهو ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: بلغنا أنه لما أنزل الله تعالى أن يردُّوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، فلما أبى الكفار أن يُقرُّوا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ والعَقِبُ[1] ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يُعطى من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللائي هاجرن، وما نعلم أحدًا من المهاجرات ارتدت

(١) بفتح العين وكسر القاف، هكذا ضبطه صاحب التوشيح شرح الجامع الصحيح (٥/ ١٨٦٨).

بعد إيمانها[(١)]، وقوله: والعَقِب إلى آخره هو من كلام الزهري، كما رواه ابن جرير عنه، فقوله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ يقال للمرأة زوج وهي اللغة الفصحى، وهي لغة القرآن، ويقال: زوجة بالتاء، وهي لغة فصيحة، وقد وردت في السنة فيما أخرجه البخاري ومسلم في قوله ﷺ في أول زمرة تدخل الجنة، قال: «**لكل امرئ منهم زوجتان**»[(٢)]، وقال الفرزدق:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كَسَاعٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[(٣)]

قوله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ أي: وإن هربت زوجة أحد من المسلمين ولحقت بالكفار مرتدة ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: وجاءت عُقبتكم أي: نوبتكم من أداء المهر، فالمعاقبة مفاعلة من العُقبة لا من العِقاب، شبَّه ما حكم به على الفريقين من أداء هؤلاء مهورَ نساء أولئك تارة، وأداء أولئك مهورَ نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه، كما يُتعاقب في الركوب وغيره ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ الخطاب لولاة الأمور، أي: فأعطوا الذين ذهبت زوجاتهم إلى الكفار مثلَ ما أنفقوا عليهن من المهر، ويكون ذلك من المهر الذي أُمروا أن يردوه على المشركين عوضا عن مهور زوجاتهم المهاجرات، أي: لا تعطوا المهر زوجها الكافر، بل يعطاه المؤمن الذي هربت زوجته؛ ليكون ذلك قصاصا. هذا تفسير الآية على مقتضى ما ذكره الزهري من معنى المعاقبة.

وثَمَّ تفسير آخر، فقد روى ابن جرير عن مجاهد وجماعة من التابعين، قالوا: ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي: أصبتم من الكفار غنيمة في القتال، فهو من العقوبة، وذلك من إقامة السَّبب مقام المسبَّب، فالعقوبة سبب للغنيمة، وعلى هذا فمن هربت زوجته فإنه يعطَى من رأس الغنيمة، ولا تعارض بين التفسيرين، فمتى أمكن إعطاء الزوج من مهور نساء

---

(١) البخاري (٢٥٨٢). (٢) البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (٢٨٣٤).

(٣) ديوان الفرزدق (٢/ ٦٠٥).

الكفار المهاجرات وإلا فمن الغنائم، ورجح ذلك ابن جرير[(١)] وابن كثير[(٢)].

قولـه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اجعلـوا بينكـم وبين عذاب الله وقايـة بفعل ما أمر به وتـرك ما نهى عنه، ومن ذلك الوفـاء بالعهود، ورعاية العدل ولو مع الكافر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي: آمنتم به ربًّا وإلها؛ فإن الإيمان به تعالى يستلزم التقوى.

وقـد قيـل: إن حكم هـذه الآية في الجانبين منسـوخ بالإجماع، فلا يجب دفع مهر من جاءت مسـلمة للكفار، ولا المطالبة بمهر من ارتدت وهربت إلى الكفار، واسـتدل بعض من قال بهذا القول بعمومات النهي عن أكل المال بالباطل، كقوله تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، ولا وجـه لهـذا القول؛ فإنه لا تعارض بين هـذه الآية وآية الممتحنة، وغاية ما يقـال: إن آية الممتحنة مخصِّصة لها، وأيضا: فهل أَخْذُ مهور المرتدات من الكفار مـن أكل المـال بالباطل، وقد أذن الله فيه؟! وعلى هـذا فالآية محكمة، وهي والتي قبلها مختصتان بأهل العهد فحسب.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن امرأة المسـلم إذا فرت مرتدة إلـى الكفار المعاهدين فإنه لا يطالِب بها لترجـع، وإنمـا يطالِب بما أنفـق من المهر؛ لقوله تعالى في الآية السـابقة: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾.

٢- أنـه إذا امتنـع الكفار من دفـع مهور من فرَّ إليهم من المسـلمات، فإن ولي الأمر يعوضه عن مهر امرأته من الفيء أو الغنيمة، أو من مهور نساء الكفار اللاتي هاجرن.

٣- أنه يعطى المسمَّى من الصداق فحسب.

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٥٩٣). (٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٩٥).

٤- وجوب تقوى الله بالإيمان بهذه الأحكام والعمل بها.

٥- أن الإيمان يبعث على التقوى.

ولما أمر الله بامتحان النساء المهاجرات لمعرفة صدق إيمانهن، ذكر ما يكون بعد ذلك من مبايعتهن للنبي ﷺ، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية صفة مبايعة النساء النبيَّ ﷺ، وذلك بذكر ما يبايعن عليه، وهو ترك خمسة أمور: الشرك بالله، والسرقة، والزنى، وقتل الأولاد، والبهتان، ثم أُجملت مع غيرها في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾، وأُمر النبي ﷺ بمبايعتهن على ما ذكر، والاستغفار لهن. وهذه البيعة بهذه الصفة تسمى بيعة النساء، وكان وقوعها بعد صلح الحديبية.

۞ التفسير:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ناداه بوصف النبوة تشريفا له ﷺ، وهكذا نداؤه في سائر القرآن إما بوصف النبوة أو بوصف الرسالة، وإنما ذكره الله باسمه في مقام الإخبار، وهذا من خصائصه ﷺ، خلافا لسائر الأنبياء الذين ذُكر في القرآن نداء الله لهم؛ فقد ناداهم الله بأسمائهم، وإنما خَصَّ النبي ﷺ بالمخاطبة في هذه الآية لأن أمر المبايعة مطلقا خاص بالنبي ﷺ، وعَمَّ المؤمنين بامتحان المؤمنات لأن ذلك يحصل منه ومن غيره ﷺ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ أي: الداخلات في الإيمان، ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ بالقول، والجملة حال مقدرة، أي: حال كونهن قاصدات للبيعة، أي:

إعطاء العهد منهن بالتزام الإسلام واجتناب المحرمات، وأصلُ المبايعة في اللغة مقابلة شيء بشيء على جهة المعاوضة، وسميت المعاهدة مبايعة تشبيها لها بها؛ فإن الناس إذا التزموا قبول ما شرط عليهم من تكاليف الشرع طمعا في الثواب وخوفا من العقاب، وضمن لهم النبي ﷺ ذلك في مقابل وفائهم بالعهد المذكور، فصاروا كالمتعاوضين ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يجعلن مع الله شريكا في العبادة من الأصنام وغيرها، وابتدئ بالنهي عن الشرك لأنه أكبر الذنوب، ثم ذكر بقية المنهيات على سبيل الترقي من الأدنى إلى الأعلى، فقال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ من مال أحد ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ وهو من أعظم الفواحش ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ بعد الولادة أو قبلها، وكانوا يقتلون الأولاد خوف الفقر، ويئدون البنات خوف العار، وهو مما يفعله الرجال تارة والنساء تارة أخرى ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾ أصل البهتان هو الشيء الذي يبهت السامع، أي: يحيره، والمراد به أن تلحق المرأة بزوجها من ليس منه من لقيط أو حمل ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ الجملة صفة لبهتان أي: يكذبْن في نسبته إلى أزواجهن ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كناية عن أنه ولدهن من أزواجهن؛ فإن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المراد بالبهتان المفترى الزنى؛ لتقدم ذكره، فلا تكرار إذن.

قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ أي: ولا يخالفْن أمرك فيما أمرتهن به من معروف، أو نهيتهن عنه من منكر، والمعروف ما عُرف حسنه في الشرع والعقل، وهو اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، فيدخل فيه جميع ما أتى به الشرع أمرا ونهيا، ونقل عن بعض السلف أن المراد ترك النياحة وخدش الوجه وشق الجيب، وهذا من التفسير بالمثال، وإلا فالمراد العموم، وقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ التقييد بالمعروف مع أن النبي ﷺ لا يأمر إلا بمعروف، فيه الدليل على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية

الخالق، فإذا كانت طاعة الرسول ﷺ مقيدة بالمعروف مع عصمته، فكيف بطاعة غيره في المعصية؟! ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ للتأكيد فلا مفهوم له؛ لأنه ﷺ لا يأمر إلا بمعروف، وقدَّم المنهيات على المأمورات المستفادة من المعروف لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التحلي بالفضائل، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولذا قيل: التخلية قبل التحلية، وقد بايع رسول الله ﷺ الرجال بمثل ما بايع النساء، كما قال عبادة بن الصامت: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء. رواه مسلم(١)، وفي البخاري عنه قال ﷺ: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف**»(٢)، فلا معنى لقول بعض المفسرين: إن تخصيص النساء بما ذكر في الآية لكثرة وقوعه منهن، هذا ولم تذكر الصلاة وغيرها من الفرائض والشعائر لدخولها في عموم قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ وهو مع ما قبله من عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي: على ما ذكر، وهذا جواب ﴿إِذَا جَآءَكَ﴾، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلب لهن المغفرة من الله على ما قد يحصل لهن من تقصير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يستر ذنب العبد ويتجاوز عنه ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: يرحم عباده، وذكر الاسم الشريف ظاهرا في موضع الإضمار «الله» تعظيما لشأنه تعالى، ولبيان أن الألوهية تقتضي المغفرة والرحمة.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن: «**انطلقن فقد بايعتُكُن**»، لا والله ما مسَّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام، والله ما أخذ رسول الله ﷺ

---

(١) مسلم (١٧٠٩). (٢) البخاري (١٨)، وفي مواضع أخرى.

على النساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: «**قد بايعتكن**» كلاما[(١)]، وروى الإمام أحمد عن أُميمة بنت رُقيقة التيمية قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من المسلمين لنبايعه، فقلنا: يا رسول الله، جئنا لنبايعك على ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**فيما استطعتن وأطقتن**» قالت: قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، بايعنا يا رسول الله. قال: «**اذهبن، فقد بايعتكن، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة**» قالت: ولم يصافح رسول الله ﷺ منا امرأة[(٢)].

۞ الفوائد والأحكام:

١- وقوع البيعة من النساء للنبي ﷺ على ما ذُكر، وذلك بالكلام فحسب، لا بمدِّ الأيدي والمصافحة، كما جاء في حديث عائشة المشار إليه في التفسير.

٢- أن بيعة النساء التزام بموجَب الإيمان من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ولا شأن لهن ببيعة الولاية؛ فإن ذلك من شأن الرجال، وهو الذي عليه عمل المسلمين.

٣- رفْع الإسلام من شأن المرأة لجعلها مكلفة كتكليف الرجل في الجملة.

٤- تحريم الشرك بالله، وهو أكبر الكبائر.

٥- تحريم السرقة.

---

(١) البخاري (٤٩٨٣)، ومسلم (١٨٦٦).

(٢) المسند (٢٧٠٠٧)، قال محققوه: «حديث صحيح، وإسناده حسن»، وأخرجه الترمذي (١٥٩٧)، والنسائي (٤١٨١).

٦- تحريم الزنى.

٧- تحريم قتل الأولاد.

٨- تحريم البهتان، وهو الكذب الذي يبهت سامعه، ومنه إلحاق المرأة بزوجها الولدَ من غيره، وهو من أعظم البهتان، وكلها من كبائر الذنوب.

٩- وجوب طاعة الرسول ﷺ في كل ما أمر به، وهو لا يأمر إلا بالمعروف ﷺ.

١٠- أن طاعة ولي الأمر مقيَّدة بما إذا أمر بمعروف، وهو ما ليس بمعصية لله، فإن أمر بمعصية فلا تجوز طاعته، ففي الآية شاهد لقوله ﷺ: «**لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة**»[(٢)].

١١- وجوب طاعة الرسول ﷺ مطلقا، بخلاف غيره؛ فإن طاعته مقيدة بالمعروف.

١٢- أمر الله نبيَّه ﷺ بمبايعة النساء اللاتي جئن للبيعة.

١٣- أمره تعالى نبيه ﷺ بالاستغفار لهن، إكراما لهن وإحسانا، وجزاءً على إيمانهن ومبايعتهن.

١٤- أن الله غفر للمبايعات ما سلف منهن في الجاهلية.

١٥- أن الرسول ﷺ عبدٌ لله يأمره الله وينهاه بما شاء.

١٦- إثبات اسمين من أسماء الله، وهما الغفور والرحيم، وما تضمناه من صفتي المغفرة والرحمة.

---

(١) البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٨٤٠)؛ عن علي رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٨٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ثم ختمت السورة بما بدئت به من النهي عن تولي الكفار تأكيدا للتحذير منه والتنفير عنه؛ فقال سبحان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية نهي المؤمنين عن تولي المغضوب عليهم، وهم اليهود أو الكفار عامة؛ فإن هذا سبيل المنافقين، كما قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٤]، وغضبُ الله عليهم بسبب كفرهم، ومن كفرهم يأسُهم من الآخرة، وهو يتضمن التكذيب بالبعث والجزاء، وكان يأسهم كيأس الكفار المشركين الذين ماتوا على الشرك والتكذيب بالبعث والنشور.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم الكفار عامة، وليسوا اليهود فقط، كما تدل على ذلك آيات السورة كلها، والكفار كلهم مغضوب عليهم، وعبَّر عنهم بالوصف لبيان سبب شقائهم، وتوليهم يكون بمحبتهم وموادتهم ومناصرتهم، وذلك من كبائر الذنوب ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: من ثوابها ونعيمها، فلا حظَّ لهم من ذلك ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الذين هم أصحاب القبور من خير الآخرة وثوابها، فـ«مِن» على هذا التفسير لبيان الجنس، ويحتمل أن يكون المعنى: كما يئس الكفار الأحياء من أصحاب القبور أن يرجعوا

إليهم، و«مِن» على هذا لابتداء الغاية، والله أعلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تحريم تولي الكافرين من اليهود وغيرهم.

٢- أن تولي الكافرين ينافي تحقيق الإيمان.

٣- تأكيد النهي عن تولي الكافرين؛ إذ ختمت السورة بمثل ما بدئت به، فهو موضوع السورة من أولها إلى آخرها.

٤- إثبات صفة الغضب لله تعالى.

٥- أن من موجبات الكفر والغضب إنكارَ البعث.

٦- أن الكفار قد يئسوا من موتاهم؛ لأنهم لا يرجون أن يُبعثوا، بخلاف المؤمنين؛ فإنهم يرجون أن يلقوا أحبتهم في الدار الآخرة؛ لأنهم بالآخرة يوقنون.

تمت سورة الممتحنة، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الصَّفِّ

هـذه السـورة مدنيـة بالاتفـاق، وهي إحدى السـور المسبِّحات؛ وقد سـمين بذلك لافتتاحهن بذكر تسـبيح المخلوقات، وسـورة الصف أربع عشرة آية، ومدار آيات السـورة على وجوب تعظيم الله بالأقوال والأفعال، ولذا افتتحت بالخبر عن تسبيح ما في السـماوات وما في الأرض لله، ومن تعظيم الله مطابقة الفعل للقول، وقـد حـذَّر الله المؤمنين من مخالفة ذلك، ومن مطابقـة الفعل للقول الوفاءُ بالوعد والعملُ بالعلم، ومن أدلِّ شيء على ذلك الصدقُ في الجهاد في سبيل الله، كما في الآيات الثلاث بعد فاتحة السورة.

ثم بعد اعتراض بالخبر عن موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ندب الله المؤمنين إلى الجهاد فـي سـبيله، وذكـر فضله وثوابه العاجـل والآجل، كما في الآيات من العاشـرة إلى الثالثة عشرة، وختمت السورة بندب المؤمنين إلى نصرة الله، والتأسي بمن سبقهم في ذلك، كالحواريين، وأن عاقبة ذلك التأييدُ من الله للمؤمنين على الكافرين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

انظر في الكلام على تفسير الآية وفوائدها: ما قيل في الآية الأولى من سورة الحشر؛ فهي نظيرتها في لفظها ومعناها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الثلاث توبيخ من تُخالف أقوالهم أفعالهم من المؤمنين، ولومَهم على التقصير في الوفاء بحق الإيمان، كما تضمنت الثناء على أهل الصدق والوفاء، وهم المجاهدون بأنفسهم الباذلون لها في سبيل الله.

۞ التفسير:

هـذه الآيات لها سبب نزول، وهـو ما رواه عبد الله بن سلَام رضي الله عنه قال: قعدنا نَفَرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيَّ الأعمال أحبَّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا﴾ حتى

ختمها، قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها[(١)].

قلت: ويؤيد ذلك ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان، ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشقَّ عليهم أمره، فقال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[(٢)].

ويذكر ابن كثير أن الجمهور حملوا قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨][(٣)].

قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه، وفي ندائهم بوصف الإيمان تنبيه على أن الإيمان شأنه أن يزع عن كل قول أو فعل مرذول، والغالب في هذا النداء في القرآن أن يتلوه أمر أو نهي أو ما يقوم مقامهما؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة: ١]،

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٧٨٨)، والدارمي في سننه (٢٣٩)، والترمذي (٣٣٠٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٩)، وابن حبان (٤٥٩٤)، وصححه ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٠٩)، ومن بعده الألباني.

(٢) رواه ابن جرير (٢٢/ ٦٠٦) عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٠٦).

وقوله: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وهنا ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ جاء بعد النداء ما يقوم مقام النهي، وهو الإنكار المتضمن للنهي، فالمعنى: لا تقولوا ما لا تفعلون.

وقوله: «لِمَ» مركبة من اللام الجارة وما الاستفهامية، التي حذفت ألفها لدخول اللام عليها، للفرق بينها وبين «ما» الموصولة ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي: لِمَ تقولون شيئا بألسنتكم ولا تصدقه أفعالكم؟! فهو استفهام إنكار وتوبيخ لمن يقول شيئا ولا يفعله، ويعِدُ وعدا ويُخلفه، فهذا ممقوت عند الله أشدَّ المقت، وخصوص سبب النزول لا ينافي عموم الحكم؛ فالآية تتناول إخلاف كلِّ وعد، ونكث كلِّ عهد ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: عَظُم بُغضًا عند ربكم، و﴿مَقْتًا﴾ منصوب على التمييز المحول عن الفاعل، أي: كبُر مقتُ قولكم، أي: المقت المترتب على مخالفة أقوالكم لأفعالكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه ﴿ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي: أن تقولوا شيئا ولا تفعلونه، وقد اشتمل النظم الكريم على وجوه من تقبيح مخالفة القول للفعل؛ منها: مجيء «كبُر» الدال على التعجب والتعظيم، ومنها: ذكر المقت الذي هو أشدُّ البغض، ومنها: قوله ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ إذن، فكل ما قبُح عند الله فهو أقبح من كل قبيح.

ولما ذمَّ الله الذين وعدوا بالقتال ولم يفوا، وبين أن ذلك ممقوت عنده سبحانه؛ أتبع ذلك بالثناء على الذين وفوا بالعهد وصدقوا في الجهاد، وأخبر عن محبته لهم، وفي هذا أبلغ ترغيب في الجهاد؛ فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أكد الكلام بـ«إنَّ» لعظم شأن الخبر ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ ﴾ أي: يجاهدون أعداءه ﴿ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ أي: قتالا خالصا لوجه الله تعالى، لا رياء ولا سمعة، بل لتكون كلمة الله هي العليا، كما قال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل**

الله ﷺ»[١]، وفي هذا الثناء من الله على المجاهدين في سبيله مدحٌ للجهاد وإعلاء لشأنه، وقد وردت النصوص الكثيرة في فضله والحث عليه، وحسبك قوله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل**»، فكان أبو هريرة يقولهن ثلاثا، أشهد بالله[٢].

قوله: ﴿صَفًّا﴾ منصوب على الحال، أي: مصطفين في القتال، سواء كانوا رجالا أو فرسانا، ثابتين للقاء العدو، لا يتزحزح أحد منهم عن مكانه ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي: كأنهم في ثبوتهم في أماكنهم عند لقاء العدو واجتماع كلمتهم بنيانٌ محكم رُصَّ بعضُه ببعض، كأنه قطعة واحدة، فليس فيه خلل ولا فرجة يقتحمها العدو، وهذا تعليم من الله للمجاهدين كيف يكونون عند القتال، وبيانٌ للكيفية التي يحبها الله للمقاتلين؛ فإنهم إذا كانوا كذلك صاروا أهيب في صدور أعدائهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تشريف المؤمنين بتوجيه الخطاب لهم بنعت الإيمان.

٢- أن الإيمان يقتضي من العبد واجبات؛ أفعالا وتروكا.

٣- وجوب موافقة الأفعال للأقوال.

٤- ذمُّ مخالفة الأقوال للأفعال.

٥- أن ذلك مما يمقت الله عليه.

٦- وجوب الوفاء بالعهد والوعد والنذر وسائر العقود.

٧- أن الله يمقت مقتا عظيما على مخالفة الأقوال للأفعال.

٨- إثبات عندية الحكم لله تعالى.

---

(١) البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)؛ عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٧٩٩)، ومسلم (١٨٧٦)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٩- إثبات صفة المحبة لله.

١٠- فضل الجهاد والمجاهدين.

١١- اعتبار الصدق والإخلاص، فأما الصدق فلقوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾، وأما الإخلاص فلقوله: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

١٢- التنويه بمساندة المجاهدين بعضهم لبعض حتى كأنهم بنيان مرصوص.

١٣- أن من تمام تماسك البنيان رصَّ لَبِناته.

ولما حذَّر الله المؤمنين من عدم وفائهم بالعهد بالقتال في سبيله، وحث على الثبات فيه، ذكر لهم قصة موسى مع قومه، وما لقوا من العقوبة بسبب أذيتهم إياه، وعدم استجابتهم له؛ فقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية ذكر عتْب موسى ﷺ لقومه حين آذوه، وهو رسول الله إليهم، فلما زاغوا بعصيان نبيهم أزاغ الله قلوبهم، وتلك سنته تعالى في الفاسقين.

۞ التفسير:

قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ «إذْ» ظرف زمان متعلق بمحذوف، تقديره: اذكر، والخطاب لنبينا محمد ﷺ، أي: اذكر ـ أيها الرسول ـ لقومك خبر موسى حين قال ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ وهم بنو إسرائيل مستعطفا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، وفي هذا النداء تعريض بأن قوم الرسول أحرياء بتصديقه ونصرته، لا تكذيبه وأذيته، ولهذا قال لهم: ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ أي: لأيِّ شيء تؤذونني؟! وهذا استفهام إنكار وتقريع، والفعل المضارع يدل على تكرار أذاهم له، ولم يذكر معمول الأذى لكثرته وشموله؛ فإنهم كانوا يؤذونه بعصيان أمره، والتعنت عليه، وانتقاصه في نفسه، كقولهم له: أرنا الله جهرة، ولن نصبر على طعام واحد، وقولهم حين ندبهم موسى إلى قتال الجبابرة: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٢٢]، وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

[المائدة: ٢٤]، ومن أذاهم له أنهم رموه بالأُدْرَة، وهي انتفاخ الخصية؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلا حَيِيًّا سِتِّيرا، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده؛ إما بَرَص وإما أُدْرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجرُ، ثوبي حجرُ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩]»(١).

وقوله: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾ الجملة حالية، و«قد» لإفادة التحقيق، والمضارع للاستمرار، أي: والحال أنكم تعلمون صدقي علما يقينيا مستمرا بما شاهدتموه من المعجزات ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: مرسل منه إليكم، وفي هذا إشارة إلى تناهيهم في الجهل والعناد، فحق الرسول على قومه تصديقُه واتباعُه، ولكنهم لم يقيموا لهذا الرسالة وزنا، وهذا شأن اليهود مع الأنبياء جملة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: فلما انحرفوا عن الحق مع علمهم به ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي: أمالها عن الحق عقوبة لهم، زيغا على زيغ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته.

وقوله: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ لم يقل: والله لا يهديهم، فهو إظهار في موضع الإضمار تسجيلا عليهم بالفسق، ولبيان علة الحكم، فهذا ما فعله بنو

---

(١) البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٣٣٩)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إسرائيل مع موسى، وهكذا كان جزاء الله إياهم، وقد حذر الله هذه الأمة أن يسلكوا هذا المسلك مع نبيهم ﷺ لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك، فقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

۞ الفوائد والأحكام:

١ – تسلية الله لنبيه إذْ آذاه المشركون والمنافقون، ولقد تأسى النبي ﷺ بموسى عليه السلام، حين قال: «**رحم الله موسى لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**»(١).

٢ – أن بني إسرائيل آذوا موسى بأنواع من الأذى؛ بالمعصية فيما يأمر به، كقولهم في الأرض المقدسة: إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، وقولهم: إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون. وعصوه أعظم معصية باتخاذهم العجل، وآذوه بقولهم: إنه آدر، فبرأه الله مما قالوا، كما جاء ذلك في السنة، وأشير إليه في التفسير.

٣– في الآية إشارة مجملة إلى ما جاء في سورتي المائدة والأحزاب.

٤– أن أذى بني إسرائيل عن علم وعمد؛ لقوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ﴾.

٥– أن بني إسرائيل لما زاغوا عن الحق بمعصية نبيهم وأذاه، ونقضهم ميثاقهم، عاقبهم الله بزيغ قلوبهم، وتلك أعظم العقوبات.

٦– في الآية شاهد لقاعدة أن الجزاء من جنس العمل.

٧– فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

٨– أن أمْر الهدى والإضلال إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٨١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٠٦٢)؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [الأحزاب: ٨].

٩- الرد على القدرية في قولهم: إن الهدى والضلال راجع إلى محض مشيئة العبد.

١٠- أن الفسوق عن طاعة الله سبب للحرمان من الهداية.

١١- أن حق الرسول الطاعة والإكرام، لا العصيان والإيذاء.

١٢- تحذير المؤمنين أن يصنعوا مع الرسول محمد ﷺ ما صنع بنو إسرائيل مع موسى، وفي هذا إخلال بعقد الإيمان، وبهذا تظهر مناسبة الآية لما قبلها.

ثم ذكر الله قصة عيسى مع بني إسرائيل لما فيها من العبرة، فهي متممة لقصة موسى، فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هذه الآية خبر من الله عمَّا قاله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، وهو إخبارهم بأنه رسول من الله إليهم، وأنه جاء مصدقا لما تقدمه من التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، وجاء مبشرا برسول يأتي من بعده، وأن اسمه أحمد ﷺ، فلما جاءهم بالآيات البينات قال الكافرون منهم: هذا سحر مبين.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: اذكر لقومك ـ أيها الرسول ـ قصة عيسى مع بني إسرائيل حين قال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لم يقل: ياقوم، كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم، وإن كانت أمه مريم من بني إسرائيل؛ لأن المعتبر في النسب هو الأب ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا﴾ قوله: ﴿مُّصَدِّقًا﴾ حال من الضمير المستتر في رسول؛ لأنه مشتق بمعنى مرسَل، أي: حال كوني مُصَدِّقا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ أي: لما سبقني ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وتصديقه لها من وجهين:

الأول: أنه يشهد بأنها حق من الله.

الثاني: أن وجوده ونبوته تصديقٌ لما أخبرت به التوراة من نبوته وصفته، والتوراة هي الكتاب الذي أنزل على موسى، وهي تالية للقرآن من حيث كونها

أفضل الكتب المنزلة، وكثيرا ما يُقرن بينهما في الذكر في القرآن، وهي أصل الكتب المنزلة على بني إسرائيل، فبها حكم النبيون من بعد موسى إلى عيسى عليه السلام، وكان الذي ينزل على الأنبياء بعد التوراة أحكامٌ وشرائع مكمِّلة لما في التوراة غير ناسخة لها إلا شيئا يسيرا، فلهذا ـ والله أعلم ـ خصَّها عيسى بالذكر ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: وجئت لأبشركم، والبشارة هي الإخبار بأمر سار ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وهو نبينا محمد ﷺ الذي جاءت البشارة به في التوراة، وكان كل نبي يُبعث يُبشر به قومه، ويأخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به وينصروه إذا بعث فيهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وأحمد من أسمائه ﷺ، وهو علم وصفة، ومعناه: أنه أكثر حمدا لربه من غيره، فهو أفعل تفضيل من الفعل المبني للفاعل، ويحتمل أنه من الفعل المبني للمفعول، والمعنى أنَّ حمْد الناس له أكثر من حمدهم لغيره، قال ﷺ: «**لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»(١).

فعيسى عليه السلام ذكر لبني إسرائيل أشهر كتبهم، كما ذكر أشهر الرسل وخاتمهم المذكور في كتبهم، وذلك يتضمن أن من دين عيسى عليه السلام الإيمان بكتب الله جميعها وبأنبيائه عليهم السلام من تقدم منهم ومن تأخر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: جاء عيسى عليه السلام لبني إسرائيل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات الظاهرة، وهي المعجزات، وهي حجج نبوته؛ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار منهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما جاء به سحر واضح، وقرأ حمزة والكسائي من السبعة:

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٩ و٤٦١٤)، ومسلم (٢٣٥٤)؛ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

﴿ سَاحِرٌ﴾، أي: عيسى ساحر، وهذا من الكذب والمكابرة والتمويه، وذكر كثير من المفسرين أن ضمير الفاعل في ﴿جَآءَهُم﴾ يعود على الرسول محمد ﷺ، وهو ضعيف، بل يعود على عيسى بدليل قوله تعالى في المائدة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن عيسى عليه السلام ولد من أم بلا أب، وهي مريم ابنة عمران، فهو بذلك آية من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١].

٢- أن من لا أب له، وهو عيسى عليه السلام، أو لا يعرف أبوه، فإنه ينسب إلى أمه.

٣- أن عيسى لا نسب له في بني إسرائيل.

٤- أن القبيلة ليسوا قوما لابن البنت منهم، وإنما قوم الرجل هم عشيرته من قبل أبيه، ولهذا - والله أعلم - لم يأت في القرآن خطاب عيسى لبني إسرائيل بلفظ القوم، كما في هذه الآية.

٥- أن عيسى عليه السلام رسول مرسَل إلى بني إسرائيل.

٦- أنه مصدِّق للتوراة وحاكم بها إلا ما نَسخ منها، كما قال تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

٧- أن عيسى بشَّر برسالة محمد ﷺ، وأن اسمه في الإنجيل أحمد، وأما في التوراة فاسمه محمد، كما روي ذلك عن علي رضي الله عنه[1]. ومحمدٌ أشهر

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٨٠).

أسمائه ﷺ في الكتب السابقة، ولم يسمِّه الله في القرآن إلا محمدا، وهو الأشهر، ولا يكاد يذكره المسلمون إلا بهذا الاسم موصوفا بالنبوة أو الرسالة عليه السلام.

٨- أن عيسى عليه السلام آخر من بشر من الأنبياء بمحمد ﷺ، ولذا قال عليه السلام: «**أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي**» متفق عليه[١].

٩- أن الله سمَّى الرسول بمحمد وأحمد قبل أن يوجد، ففيه:

١٠- جواز تسمية المولود قبل أن يولد، ولكن السنة تسميته يوم سابعه، ويجوز يوم مولده.

١١- ذكر الرسول لمقاصد رسالته؛ لقول عيسى: ﴿مُصَدِّقًا﴾، و﴿وَمُبَشِّرًا﴾.

١٢- تأييد الله لعبده ورسوله عيسى بالآيات، وهي سنته تعالى مع رسله، كما قال ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**»[٢].

١٣- أن من بني إسرائيل من كفر بالمسيح عليه السلام، وهم الذين قال الله في الخبر عنهم: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٥٢].

١٤- أنه يجوز الإخبار عن الجماعة بما قاله بعضهم؛ لأنه منهم؛ لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: بنو إسرائيل، وإنما هو قول من كفر منهم، ويستشهد لهذا بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وهو قول لبعضهم. وهذا يجري على مجاز اللغة من

(١) البخاري (٣٢٥٨)، ومسلم (٢٣٦٥)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٤٦٩٦)، ومسلم (٢٣٩)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التعبير بالكل وإرادة البعض، ومنه أيضا: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، والقائل جبريل عليه السلام. ومن التعبير بالبعض وإرادة الكل إطلاقُ اسم الشخص على الجماعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ [القارعة: ٤]، المعنى: كذبت القبيلتان، وأصل ثمود وعاد اسمان لشخصين هما جدا القبيلتين.

١٥- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

١٦- مبالغة من كفر من بني إسرائيل في الكذب ومغالطتُهم؛ لقولهم: ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: بيِّن.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآية أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب، وهو في حال دعوته إلى الإسلام، ليردَّ على الرسول دعوته، ويكذِّب بأن الله أرسله، ومن هذه حاله فالله لا يهديه، أي: لا يوفقه لقبول الحق، عقوبة له على افترائه وظلمه؛ لأن الله لا يهدي القوم الظالمين.

۞ التفسير:

قوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي: لا أحد أشدُّ ظلما، فهو استفهام إنكاري معناه النفي، وقد وردت آيات متضمنة لنفي الأظلمية عن غير المفتري على الله، كقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقد يُتوهم أن بين هذه الآيات تعارضا، وجهه أن كل آية تدل على أن المذكور فيها أظلم الظالمين، وأحسن ما قيل في الجواب عن ذلك: إنَّ كل آية مخصوص معناها بنوع صلة الموصول، أي لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من الكاتمين أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا، والله أعلم.

والظلم وضع الشيء في غير موضعه ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، المعنى: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، ونسب إليه ما لم يكن منه؛ كمَن ادَّعى أنه يوحى إليه، ولم يوح إليه شيء،

أو ادَّعى أن الله حرم هذا، أو أحلَّ هذا بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ الجملة حالية تفيد ذمَّ هذا الظالم الذي ركب هواه، وتقبيحَ فعله، أي: فعل ذلك في حال أن الرسول كموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من رسل الله يدعونه إلى الإسلام الذي هو الدين الحق، ولا يقبل الله من أحد دينا سواه. وتظهر فظاعة ظلم هذا الظالم من وجوه:

الأول: أنه لم يقبل الحق الذي ظهرت شواهده للعِيان، وقامت عليه البراهين.

الثاني: أنه افترى على الله الكذب، فجمع بين الكذب والتكذيب.

الثالث: أنه افترى على الله الكذب، وهو يُدعَى إلى الإسلام الدين الحق، القائم على عبادة الله وحده لا شريك له، كما هو مقتضى العقل والفطرة.

والظاهر أن الآية عامة في جميع الأمم، فإن الإسلام ليس مختصًا بهذه الأمة وحدها، وهو دين الله الذي بعث به جميع الرسل، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للخير والفلاح، جزاء وفاقا، وهذا الجملة مقررة لمعنى الكلام السابق، فهي كالتأكيد له؛ إذ تُبيِّن أن من سنن الله التي لا تتبدل خذلانَ الظالمين، وحرمانَهم من الهداية.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الكذب على الله من أظلم الظلم.

٢- أن الظلم يتفاوت.

٣- أن تكذيب الرسول يستلزم الافتراء على الله.

٤- أن دين الإسلام ناصعٌ تشهد العقول أنه الحق؛ فالامتناع من قبوله مناقض للعقل والشرع.

٥- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

٦- أن الظلم بالكذب على الله سببٌ للخذلان.

٧- أن الله هو المتصرف في قلوب العباد ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١].

٨- الرد على القدرية.

ولما ذكر الله افتراء الكفار الكذب على الله أخبر عن قصدهم من هذا الافتراء؛ فقال سبحانه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى عما يريده الكافرون المكذبون بما جاءتهم به الرسل، المفترون على الله الكذب، وهو أن يطفؤوا نور الله المنزل على الرسول بجحد براهينه، وافتراء الكذب على الله ليصدوا الناس عن قبوله، وأنه تعالى سيخيب سعيهم فيتم نوره، ويوفق لقبوله واتباعه من يختاره من عباده، ولو كره ذلك الكافرون الجاحدون للحق، المعرضون عنه، الكارهون لدخول الناس فيه حسدا وبغيا.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ أي: يريد الكفار بمكرهم وكيدهم ﴿لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: ليبطلوا الحق الذي جاءت به الأنبياء من عند الله، واللام في ﴿ لِيُطْفِـُٔواْ ﴾- على الأظهر- زائدة للتقوية وتأكيد معنى الإرادة، وتسمَّى لام «أَنْ»؛ لأنها تقدَّر بعدها، وتؤوَّل مع ما بعدها بمصدر، والتقدير: يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، وفي الآية استعارة تمثيلية؛ شُبِّهت إرادة الكفار في محاولة إبطال دين الله وطمس محاسنه بمن ينفخ الشمس بفيه ليطمس ضوءها، وفي هذا تهكم بهم، وأنهم بلغوا الغاية من الجهل والحمق والغباء.

وفي قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إشارة إلى أن تكذيبهم وردَّهم للحق كان قولا بأفواههم، أما قلوبهم فكانوا مستيقنين بصدق الرسول، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ

بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقوله: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أضيف النور إلى الله لأنه الذي أنزله، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: والله مظهرٌ دينه باستعلانه وعلوِّه على كل دين سواه، وإن رغمت أنوف الكافرين، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو كره الكافرون ظهور دين الله فإن الله سيظهره.

۞ الفوائد والأحكام:

١- سوء قصد المفترين على الله المكذبين بآياته.

٢- أن غايتَهم طمسُ الحق، وصدُّ الناس عنه.

٣- علم الله بنوايا القلوب؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾.

٤- أن للعباد فعلا وإرادة، ففيها:

٥- الرد على الجبرية.

٦- أن ما جاءت به الرسل نورٌ من الله لهداية العباد.

٧- تحقير الكافرين عن الوصول إلى غايتهم؛ لقوله: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ فالنور عظيم، ووسيلةُ الإطفاء أضعف ما تكون.

٨- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٩- أن من أفعال الله أن يتم نوره.

١٠- أن العلم والإيمان نورٌ يجعله الله في قلوب من شاء.

١١- البشـارة بإتمام نور الله، وهو يتضمن حفظ الله لدينه ووحيه، وتأكيدُ الخبر بذلك بالجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

١٢- فيها شاهد لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

١٣- تيئيس الكفار من الوصول إلى مرادهم فيما جاء به الرسول ﷺ.

١٤- كراهة الكفار لدين الإسلام ودخول الناس فيه، ورغبتهم في ارتدادهم عنه، ففي الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٨٩].

ولما ذكر الله أنه متمُّ نوره ولو كره الكافرون أكد ذلك بالخبر عن رسالة محمد ﷺ، وأنه تعالى سيظهر دينه على جميع الأديان، فقال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى عن نعمة عظمى من نعمه ورحمة عامة للعالمين، وهي أنه تعالى أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق، ومن حكمته تعالى أن يعليه على كل دين سواه، ولو كره المشركون.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﷻ وعظم سلطانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ أي: محمدا ﷺ، وأضاف الرسول إليه سبحانه تنويها بشأنه، وتشريفا وتكريما، وللإشارة إلى أنه ناصره ومؤيده وقاهر عدوه مهما يكونوا ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ الجار والمجرور حال، والباء للمصاحبة، والهدى ما فيه الهداية للبشر، فيشمل كل ما جاء به الرسول ﷺ من القرآن ومن المعجزات البينة والأخبار الصادقة والعقائد الصحيحة والشرائع المستقيمة ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الإسلام، من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الدين الحق، ووصفه بالحق لأنه ما سواه من الأديان باطل ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي: ليعلي الإسلام على جميع الملل، واللام للتعليل ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على جميع الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي: ولو كره أعداء الله ذلك، وقد أنجز الله وعده بظهور الإسلام وكثرة أتباعه وانتصار أهله واتساع دولته، قال ﷺ: «**إن الله زوى**

لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[(١)]، وقال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر»[(٢)].

وقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ الحكمة من ذكر المشركين دون الكافرين في هذه الآية - والله أعلم - أن أول المكذبين لدعوة النبي ﷺ هم من قريش ومن حولهم في جزيرة العرب؛ فإن الشرك ظاهر فيهم وغالب عليهم، أما الآية السابقة فقال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأن لفظ الكافر أعم، والآية فيها عموم، والمراد جميع الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين والملحدين، كلهم يريدون أن يطفؤوا نور الله، ويأبى الله ذلك.

۞ الفوائد والأحكام:

١- ثناء الله على نفسه بإرسال محمد ﷺ.

٢- تذكيره تعالى عباده بنعمته عليهم بإرسال هذا الرسول.

٣- تشريفه ﷺ بوصف الرسالة، والإضافة إلى الله.

٤- عظم شأن ما جاء به النبي ﷺ.

٥- أن كل ما جاء به الرسول ﷺ من العلوم والشرائع فهو حق، وهو من عند الله.

٦- أن ما وقع وما يقع من ظهور هذا الدين علمٌ من أعلام نبوته ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (١٦٧٥٩)، والحاكم (٤/ ٤٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٨١)؛ عن تميم الداري رضي الله عنه، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

٧- أن ما جاء به الرسول ﷺ نوعان: علوم وهي العقائد، وأعمال وهي الشرائع والأعمال الظاهرة والباطنة.

٨- أن من حكمته تعالى في إرسال محمد ﷺ إظهار دين الإسلام، الدين الحق على جميع الأديان.

٩- أن من دخل في الإسلام أو علم شيئا من أحكامه وشرائعه فعليه أن يظهره، ولا يستسرَّ به.

١٠- ومن الفوائد ما قاله بعضهم، من أن هذه الآية ناسخة لكل ما يدل على قوة الباطل وغلبة أهله؛ وعلى الرخصة في كتمان الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وما جاء في قصة امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون. وعلى هذا ففي الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

١١- إثبات التعليل في أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

١٢- كراهة المشركين لعلو هذا الدين وعلو أهله.

١٣- إطلاق اسم الدين على الأديان الباطلة، كما قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

هذا من قبيل ما يسمى في الكلام عودًا على بدء؛ فإن السورة بدئت بعتاب الذين سألوا عن أحب الأعمال إلى الله، فإنهم حين ذُكر لهم الجهاد في سبيل الله نكلوا، ثم علَّمهم الله أن العمل المرضيَّ عنده سبحانه أن يقاتلوا في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، ثم بين لهم في هذه الآيات فضل الجهاد في سبيل الله، وقرنه بالإيمان بالله ورسوله، وبين أنه التجارة الرابحة، فبه النجاة من العذاب والفوز بعظيم الثواب.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يا أيها الذين صدَّقوا بما أمر الله بالإيمان به، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان، وفي هذا النداء إيجاز بالحذف، والتقدير: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، واستحسن هذا الحذف لكثرة هذا النداء في القرآن، لذلك نزل الفعل «آمَنُوا» منزلة الفعل اللازم الذي لا معمول له، فأفاد الإيجاز والعموم، وفي ندائهم بوصف الإيمان حث لهم على الإجابة إلى ما دُعوا إليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ أي: هل أُرشدكم إلى تجارة رابحة عظيمة الشأن، والاستفهام للتشويق

والحث والترغيب وتزيين الأعمال الصالحات ﴿تُنجِيكُم﴾ أي: تُخلِّصكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: عذابٍ مؤلم عظيم، شبَّه الإيمان والجهاد بالتجارة في كون كلٍّ منها طريقا لنيل الربح، لكن شتان ما بين الربحين، فالإيمان والجهاد تجارة مع الله، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وثمرتها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بجنات النعيم، ثم بين هذا التجارة فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: تدومون على الإيمان؛ لأن الخطاب للمؤمنين ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تجاهدون أعداء الله وأعداءكم، والمضارع في «تُؤْمِنُونَ» و«تُجَاهِدُونَ» مؤَوَّل بالأمر، أي: آمِنوا وجاهِدوا؛ بدليل جزم الفعل الواقع جوابا للأمر، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾، ومجيء الأمر بصورة الخبر للدلالة على أن المأمور به من شأنه ألا يُترك، بل حقُّه أن يسارع إليه المكلف، فكأنه امتثل فهو يخبر عنه موجودا، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أي: ليُرضعن.

وقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تقاتلون لوجه الله تعالى، لا سمعة ولا رياء، و«في» للتعليل ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾ قدم الأموال لأنها التي يبتدأ بها عند الإعداد للقتال، فالتقديم باعتبار الواقع ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما أمرتم به من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدنيا وما فيها ومن كل حظوظ النفس ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من ذوي العلم فهذا خير لكم فافعلوه، وجملة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضة فائدتها الحث على امتثال الأمر ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: يسترها ويتجاوز عنها، وجزم الفعل المضارع لأنه جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر في قوله ﴿تُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ معطوف على ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ففيه الجمع بين النجاة من العذاب والفوز بالثواب ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي:

تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: ويدخلكم مساكن طيبة، وهي بيوت بَهِيَّة منيفة ذات بهجة، وغرف من فوقها غرف، وعطف المساكن على الجنات من عطف الخاص على العام، وخصت المساكن بالذكر لأن المجاهد يفارق مسكنه فوُعد على ذلك بمساكن خير منها أبدية لا يفارقها أبدا، ولهذا قال: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أصل العَدْن هو الإقامة، والمراد جنات خلود، ووصفُ المساكن بأنها طيبة يدل على حسنها بذاتها، وعلى طيب المقام فيها، والأمن فيها من كل مخوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من غفران الذنوب وإدخال الجنات ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الذي لا فوز أعظم منه، وهو النجاة من المرهوب والظفر بالمطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أخرى: مبتدأ لخبر محذوف، و﴿تُحِبُّونَهَا﴾ صفة أي: ولكم عند ربكم مثوبة أخرى عاجلة في الدنيا محبوبة لكم، وهذا من رحمته تعالى أن عجَّل لهم ثوابا ينالونه في العاجل، مع ما ينتظرون من ثواب الله في الآخرة ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: العِدَة الأخرى نصرٌ من الله يأتيكم، فيشفي صدوركم من أعدائكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل، وهذه بشارة للمجاهدين بالنصر العزيز والفتح المبين، وذلك شامل لكل نصر وفتح يحققه الله على أيدي المجاهدين في سبيله، وأول ذلك فتح مكة، ثم ما تلاه من الفتوح في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته في عهد الخلفاء الراشدين فمن بعدهم، وهذا من شواهد إعجاز القرآن، وهو الإخبار عن غيب فوقع كما أخبر به القرآن ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ـ على الصحيح ـ معطوف على قوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ففيه الدليل على جواز عطف الإنشاء على الخبر وعكسه، وهو الراجح، خلافا لمن منعه، وشواهد ذلك كثيرة من القرآن ومن كلام العرب، المعنى: وبشر المؤمنين

بنصر الله وفتحه لهم، ورضاه عنهم، والخطاب للنبي ﷺ؛ لأن وظيفته التبشير، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم، لم يقل: وبشِّرهم؛ لأن صفة الإيمان هي التي تقتضي البشارة، وفي الآية وعد وبشارة من الله للمؤمنين المجاهدين أن ينصرهم الله، ويجعل العاقبة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

۞ الفوائد والأحكام:

١- تكريم المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب، وتكريمهم بنعت الإيمان.

٢- أن الإيمان يقتضي الاستجابة لله فيما يدعو إليه عباده.

٣- أن من طرق الدعوة: استمالة المخاطبين بأسلوب العرض ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾.

٤- جواز إضافة الدلالة إلى الله، ولذا قيل: إن من أسماء الله التي يُدعى بها: دليل الحائرين، كما جاء عن الإمام أحمد رحمه الله(١).

٥- أن الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله تجارةٌ مع الله.

٦- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١١].

٧- أن هذه التجارة رابحة أعظم ربح، وهو النجاة من العذاب بمغفرة الذنوب ودخول الجنات.

٨- أن من نعيم الجنة الأنهارَ الجارية من تحتها.

٩- أن من نعيم الجنة المساكنَ الطيبة.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٤٨٣).

١٠- أن من تمام نعيم الجنة الخلودَ فيها؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ أي: إقامة.

١١- أن مساكن الجنة جميلةٌ وواسعةٌ.

١٢- أن الفوز العظيم يكون بالنجاة من العذاب والفوز بعظيم الثواب.

١٣- أن من أساليب البيان التفصيلَ بعد الإجمال؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ الآية.

١٤- فضل العلم، وأنه يوجب إيثار الخير، وتقديم النافع على الضار.

١٥- أن من الثواب العاجل النصرَ والفتحَ من الله لأوليائه المؤمنين والمجاهدين.

١٦- محبة النفوس للثواب العاجل.

١٧- أن في كل ما تقدم بشرى للمؤمنين.

١٨- محبة الله لما يحبه المؤمنون ويَسرُّهم؛ لقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٩- أن النبي ﷺ واسطة بين الله وعباده، يبلغهم وحيه: أمره ونهيه، ووعده ووعيده.

٢٠- أن الرسول ﷺ عبدٌ لله مأمور منهيٌّ.

ولما ندب الله المؤمنين إلى الجهاد ورغَّبهم فيه، ووعدهم الأجر العاجل والآجل؛ أمرهم أن يقتدوا بأصفياء عيسى عليه السلام في نصر دين الله؛ فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يدعو الله عباده المؤمنين لينصروا الله بنصر دينه وجهاد أعدائه من الكافرين، وأن يقتدوا بالحواريين أصحاب عيسى عليه السلام حين قال لهم: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن أنصار الله، فكانوا بذلك مؤمنين، وصار بنو إسرائيل طائفتين: مؤمنين وكافرين، فأيَّد الله المؤمنين على الكافرين، فأصبحوا ظاهرين.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله واتبعوه، وأعاد النداء للتنبيه على ما في الجهاد من نصر لله بنشر دينه وتبليغ شرعه ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ جمع ناصر كصاحب وأصحاب، أي: كونوا أنصار دين الله الذي هو الإسلام، ودوموا على ذلك.

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ ﴿ كَمَا ﴾ أي: كقول عيسى والحواريين، وهذا التشبيه منظور فيه إلى المعنى؛ إذْ روعي فيه اختصار اللفظ؛ فلا بد من تقدير؛ فإن الكون يشبَّه بالكون لا بالقول، فمعنى الآية: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصارَ الله، حين قال لهم عيسى:

من أنصاري إلى الله؟

وفي هذا التشبيه فائدتان:

الأولى: حثُّ المؤمنين من هذه الأمة على نصرة الله ورسوله ﷺ.

الثاني: البشارة بأن العاقبة من الله للمؤمنين بالتأييد وارتفاع الذكر واندحار عدوهم.

والحواريون أصفياء عيسى الخُلَّص، من الحَوَر، وهو البياض الخالص، سموا بذلك لبياض ثيابهم، ولأنهم يُبَيِّضون الثياب، أي: يغسلونها، وذكر بعض المفسرين أن الحواريين اسمٌ لأصحاب كل نبي، وليس ذلك بصحيح؛ فإن هذا اللفظ لم يطلق في القرآن إلا على أصحاب عيسى عليه السلام، وفسَّره العلماء بما يقتضي الاختصاص بهم، كما تقدم، ثم إن النبي ﷺ لم يصف أحدا من الصحابة بأنه حواريٌّ إلا الزبير بن العوام في قوله ﷺ: «**لكل نبي حواريٌّ وحواريَّ الزبير**»[1]، فدلَّ على اختصاصه بهذا الاسم من بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وفي هذا تشريف له، ولا يدل على التفضيل المطلق.

قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾ أي: من ينصرني في الدعوة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: حال كوني متوجها إلى الله وإلى إعلاء كلمته تعالى ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: قالوا لعيسى ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصار دين الله وأنصارك في دعوتك وتبليغ رسالتك، فالحواريون هم الطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل، وطائفة أخرى كفرت به، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

(١) رواه البخاري (٢٦٩١ و٢٨٣٥ و٦٨٣٣)، ومسلم (٢٤١٥)؛ عن جابر رضي الله عنه.

وهم الحواريون ﴿وَكَفَرَت طَّآيِفَةٌ﴾، وتقديم الطائفة المؤمنة لشرفها ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قوَّيناهم ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى، وهم اليهود، وإنما عادوهم بسبب إيمانهم.

قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ على أعدائهم، أي: صاروا غالبين لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

۞ الفوائد والأحكام:

١- تشريف المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب، ونعتِهم بالإيمان.

٢- أن الإيمان يقتضي الطاعة والاستجابة لله ولرسوله ﷺ.

٣- وجوب الجهادِ في سبيل الله والأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وأن ذلك نصرٌ لله.

٤- أن نصر المؤمنين لله نصرٌ لرسوله ﷺ، وسيرٌ معه إلى الله.

٥- أن أمر الله للعباد بالكون يكون شرعيا، كما في هذه الآية، وكونيا، كما في قوله سبحانه: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ [البقرة: ٦٥].

٦- مشروعية الاقتداء بالصالحين من أتباع الأنبياء.

٧- فضل الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام؛ لثناء الله عليهم بالاستجابة لما دعاهم المسيحُ إليه.

٨- أن بني إسرائيل منهم المؤمن والكافر.

٩- تأييد الله لأوليائه على أعدائه.

١٠- أن الإيمان سبب التأييد.

١١- أن الكفار أعداءٌ للمؤمنين، وكذلك هم أعداءٌ لله، والله عدوٌّ للكافرين.

١٢- أن سنة الله إظهار المؤمنين على الكافرين، ولو كره الكافرون.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

هذه السورة مدنية بالإجماع، وآياتها إحدى عشرة؛ تضمنت الآية الأولى الخبر عن تسبيح العالَمين العلوي والسفلي لله، وذكْر أربعة من أسمائه الحسنى: الملك القدوس العزيز الحكيم، وتضمنت الآيات من الثانية إلى الرابعة امتنان الله تعالى ببعثة خاتم النبيين في الأميين ﷺ، فهداهم الله به وقد كانوا في ضلال مبين، وهدى به فريقا من اللاحقين، وذلك فضل الله يمنُّ به على من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وفي الآيات من الخامسة إلى الثامنة ضربُ مثل لليهود بحمار يحمل أسفارا، وهو مثل سوءٍ وبّخ الله به اليهود، ثم أفحمهم في دعوى أنهم أولياء الله، فدعاهم إلى تمني الموت، وأخبر أنهم لا يتمنونه، وأن الموت لا مفرَّ منه، فمن فرَّ منه وجده أمامه.

أما الآيات الثلاث الأخيرة فتضمنت أمر الله للمؤمنين بالسعي لصلاة الجمعة، ونهيهم عن البيع، وأمرهم بالانتشار بعد الصلاة، والإكثار من ذكر الله، وختمت السورة بلوم الذين انفضُّوا عن النبي ﷺ وهو يخطب إيثارا للتجارة، وما انفضوا عنه خير مما ذهبوا إليه طلبا للرزق، والله خير الرازقين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآية عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض من العوالم له سبحانه، وأصل التسبيح التنزيه، فكلُّ العوالم تسبحه، أي: تنزهه عن كل نقص وعيب، وأخبر تعالى أنه المستحق لذلك؛ لأنه الملك القدوس العزيز الحكيم.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ينزه الله عن كل نقص وعيب ويمجِّده جميع ما في السماوات وما في الأرض من الملائكة والإنس والجن وغيرهم، والفعل «سبَّح» يتعدى بنفسه كما قال سبحانه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، لكنه في هذه السورة ضمِّن معنى التقديس، فعدي باللام، وقد جاء في قول الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

وجاء فعل «يُسَبِّحُ» مضارعا لإفادة أنه تسبيح متجدد على سبيل الاستمرار، وأن أهل السماوات والأرض لا يفترون عن التسبيح، وجاء في مواضع أخرى بصيغة الماضي «سبَّح»، وبصيغة الأمر «سبِّح»، وبالمصدر كما في مفتتح سورة الإسراء؛ إيذانا باستحقاقه تعالى أن يسبَّح ويذكر اسمه في جميع الأوقات والأحوال، قال الطيبي: «جاء ـ أي: التسبيح ـ في سورة بني إسرائيل بلفظ المصدر، وفي الحديد والحشر والصف بالماضي، وفي الجمعة والتغابن بالمضارع، وفي ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ

﴿رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ بالأمر، فاستوعب جميع جهات هذه الكلمة؛ إعلامًا بأن المكوَّنات من لدُن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبِّحةٌ مقدسةٌ لذاته ﷻ قولا وفعلا طوعا وكرها ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]»(١).

وأسند التسبيح في هذه السورة إلى ما في السماوات وما في الأرض، كما أسند إلى السماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فدلَّت الآية على أن السماوات نفسها والأرض تسبح لربها، كما يسبح له ما فيها من العوالم، وظاهر الآية أنه تسبيح حقيقي بلسان المقال؛ فالعوالم العلوية والسفلية كلها تسبح الله، وإن لم ندرك كيفيات تسبيحها؛ فإن الله قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذه نعوت للاسم الكريم «الله»، وقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي: المالك لجميع المخلوقات، فهو خالقها، وهو المتصرف في خلقه بما شاء ـ دون معين أو منازع ـ بالأمر والنهي، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإيجاد والإعدام، والملِك صفة مشبَّهة دالة على الثبات، أي: الذي يملك كل شيء، ويتصرف في كل شيء، ولا يزول عنه ملكه وسلطانه ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ أي: الطاهر المتنزِّه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، و«الْقُدُّوسُ» صيغة مبالغة على وزن فُعُول(٢)، من القُدْس ـ بضم القاف وسكون الدال وضمها ـ بمعنى الطُهْر، وهذه الصيغة «الْقُدُّوسِ» تدل على كمال تنزهه تعالى عن النقائص والعيوب، وعلى كثرة تقديس العباد له، كما قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) فتوح الغيب (١٥/ ٢٢٨) في كلامه على آية الحديد ١.

(٢) إذا قيل في أسماء الله: «صيغة مبالغة»؛ فالمراد الدلالة على كمال وصفه تعالى بما دل عليه الاسم من المعنى.

قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ صيغة مبالغة، أي: ذو العزة، وهو القوي الغالب المنيع الجناب القاهر في ملكه الذي لا يغالَب ولا يمانَع ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صيغة مبالغة، أي: ذو الحكمة، فهو تعالى الحكيم في صُنعه وتدبيره وأمره، فله سبحانه الحكمة التامة في كل شيء في قوله وفعله.

وتخصيص هذه الأسماء ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بالذكر لأنها المقتضية لما ذكر من تسبيح المخلوقات لله تعالى، فذكرها كالتعليل لذلك.

وافتتاح السورة بالتسبيح من حسن الافتتاح المؤذن بما اشتملت عليه السورة من ذكر أفعاله تعالى الحكيمة، وشرائعه القويمة، وإكرامه لعباده المؤمنين؛ من بعث الرسول في الأميين لتعليمهم وهدايتهم وتزكيتهم، بعد ما كانوا فيه من الضلال، وذلك من فضله العظيم على المؤمنين، وما تلا ذلك من التحذير من سبيل المكذبين بآيات الله، والمعرضين عن العمل بها، وشرُّهم اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، ثم ما جاء بعد ذلك من الترغيب في المبادرة فيما شرعه الله لعباده المؤمنين من صلاة الجمعة، وكلُّ ذلك مما يستحق تعالى به التسبيح والتقديس والثناء والتبجيل؛ لأنه وليُّ كل النعم الدينية والدنيوية.

۞ الفوائد والأحكام:

١- إثبات عظمة الله تعالى.

٢- أنه منزه عن كل نقص وعيب في أسمائه وصفاته وأفعاله.

٣- تقديس جميع المخلوقات له سبحانه.

٤- إثبات الأسماء الأربعة المذكورة في الآية: الملك، القدوس، العزيز، الحكيم.

٥- أن له تعالى الملكَ كلَّه.

٦- أنه تعالى المتقدس في ملكه وتدبيره عن كل نقص كالظلم والعبث.

٧- إثبات العزة بكل معانيها لله تعالى.

٨- إثبات الحكمة له تعالى في أفعاله وأحكامه، وفي شرعه وقدره.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الامتنان من الله على الأميين ببعثة رسول منهم ليتلو عليهم آيات الكتاب، ويزكيهم بالتوحيد ومحاسن الآداب، ويعلمهم ما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة، فيكونوا بذلك مهتدين بعد الضلال المبين، وهؤلاء من كان في عصر النبي ﷺ، ثم شملت المنة ببعث الرسول من جاء بعدهم ولحق بهم في العلم والإيمان من العرب والعجم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ أي: الله وحده ﷻ ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: في المؤمنين من الأميين، ووجه تفسير الآية بالمؤمنين من الأميين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ويؤيد تفسير الآية بالمؤمنين من الأميين قوله في آية الجمعة هذه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وقوله في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والفضل والمنُّ في القرآن خاص بالمؤمنين دون غيرهم.

والأميون هم العرب سمُّوا بذلك لأنهم لا يكتبون ولا يقرؤون، ولهذا قال

النبي ﷺ: «**إنا أمة أمية لا نكتُب ولا نحسُب**»(١)، ومن لا يقرأ ولا يكتب فهو باق على خلقته الأولى، كما ولدته أمه، فيكون منسوبا إليها، وقد غلب وصف الأميين على العرب لكثرة الأمية فيهم، وقد يوصف بذلك غيرهم ممن لا يقرأ ولا يكتب، كما قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]. وقيل: الأميون هم من لا كتاب لهم، فيشمل العرب وغيرهم.

قوله: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو محمد بن عبد الله ﷺ، وهو رسول إلى العرب وغيرهم، بل إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وتخصيص الأميين بالذكر لبيان أن المنة عليهم أظهر وأكبر منها على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وتعريضا بهم حين كذبوه، وكان اللائق بهم تصديقَه من أول الأمر؛ لأنه منهم، ولكونهم يعرفون صدقه وأمانته، ولهذا قال: ﴿مِّنْهُمْ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: من جملة الأميين أنفسهم، فهو أميٌّ مثلهم، ومن عصبتهم، فقد يكون الرسول من بينهم وليس من عصبتهم، ووجه الامتنان بكونه نبيا أميا ـ كما يقول القرطبي ـ يرجع إلى ثلاثة أشياء:

أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارةُ الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

الثالث: لينتفي عنه سوء الظن بدعوى تعليمه ما دعا إليه، وأنه من كُتُبٍ قرأها، وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته.

---

(١) رواه البخاري (١٨١٤)، ومسلم (١٠٨٠)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يقرؤها، والجملة صفة لرسول أو حال، لأن ﴿رَسُولًا﴾ نكرة مخصَّصة بالوصف ﴿مِّنْهُمْ﴾، والآيات هي آيات القرآن، جمع آية، وهي العلامة، وسماها الله آيات لأنها علامات دالة على الحق، وعلى صدق نبوة من جاء بها ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ صفة ثانية لرسول أو حال، أي: يطهرهم من الشرك والمعاصي والأخلاق الفاسدة بنهيهم عنها، ويزكيهم بالإيمان وبالأعمال الصالحة بأمرهم بها ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: السنة، والجملة صفة ثالثة أو حال، وكونه ﷺ موصوفا بهذه الأوصاف من التلاوة والتزكية والتعليم وهو أميٌّ معجزة ظاهرة على نبوته.

قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ الواو للحال، وإنْ هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير محذوف، والدليل على أنها المخففة من الثقيلة وجود اللام في خبرها، أي: وإنَّهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: انحرافٍ بيِّن عن الصراط المستقيم؛ إذ كانوا يعبدون الأصنام، ويقطعون الأرحام، ويأتون الفواحش، و﴿مُّبِينٍ﴾ اسم فاعل من أَبان الرباعي اللازم بمعنى بان وظهر.

وهذا الذي وقع من إرسال الرسول الموصوف بهذه الصفات هو أثر دعوة إبراهيم عليه السلام حين دعا لذريته بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ جمع آخَر بمعنى الغير، ومِن بيانية، أي: وآخرين من المؤمنين ممن جاء بعد القرن الأول، والأظهر أن ﴿ءَاخَرِينَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أي: يعلِّم المؤمنين ويعلِّم آخرين من المؤمنين من سائر الأمم الذين لم يجيئوا بعد؛ وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه، حتى سأل ثلاثا، وفينا سلمان

الفارسي، قال: فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء**»(١).

قوله: ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ أي: لم يلحقوا بهم إلى الآن، وسيلحقون بهم فيما بعد، وذلك لما تدل عليه «لمَّا» النافية؛ فإنَّ نفيها يستمر إلى الحال، ويتوقع وقوعه بعده، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: القوي الذي لا يغالَب، ومن آثار عزته أن حفِظ هذا النبي الأميَّ ومكَّن له حتى ظهر دينه على الدين كله ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الذي يضع الأمور في مواضعها، واقتران الاسمين الكريمين «العزيز» و«الحكيم» يدل على أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فلا ظلم لديه ولا هضم، كما هو شأن ملوك البشر الذين يظلمون الناس بتكليفهم ما لا يجب عليهم، وجحدهم لحقوقهم، وعدم العدل فيهم، وتقديم «العزيز» على «الحكيم» لأن العزة هي التي يكون بها التصرف بالإعطاء والمنع والهدى والإضلال والخفض والرفع، والحكمةُ من تمام هذه الأفعال.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كلُّ ما تقدم من بعث الرسول، وهدايتهم به، وتعليمهم وتزكيتهم، واسم إشارة البعيد لتعظيم ما سبق ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ من عباده تفضلا وكرما، ومن فضله أنه خصَّ محمدا ﷺ بالرسالة والنبوة الخاتمة، واصطفاه على العالمين، وجعل رسالته عامة إلى الناس جميعا، ومن فضله تعالى أنه شرَّف بهذا الاصطفاء قريشا والعرب، وأعلى شأنهم، وجعلهم أنصار الدين، وحملة الرسالة ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: ذو العطاء والكرم الذي لا حد له، وقد ورد هذا الاسم ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في ستة مواضع من القرآن، و «ذو»

---

(١) رواه البخاري (٤٦١٥)، ومسلم (٢٥٤٦).

بمعنى صاحب، وأكثر استعمالها في العربية أنها لا تضاف إلا لما له شأن.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تمدُّح الرب سبحانه ببعث الرسل لهداية الخلق، ويَخص في هذه الآيات بعثَه لمحمد خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام.

٢- أن بعثة محمد ﷺ نعمةٌ عظمى على من آمن به في حياته ﷺ، وعلى من لحق بهم ممن جاء بعدهم من سائر الناس إلى يوم القيامة.

٣- في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦]، وفي آية آل عمران هذه تخصيص لهذه النعمة بالمؤمنين.

٤- أن النبي ﷺ كان أميًا، ففي الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٥- أن الغاية من بعث الرسول ﷺ أن يتلو عليهم آيات القرآن، ويزكيهم ويعلمهم.

٦- أن ذلك كله سبب لاهتداء من شاء الله هدايته.

٧- إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى.

٨- عظم المنة بالتحول من الضلال إلى الهدى.

٩- أن الناس كانوا قبل البعثة في جاهلية جهلاء.

١٠- شمول النعمة لمن لحق بالسابقين من المهاجرين والأنصار من الذين اتبعوهم بإحسان.

١١- أن الدعوة إلى الله تكون بتلاوة القرآن وبالتعليم.

١٢- ضرورة الإنسان إلى التزكية.

١٣- أن دعوة الرسول ﷺ سبب لمن شاء الله له التزكي.

١٤- إثبات اسمين من أسمائه تعالى: العزيز والحكيم، وإثبات صفتي العزة والحكمة.

١٥- أن الإيمان والعمل الصالح فضل من الله يؤتيه من يشاء، وهذا معنى الاصطفاء، قال تعالى: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى.

١٧- الرد على القدرية في نفيهم عموم المشيئة.

١٨- أن من أسماء الله: ذا الفضل العظيم.

ولما ذكر الله أنه أرسل رسوله في الأميين في وقته ومن سيلحق بهم إلى يوم القيامة؛ ذمَّ اليهود الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ إذْ تركوا العمل بالتوراة، ولم يعبؤوا بما فيها من الآيات الدالة على صدق نبوته وصحة رسالته، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآية مثل سوء ضربه الله لليهود، وهو أن مَثَلهم بترك العمل بالتوراة التي كلفوا بالعمل بها مثل الحمار الذي يحمل أسفارا فيها علوم لا ينتفع بها.

۞ التفسير:

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ أي: صفة الذين حُمِّلوا التوراة، وتقدم أن لفظ المَثَل في القرآن يأتي على وجهين:

الأول: المَثَل بمعنى الصفة، كقوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: صفة الجنة ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الرعد: ٣٥]، ومنه هذه الآية التي نحن بصددها.

الثاني: المَثَل بمعنى الصفة الغريبة التي يتوصل إليها بطريق التشبيه البديع، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وكقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾.

ولضرب المثل فوائد، منها: حصول العظة والعبرة، وتقريب المعاني المعقولة للأفهام بتشبيهها بالمحسوسات. وغير ذلك.

فقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ أي: صفة الذين حُمِّلوا التوراة، فالله يخبر عن اليهود الذين حُمِّلوا التوراة، وهي الكتاب المنزل على موسى ﷺ، وهي أفضل الكتب السماوية بعد القرآن، وهي معتمد أنبياء بني إسرائيل في الحكم والدعوة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله: ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ أي: كُلِّفوا العمل بها والقيام بما فيها من الأوامر والنواهي ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا ﴾ أي: أعرضوا عنها، ولم يعملوا بها، والعطف بـ«ثم» يدل على أنهم كفروا بعد تأمل ونظر، وذلك أعظم ممن كفر بالكتاب قبل أن يتأمله ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾ وهو أبلد الحيوانات ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ أي: كتبا، جمع سِفر، كشِبْر وأشبار، سميت بذلك لأنها تُسفر ـ أي: تكشف ـ عمَّا فيها من المعاني إذا قرئت، ومنه: سفَرت المرأة، إذا كشفت عن وجهها، وقوله: ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ الجملة حال من الحمار؛ لأنه معرفة، هذا هو الأظهر، وقيل: الجملة في محل صفة للحمار؛ لأنه لا يراد به حمار معين، بل المراد به الجنس، فهو معرفة لفظا نكرة معنى، فيكون المعنى: كمثل حمار يحمل أسفارا، فاليهود الذين عندهم التوراة ولا يعملون بها، ولا يحلون حلالها ولا يحرمون حرامها، ولا يؤمنون بأخبارها، كمثل حمار يحمل كتبا فيها علوم، ومعلوم أنه لا يدري ما فيها، بل حظه التعب والنصب، فهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، وهو تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع به مع الكد والتعب في استصحابه والعناية به، وفي هذا التشبيه تقبيح لليهود، وكشف عن طباعهم، وعن بلادة حسّهم، وعن قبولهم الهوان والذلّة، وأنهم في هذه الدنيا أشبه بالحمر

المسخرة للركوب، ولهم في الآخرة عذاب النار، قال القرطبي: «في الآية تنبيه لمن منَّ الله عليه بحمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه، وأن يعمل به؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»(١).

ثم ذمَّ الله المثَل، والمراد ذمُّهم هم، وذلك أبلغ؛ فقال تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بئس فعل ماض جامد للذم، والفاعل ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾، و﴿ ٱلَّذِينَ﴾ صفة للقوم، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: هذا المثَل.

المعنى: قبُح مثَلُ اليهود المكذبين بآيات الله المحرفين لكتبه، ومثلهم المقبوح هو الحمار الذي يحمل أسفار العلم، وليس له منها إلا العناء، فحال هذا الحمار هي صفة اليهود الأراذل إخوان القردة والخنازير، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هي آيات التوراة الشاهدة بصدق رسالة نبينا محمد ﷺ، وهذا المثل وإن كان في اليهود فهو عام لجميع علماء السوء لاشتراكهم معهم في وجه الشبه، وهم الذين مثَّلهم الله بالكلب الذي لا ينقطع لهثه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] الآيات.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم لقبول الحق واتباعه، وهذا عموم يشمل اليهود وغيرهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- التحذير من مشابهة اليهود في عدم العمل بالعلم.

٢- أن من طرق البيان ضربَ الأمثال.

٣- تقريب المعقول بالمحسوس.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٤).

٤- إثبات العمل بالقياس.

٥- أن الحمار أبلد الحيوان.

٦- في الآية مشابهة لآية الأعراف التي فيها تمثيل عالم السُّوء بالكلب، وهي في اليهود أيضا.

٧- أن هذا المثل مَثَلُ سَوء.

٨- أن وجه الشبه في المثل: الشقاءُ مع عدم الانتفاع.

٩- أن من لم يعمل بعلمه بمنزلة المكذِّب.

١٠- أن عدم العمل بالعلم ظلمٌ، وسببٌ للحرمان من الهداية ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

١١- أن المقصود من كتب الله المنزلَّة العلمُ بمعانيها، والعمل بشرائعها.

١٢- أن الهدى والضلال إلى الله تعالى؛ ففيها:

١٣- الرد على القدرية.

كان اليهود - وإلى اليوم - يدَّعون أنهم أولياء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة أحدٌ سواهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]؛ فأنزل الله تحديهم بهذه الآيات:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات إفحام اليهود وإبطال دعواهم أنهم أولياء لله من دون الناس، وذلك بدعوتهم لتمني الموت، وفيها: الخبر بعدم استجابتهم لما دُعوا إليه من تمني الموت، بسبب ما قدموه من سيء الأعمال، ثم الخبر بلزوم الموت للناس، فلا مفر منه، وبه يُردُّ العباد إلى ربهم عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل لهؤلاء الذين ذُكرت صفتهم، وابتداء الآيات بالفعل «قل» له فوائد، منها:

١. الإشارة إلى أهمية ما بعده من الكلام.

٢. تنبيه المخاطب وطلب إقباله.

٣. أن القرآن كلام الله لا كلام محمد ﷺ.

٤. تشريف النبي ﷺ بخطاب الله إياه.

٥. تأييد الله لنبيه ﷺ بالحجج.

٦. أن النبي ﷺ عبد مأمور لربه، وهو مع ذلك مشرَّف بالرسالة.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ أي: دانوا باليهودية ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ﴾ أي: إن ادعيتم ﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ أي: أحباؤه، ولم يقل: أولياء الله بالإضافة، للفرق بين مدعي الولاية والوليِّ الحقيقي، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: منفردين وحدكم بهذا الحكم دون الناس جميعا ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: اطلبوه وسلوا الله أن يميتكم، وصيغة الأمر مستعملة في التعجيز والسخرية، أي: إن كنتم أولياء الله حقًّا وصائرين إلى الجنة ـ كما تقولون ـ فاطلبوا الموت لتنتقلوا من دار الكدر والشقاء إلى دار النعيم والبقاء، ثم إن المحب يحب أن يظفر بمحبوبه، ويشتاق إلى لقائه، ثم أكَّد التحدي والتعجيز بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في حب الله لكم فتمنوا الموت لتصيروا إلى ما صار إليه أولياء الله، ولكن اليهود يعلمون أنهم كاذبون في هذا الزعم، ولهذا قال سبحانه فاضحا لهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ أي: لا يسألون الموت أبدا، وهذا إخبار بالغيب، فهو معجزة له ﷺ، وعلم من أعلام نبوته، إذ لم يتمن أحد منهم الموت، ولو لتكذيب ما أخبر الله به عنهم، لأنهم كانوا موقنين بصدقه ﷺ، فعلموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم، قال ﷺ: «**لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار**»(١)، وثبت عن

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٢٥) ط. الرسالة، قال محققوه: «إسناده صحيح»، والبزار (٢١٨٩- كشف الأستار)، وأبو يعلى (٢٦٠٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٨): «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح».

ابن عباس أنه قال: لو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على ظهر الأرض يهودي إلا مات[1]، وهذا التحدي والتعجيز لليهود بتمني الموت باقٍ إلى يوم القيامة، شأن كل تعجيز وتحدٍّ وارد في القرآن.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] فجيء بـ«لن» التي هي أبلغ في نفي الاستقبال؛ لأن دعواهم هناك أعظم، وهي الجنة خالصة لهم من دون الناس، وقال بعض: إن «لن» مثل «لا» في نفي المستقبل من غير تأكيد، فيكون هذا الاختلاف من باب التنويع في العبارة. والله أعلم بمراده.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: بسبب ما قدمت ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والعصيان وتحريف الآيات، وأسند الفعل للأيدي لأن اكتساب أكثر الأفعال يكون بها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: عالم بهم وبما يصدر عنهم، فلا يخفى عليه من فعلهم شيء، وفي هذا تهديد لهم، وفي وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلم يقل: عليم بهم، لنعتهم بالظلم، وهو الكفر، ولتعميم الحكم، فيشمل التهديد كل ظالم.

قوله: ﴿قُلْ﴾ أي: قل لهم أيها الرسول ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي: تهربون منه وتخافون أن تتمنوه بألسنتكم، فالموت الذي فروا منه هو المذكور في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ أي: نازل بكم لا محالة، واقترن الخبر بالفاء لأن اسم «إن» في قوله ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ نُعت بالاسم الموصول «الذي»، وهو متضمّن لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ﴿ثُمَّ

---

(١) رواه عبد الرزاق في التفسير (١/ ٥٢)، وابن جرير (٢/ ٢٦٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٧٧)؛ قال ابن حجر في العجاب (١/ ٢٨٦): «إسناده صحيح».

تُرَدُّونَ﴾ أي: ثم ترجعون بعد الموت إلى الله، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأنعام: ٦١-٦٢]، وفي قوله ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ تنبيه على طول مقامهم في دار البرزخ، كما يشير إليه حرف العطف «ثم» الدال على التراخي.

وقوله: ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: إلى الله عالم الغيب، وهو كل ما غاب عن مدارك العباد مما لا يحسونه ولا يعلمونه ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أصل معنى الشهادة هو الحضور، والمراد بها هنا الشيء الحاضر المشاهد، فالمعنى أنه تعالى محيط علمه بكل شيء مما نراه وما لا نراه، كما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وفي ذكر العلم هنا تنبيه على الجزاء، ولذا قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ أي: بالذي كنتم ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه.

۞ الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى أصل تسمية اليهود وهو قولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٢- فخر اليهود على الناس بدعوى الولاية لله.

٣- أن دعواهم الولاية تستلزم أنهم أحق بالجنة من سائر الناس.

٤- فيها شاهد لآية البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٣-٩٤].

٥- إكذاب الله لهم بإبطال دعواهم لتمني الموت، وأنهم لن يتمنوه.

٦- أن الذين ادعوا الولاية من اليهود لم يتمن أحد منهم الموت، ففيه:

٧- عَلَم من أعلام نبوته ﷺ.

٨- التحذير من الفخر بالباطل، وهو أقبح الفخر.

٩- عِلْم الله بأعمال العباد ما كان منها وما يكون.

١٠- أن دعوى اليهود هذه نوع من ظلمهم.

١١- تهديد الله لليهود على ظلمهم بذكر علمه بهم.

١٢- أن من طبع الإنسان الفرار من الموت.

١٣- أن فرار الإنسان من الموت لا ينجي منه، فهو مدركه لا محالة، بل قد يصادفه فيما فرَّ إليه.

١٤- أن الموت رجوع إلى الله.

١٥- إثبات البعث والجزاء.

١٦- أن من أسماء الله: عالم الغيب والشهادة.

١٧- أن من صفات الله علمه بالغيب والشهادة.

١٨- أن كل إنسان سينبئه الله بما عمل في الحياة الدنيا.

لما قبّح الله حال اليهود في إيثار الدنيا على الآخرة، مما حملهم على التكذيب بآيات الله، مع الاغترار بأنفسهم، وأبطل دعواهم الولاية؛ أمر الله المؤمنين بالسعي إلى ذكره يوم الجمعة الذي خصَّ الله به هذه الأمة، وأضل عنه اليهود والنصارى، وأمَر المؤمنين بترك عرَض الدنيا العائق لهم عن ذكر الله، وأخبر أن ذلك خير لهم، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ
وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ
تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الأمر من الله للمؤمنين أن يسعوا إلى صلاة الجمعة وخطبتها، وذلك إذا نودي للصلاة مع ترك ما يشغل عنها كالبيع والتجارة، وبعد انقضاء الصلاة ندب سبحانه إلى الانتشار لطلب فضل الله، مع الإكثار من ذكره تعالى، وفي الآية الثالثة عتْب من الله للذين انفضُّوا عن النبي ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة، لما سمعوا بمقدم عِير تحمل تجارة، وأخبر أن ما انفضُّوا عنه خير مما انفضوا إليه، والله خير الرازقين.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان به وبرسوله

﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أذن المؤذن للصلاة ﴿مِن يَوْمِ﴾ «مِنْ» بمعنى في، أي: في يوم الجمعة، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠]، أي: في الأرض، والجُمُعة اسم مصدر بمعنى الاجتماع، سميت بذلك لأن المسلمين يجتمعون في يومها للصلاة، وقيل: لأن الله تعالى فرغ فيه من خلق جميع الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات، ويوم الجمعة يوم عظيم عند الله، وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»**(١)، وفي المسند والسنن: **«وفيه تقوم الساعة»**(٢)، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: **«فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي ـ أي: يدعو ـ يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه»**(٣).

وقد أكرم الله هذه الأمة بهذا اليوم العظيم، كما قال عليه الصلاة والسلام: **«أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»**(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ﴾ المراد النداء الثاني، وهو الذي يكون بين يدي الإمام إذا خرج إلى الصلاة وجلس على المنبر، وهو الذي يحرم بعده البيع، وقد مضت السنة على عهد رسول الله ﷺ وعهد أبي بكر وعمر وليس للجمعة إلا أذان

---

(١) صحيح مسلم (٨٥٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (٣/ ١١٥). قال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) رواه مسلم (٥٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٨٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٥٥٢) عن أبي حذيفة رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

واحد، ثم لما كثر الناس وتباعدت المنازل رأى عثمان ﷺ أن يكون للجمعة أذان أول ليتأهب الناس للصلاة، وكان ذلك بمحضر الصحابة، فأقروه على ذلك، فكان سنة، ويؤيده قوله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**»[1]، وفي صحيح البخاري عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أولُه إذا جلس الإمام على المنبر، على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ﵄، فلما كان عثمان ﷺ وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء[2]، وتسميته بالثالث تجوُّزا، وذلك بالنظر إلى الإقامة؛ فإنها تسمى أذانا تغليبا، وفي رواية الطبراني عن السائب: «حتى إذا كان عثمانُ كثر الناس، فأمر بالنداء الأول بالسوق»[3].

وقوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فامضوا إلى سماع الخطبة وإلى الصلاة، فذكر الله شامل لهما، وإطلاق ذكر الله على الخطبة والصلاة من تسمية الشيء بأشرف أجزائه، والسعي مجاز عن الحرص والاهتمام للجمعة، وليس المراد به الإسراع في المشي؛ لأن ذلك منهي عنه، قال ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون عليكم السكينة...**» الحديث[4].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ دليل على فرض الجمعة على الأعيان، ويستثنى من الخطاب بحسب الأدلة من لا تجب عليه الجمعة كالمريض والعبد والمسافر والمرأة والصبي، قال

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٧١٤٢)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)؛ من حديث العرباض بن سارية ﷺ، قال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال محققو المسند: «حديث صحيح بطرقه وشواهده».

(٢) البخاري (٨٧٠)، وقال: «الزوراء موضع بسوق المدينة».

(٣) المعجم الكبير (٧/ ١٧٣ رقم ٦٦٤٢).

(٤) رواه البخاري (٨٦٦)، ومسلم (٦٠٢)؛ عن أبي هريرة ﷺ.

العلماء: ومن حضرها منهم أجزأته ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ الخطاب للبائع والمشتري، والأمر للوجوب، وهو أمر بالترك، وهو معنى النهي، أي: اتركوا البيع والشراء وغيرهما من سائر المعاملات كالإجارة والرهن مما يشغل عن الصلاة والخطبة، ويكون سببا إلى فواتهما، أو فوات بعضهما، وإنما خُص البيع من بين سائر العقود لأنه أكثرها وقوعا، واهتمام الناس بالتجارة في هذا اليوم أكثر؛ لتوافدهم من الحواضر والبوادي.

وذهب كثير من العلماء إلى أن البيع بعد النداء الثاني لا يُفسد العقد؛ لأن النهي عن البيع لم يحرم لعينه، ولكن حرم لما يخشى من تفويت الصلاة، فهو يشبه الصلاة في الأرض المغصوبة، والوضوء بالماء المغصوب. وذهب الحنابلة ـ وهو مشهور مذهب المالكية ـ إلى أن البيع لا يصح؛ للنهي عنه، والنهي يقتضي الفساد.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المذكور من السعي إلى المسجد وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فما عند الله خير وأبقى، وأصل «خير»: أخْير، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وظهور الهمزة فيها قليل، ومنه قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنهم لأخيرُ منهم**»(١)، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ذلك حقَّ العلم فافعلوه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تفرقوا لتحصيل مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾ أي: اطلبوا، والأمر في الفعلين للإباحة؛ لأنه جاء بعد حظر ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعض فضل الله، أي: رزقِه، مما كان ممنوعا بعد الأذان وقبل الصلاة ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: اذكروه تعالى ذكرا كثيرا بألسنتكم وقلوبكم، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للمسلم أن يذكر الله في كل وقت، لا في وقت الصلاة فحسب ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: كي تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٢٢) عن أبي بكرة ﷺ.

ثم أخبر الله عن فريق من الناس معاتبا لهم، وهم الذين انفضوا عن رسول الله ﷺ وهو يخطب على المنبر يوم الجمعة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ أي: علموا تجارة قادمة، والمراد بالتجارة هنا أنواع من السلع تحملها إبل قادمة من الشام؛ فقد أخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة، فجاءت عيرٌ من الشام، فانفتل الناس إليها، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا، فأنزل الله هذه الآية(١)، وقوله: ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ وهو في الأصل كل ما يلهي من متاع الحياة الدنيا وزينتها، والمراد به هنا آلة يُعلن بها عن مقدم التجارة ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: تفرقوا عنك مسرعين إليها، والضمير في ﴿إِلَيْهَا﴾ يعود على التجارة تغليبا لها لأنها هي المقصودة بالذات، والمعنى: انفضوا إليهما، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. أي: ولا ينفقونهما.

وقوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر، وإسناد الترك إلى الكل مجاز؛ لأن الذين انفضوا ليسوا كلّهم ﴿قُلْ﴾ لهم أيها النبي ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الذي عند الله من الثواب ونعيم الجنة، وذكر العندية يدل على عظم ثوابه تعالى كمًّا وكيفًا ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: خير مما تصيبونه من لهو الحياة ومتاعها، وقدم اللهو هنا لأنه في مقام ذم وتنقيص، خلافا للموضع الأول فقد قدمت التجارة لأنها السبب في انفضاض القوم، فهي الأهم عندهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: خير من يرزق ويعطي؛ لأن عطاءه تعالى لا حدود له، فاطلبوا منه الرزق وحده.

۞ الفوائد والأحكام:

١ - تكريم المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب، وهو في هذا الموضع خاص بالرجال.

---

(١) رواه البخاري (٤٦١٦)، ومسلم (٨٦٣).

٢- أن الإيمان يقتضي من صاحبه الاستجابة لله ولرسوله ﷺ.

٣- مشروعية النداء لصلاة الجمعة.

٤- وجوب صلاة الجمعة على كلٍّ من قامت به شروط الوجوب.

٥- أن روح الصلاة ومقصودها ذكرُ الله.

٦- تحريم البيع يوم الجمعة بعد النداء الثاني على من تجب عليه الجمعة.

٧- أن السعي يوم الجمعة إلى الصلاة وشهود الخطبة خيرٌ من منافع الدنيا.

٨- أن خطبتي الجمعة قبلها؛ لقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩- مشروعية الخطبة، والقيام فيها.

١٠- وجوب استماع الخطبة، وتحريم الخروج والإمام يخطب من غير عذر.

١١- إباحة البيع والشراء يوم الجمعة بعد الصلاة.

١٢- أن طلب الرزق بالأسباب المباحة مشروع، وجوبا أو استحبابا.

١٣- أن ما يحصل من رزق هو من فضل الله.

١٤- الندب إلى كثرة ذكر الله في حال التجارة.

١٥- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

١٦- أن كثرة ذكر الله من أسباب الفلاح.

١٧- لومُ الله للذين انفضوا عن النبي ﷺ وهو يخطب، طلبا للتجارة وزيادة الربح.

١٨- أن ما عند الله من الأجر خيرٌ وأبقى من متاع الدنيا.

١٩- إثبات عندية المِلك والضمان؛ لقوله: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- أن الله خيرُ الرازقين.

٢١- أن العباد يوصفون بالـرَّزق؛ كولـيِّ اليتيـم، وقاسـم المـال، قـال تعالـى: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٥]، وقال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء: ٨]، والله خير من جميع الرازقين، وتظهر هذه الخيرية في الرزق كمًّا وكيفا.

٢٢- جواز وصف الله بأفعل التفضيل، كخير وأحسن وأرحم.

٢٣- إثبات اسـمه تعالى «الرازق»، واسـمه: «خير الرازقين»، ومن أفعاله: الرَّزق، والخلق، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠].

سُورَةُ المنَافِقُونَ

سورة المنافقون مدنية، وآياتها إحدى عشرة، تضمَّنت الآيات الثمان الأولى الإخبار عن أقوال المنافقين وأفعالِهم وأحوالِهم، وتكذيبِ الله لهم، وتقبيح بواطنهم، وبيانِ حقيقة أمرهم، وسوء عاقبتهم، وفرط جهلهم وضلالهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كما تضمنت الآيات الثلاث في آخر السورة الإرشاد من الله للمؤمنين بنهييهم عن اللهو بالأموال والأولاد عن ذكره، وأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن ينزل الموت بهم، فيندموا على ما فات، ويتمنوا الرجعة، وهيهات! ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية الإخبارَ عن دعوى المنافقين الإيمان بالنبي ﷺ، وإكذابَ الله لهم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ جمع منافق، وهو من يظهر الإيمان ويبطن الكفر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، والنفاق لفظ شرعي، ولا يعرف هذا الاسم في اللغة، وهو مأخوذ من نافِقاء اليَرْبُوع، وذلك لأن اليَرْبوع لجحره بابان، أحدهما يسمى النافِقاء، فإذا طُلب من أيِّهما خرج من الآخر، وسمي المنافق بذلك ـ وإن كان كافرا ـ لأنه وضع لنفسه طريقين: إظهار الإسلام، وإضمار الكفر، فالمنافقون مع المسلمين بظواهرهم، ومع الكفار ببواطنهم، فهم مع كلِّ فريق تكون له الدولة والصولة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء: ١٤١]، وما فعلوا ذلك إلا كيدا للإسلام وأهله، وخوفا على أنفسهم وأموالهم، كما قال الأول:

وما انتسبُوا إلى الإسلامِ إلَّا لِصَوْنِ دِمائهم ألَّا تُسَالا

يدل لذلك أن النفاق إنما ذرَّ قرنُه في المدينة بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى، وصار للإسلام شوكة وعزٌّ وقوة، وأغلب المنافقين من أولياء اليهود من الأوس والخزرج، ومن اليهود من نافق.

قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي: إذا أتاك المنافقون وحضروا مجلسك، كعبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه، و«إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان مضمَّن معنى الشرط، جوابُه: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنهم مؤمنون حقًّا، فهذا قولٌ بألسنتهم فقط، فلا يواطئ ما في قلوبهم من الكفر والتكذيب، ويبدو من ظاهر الآية أن المنافقين على خوف من انكشاف أمرهم، فحالهم كما قال الشاعر:

شهدَتْ عليهِ بهِ شواهدُ ريبةٍ وعلى المُريبِ شواهدٌ لا تُدفعُ

ولذا جاؤوا بثلاثة مؤكدات في كلامهم، هي:

الأول: لفظ الشهادة الذي يجري مجرى اليمين من جهة التأكيد، وإن لم يعط أحكام اليمين؛ لأن المشاهدة ـ وهي المعاينة ـ أقوى طرق العلم، فإذا قال العربي: أشهد أن فلانا حضر، فهو يقارب أن يقصد القسم فيما يقول.

الثاني والثالث: «إنَّ» المؤكِّدة، واللام المزحلقة في الخبر ﴿لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي: والله يعلم أنك رسوله؛ لأنه الذي أرسلك، وكفى به شهيدا، وهذه الجملة والتي بعدها من كلام الله؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل؛ فإن في كلام المنافقين ما هو حق، وهو قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وباطل، وهو قولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾، وقد عُلّق الفعل ﴿يَعْلَمُ﴾ عن العمل لوجود «إنَّ» التي اقترن خبرها بلام التأكيد.

وقد أكذب الله المنافقين في شهادتهم لأنفسهم بالإيمان برسالة النبي ﷺ

بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: راسخون في الكذب؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وحقيقة الإيمان أن يواطئ القلب اللسان؛ فمن أخبر بشيء وهو يضمر خلافه فهو كاذب، فتبين بذلك أن جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ معترضة بين قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وبين تكذيبه تعالى لهم، وهي من البلاغة بمكان؛ ففيها إظهار العناية بحفظ مقام النبي الأكرم ﷺ؛ إذ لو لم تأت هذه الجملة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ لتوهم أن الحكم بتكذيب المنافقين منسحب أيضا على الرسالة من أصلها، أي: يشمل المشهود به والشهادة نفسها، بينما المراد بالآية تكذيب شهادتهم فحسب لا ما شهدوا به؛ فإنه حق، كما تقدم. واستحسن ابن جزي أن يقف القارئ على قوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ لأن هذا مقول قولهم[1].

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إظهار في مقام الإضمار؛ إذ لم يقل: والله يشهد إنهم؛ وفائدته تأكيد ذمِّهم، وفيه الدلالة على أن النفاق هو سبب كذبهم وتكذيبِ الله لهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن من أصناف الناس: المنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وهم أحد الأصناف الثلاثة، والآخران هم المؤمنون والمشركون، كما قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

٢- أن المنافقين يُظهرون الإيمان بالرسول ﷺ إذا حضروا عنده، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ٣٨٣).

٣- مبالغة المنافقين في الكذب؛ إذْ أتوا بلفظ الشهادة وبمؤكدات الخبر.

٤- شعورهم بتكذيب النبي ﷺ لهم؛ ففيها معنى قول القائل: كاد المريب يقول: خذوني.

٥- أن من البلاغة وحسن البيان الاعتراضَ للاحتراس؛ لما قد يتوهم من الباطل في بعض الكلام، وذلك في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

٦- شهادة الله بأن محمدا رسوله.

٧- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ [يس: ١-٣].

٨- أن من البلاغة في الكلام: المغايرة في اللفظ لتأكيد المباعدة بين الضدين، فإنه تعالى قال في شهادته: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، ولم يقل في الرد عليهم كما قال المنافقون: ﴿نَشۡهَدُ﴾.

٩- إكذاب الله للمنافقين في دعواهم الإيمان بالرسول بصيغة الخبر المؤكَّد: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

١٠- أن الكذب هو عدم مطابقة الخبر للواقع لا للاعتقاد، خلافا للمعتزلة؛ لأن قول المنافقين: ﴿نَشۡهَدُ﴾ خبر عن اعتقادهم أن محمدا رسول الله، وهو غير مطابق للواقع؛ فإنهم لا يشهدون.

ثم أخبر الله عن بعض صفات المنافقين، فقال:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان جملة من صفات المنافقين، وذمَّ الله لهم بقبيح أقوالهم وأحوالهم، وسوءِ عاقبتهم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ الأيمان: جمع يمين، وأصله العضو الذي هو اليد اليمنى، واستعملت في الحلف مجازًا لما جرت عادة المتعاقدين بتصافح أيمانهم لتأكيد الصفقة، والمقصود من الحلف التأكيد. المعنى: أن المنافقين جعلوا أيمانهم الفاجرة ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقاية وسُترة على أنفسهم وأموالهم، مثل حلفهم بالله إنهم لمنكم، فإنهم كلما اطَّلع المسلمون على خبيئة لهم من النفاق أقسموا أنهم برآء منه، كما قال تعالى خبرا عنهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤]، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ﴾ [التوبة: ٩٦]، وهذه الأيمان منهم غير الشهادة المذكورة في أول السورة، فيكون هذا عيبا آخر، وذلك على أسلوب الترقي في الذم.

قوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الفعل «صدَّ» يأتي متعديا ولازما، يقال: صدَّه عن الأمر صدًّا، أي: منعَه، فهذا متعدٍّ، وصدَّ عنه صدودا، أي: أعرض عنه، وهذا هو اللازم، وقوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يحتمل المعنيين اللازم والمتعدي،

أي: صدوا بأنفسهم وصدوا غيرهم عن الإسلام وعن الجهاد وعن الإنفاق، كما حكى الله عنهم بعدُ، وهذه الأعمال أسوأُ ما تكون قبحا، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ «سَاء» فعل ماض لإنشاء الذم، أي: قبُح عملهم، وبلغ الغاية في السوء والفساد؛ إذ اختاروا الكفر على الإيمان، و«ساء» يجري مجرى بئس في إفادة الذم، ومع ذلك ففيه معنى التعجيب وتعظيم أمرهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: كلُّ ما تقدم من الشهادة والأيمان الكاذبة والصد عن سبيل الله والوصف لعملهم بالسوء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ظاهرا بألسنتهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ باطنا، أي: استمروا على كفرهم، فـ«ثم» عاطفة للترتيب الإخباري؛ لأن الكفر كان مرادفا لادعاء الإيمان لا بعده، ويحتمل أن يكون المعنى: آمنوا إيمانا حقيقيا ثم كفروا بعد ذلك، فتكون «ثم» للتراخي الزماني، وهؤلاء صنف من المنافقين.

وفي الآية دليل على أن المنافقين كفار ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: خُتم عليها جزاءً على نفاقهم وكفرهم، فلا يدخلها إيمان ولا تستجيب له، فلما لم يكن لديهم رغبة في الخير عاقبهم الله بالختم على قلوبهم حتى يموتوا على الكفر، والفاء في قوله: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ سببية، أي: فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الفاء سببية أيضا، أي: فهم بسبب ذلك الطبع ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون شيئا من أمر الإيمان فلا يرغبون فيه.

۞ الفوائد والأحكام:

١- كثرة الحلف عند المنافقين.

٢- اتخاذهم أيمانهم تَقيَّة من المؤمنين.

٣- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]،

وقوله: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٦].

٤- أن قبول المؤمنين لأيمانهم معاملةً لهم في الظاهر أوجب لهم التمادي لهم في الصدود عن دين الله والصد عنه.

٥- ذمُّ الله لطريقة المنافقين بالكذب على المؤمنين والصدود عن الدين؛ ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٦- أن من المنافقين من دخل في الإيمان صادقا ثم كفر.

٧- أن من عقوبة الله لمن كفر بعد الإيمان الطبعَ على قلبه، فلا يرجع إلى الإيمان.

٨- أن من طُبع على قلبه لا يفقه سوء حاله ولا قبيح فعاله، ولا يميز ما يضره مما ينفعه.

٩- تصريف الله لقلوب العباد بالهدى والإضلال، والزيغ والتثبيت.

١٠- أن كفر المرتد أغلظُ من كفر الكافر الأصلي.

قال تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية ذكر صفات بعض المنافقين الخَلْقية؛ كحُسن الصورة وفصاحة اللسان مع قبح الطويَّة، وبعض صفاتهم الخُلُقيَّة كالجبن وعدم النفع، فلذا استحقوا من الله قوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وهو عام لكل من له عينان وله عقل وعلم يفهم به الخطاب، أي: إذا رأيتهم أيها الرائي ببصرك ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ أي: هيئاتهم ومظاهرهم لجسامتهم وصباحة وجوههم، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كانوا رجالا أجملَ شيء[1].

قوله: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: لفصاحتهم وحلاوة حديثهم، وقد يصدَّقون لذلك وهم كاذبون، والفعل «تَسْمَعْ» مضمَّن معنى تُصغِي، فلذا عدِّي باللام ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي: هم بلا علم ولا فهم، لهم جمال في المنظر وقبح في المخبَر، فقلوبهم خاوية من الإيمان، والخُشُب جمع خَشَبة مثل بُدُن جمع بَدَنه، وفي وصفهم بالخُشُب المسنَّدة ذمٌّ لهم؛ لأن الخُشُب لا ينتفع بها إلا إذا كانت مغروزة في جدار ونحوه، أو كانت دعامة لسقف، أما إذا كانت مسنَّدة فلا نفع فيها، بل يخشى ضررها بسقوطها، وكذلك المنافقون لا خير فيهم، بل فيهم

(١) رواه البخاري (٤٦٢٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

شر وخيانة، كيف وقد قال تعالى بعدُ: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾؟!

قولـه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: يظنـون ـ لهلعهم وجبنهم ـ كلَّ صيحة ـ أي: صوت مرتفع ـ واقعةً عليهم، ولو كان الصوتُ لا خطر فيه، كنشـدان الضالة، فيظنون أن المسـلمين سيبطشـون بهم، فـ«عليهم» مفعول ثان لـ«يحسبون»، ولهذا يحسـن الوقـوف على قولـه: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ لتمام الـكلام ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ أي: هم الأعداء الكاملـو العـداوة للرسـول وللمؤمنين، وهم على قلب واحد فـي عداوتهم، ولهذا قـال تعالـى: ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ أي: احـذر أن تثق بقولهم، أو تميل إلـى كلامهم، واحذر ميلهـم إلى أعدائـك؛ فإن أعدى الأعداء من يداريك ويبتسـم في وجهك، وصدره مملوء حقدا وعداوة.

قولـه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: لعنهـم الله وطرهـم مـن رحمتـه، وهـذا دعاء شـديد يتضمـن تقبيحهـم ووعيدهـم ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيـف يصرفـون عـن الحـق مـع وضوحـه إلـى ما هم فيه من الضلال والنفاق؟! يقـال: أَفَكَه إذا صَرفه وأبعَده، وفي الآية تعجب وتعجيب من حالهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن حسن الصورة وحسن البيان لا يدل على الخيرية.

٢- في الآية شاهد لقوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»(١).

٣- فيها شـاهد لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] الآيات.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- أن من الصفات الذميمة: الجبن الذي يصيِّر صاحبه في فزع دائم؛ ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾.

٥- أن من الصفات الذميمة أن يكون الإنسان بحيث يُخاف شره، ولا ينتفع به، كالخشبة المسندة غير منتفع بها، ويُخشى سقوطها على من قرب منها.

٦- أن من أحسن طرق البيان: تشبيهَ المعقول بالمحسوس.

٧- أن عداوة المنافقين للمؤمنين أشدُّ من عداوة الكافرين المعلنين؛ لقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾.

٨- وجوب الحذر من المنافقين.

٩- تقبيح حال المنافقين بالدعاء عليهم.

١٠- التعجب من سوء صنيع المنافقين.

١١- إثبات العَجَب من الله، لقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، وقد جاء صريحا في قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴾، بضم التاء، على قراءة حمزة والكسائي وخلف.

١٢- أن الحق ظاهرٌ ببراهينه، لا ينصرف عنه إلا من أعمى الله بصيرته.

ولما ذكر الله صفات المنافقين القبيحة أتبع ذلك بذكر أفعالهم وأقوالهم الذميمة، فقال سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان الإخبار عن استكبار المنافقين بظواهرهم وبواطنهم عن طلب الاستغفار لهم من النبي ﷺ، وأن استغفار النبي ﷺ لهم وعدمه سواء؛ فإن الله لن يغفر لهم؛ لأنهم قوم فاسقون.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: إذا قال للمنافقين أيُّ قائل كان من المؤمنين ناصحا لهم: ﴿تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: هلموا إلى رسول الله تائبين يطلبْ لكم المغفرة من الله لما بدر منكم من الأقوال القبيحة ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جواب الطلب مجزوم ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: حركوها وهزوها استهزاء واستكبارا، وهذه عادة المصرِّ على الشر ﴿وَرَأَيْتَهُمْ﴾ أي: رأيتهم أيها الرائي، والخطاب لكل أحد، والرؤية بصرية ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: يعرضون عن القائل وعن طلب الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: مبالغون في التكبر عن قبول الحق وعن الامتثال للناصح، والمضارع في ﴿يَصُدُّونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على الإعراض والعناد، ولهذا أخبر الله أن الاستغفار لا ينفعهم، فقال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ «سَوَاءٌ» خبر

مقدم و«عَلَيْهِمْ» متعلق بسواء، والمبتدأ ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: سيانِ عند هؤلاء المنافقين استغفارُك لهم وعدمه، فهو لا يجديهم عند الله شيئا، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله، وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر الآية يفيد أن استغفار النبي ﷺ لهم وعدمه سواء عند المنافقين؛ لعدم إيمانهم ولاستكبارهم، فلا يرون بأنفسهم حاجة إلى استغفار النبي ﷺ لهم، ونظير هذه الآية على هذا الوجه قوله تعالى عن قوم هود: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [هود: ١٣٦] أي: وعظك وعدمه عندنا سواء، وأفادت الآية أيضا أن استغفاره ﷺ للمنافقين وعدمه سواءٌ عند الله؛ فلن يغفر الله لهم، ولو استغفر لهم سبعين مرة، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

والهمزة في قوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ استفهامية للتسوية، استغني بها عن همزة الفعل «استغفر»، و«أَمْ» هي المتصلة، وهي حرف عطف ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ استئناف مسوق لتوكيد ما قبله، وفيه تيئيس من إيمانهم، وفي «لن» من مزيد توكيد النفي على أخواتها من حروف النفي ما لا يخفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الراسخين في الفسق، وهو الكفر، وهذا تعليل لانتفاء مغفرة الله لهم، المعنى: أنه لا يوفقهم للإيمان لسبق الشقوة عليهم، فالمراد بالهداية هداية التوفيق.

۞ الفوائد والأحكام:

١- زهد المنافقين في الخير.

٢- أن من خصال المنافقين الاستكبار عن الحق.

٣- أن الكبر وإن كان أصله في القلب فإن أثره يظهر على الجوارح؛ كتصعير

الخد، والخيلاء في المشي، والإعراض عن داعي الحق بليِّ الرأس بالالتفات إلى الشق الآخر.

٤- أن استغفار النبي ﷺ مطلب للمؤمنين، وقد أمر الله به نبيه في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

٥- أن استغفار النبي ﷺ سببٌ لحصول المغفرة للمستغفَر له، ولكن شرط ذلك قبول المحل، فلذلك لا ينفع المنافقين، ولا يجوز الاستغفار للمشركين.

٦- أنه مهما استغفر النبي ﷺ لمن ليس أهلا للاستغفار؛ فإن ذلك لا ينفعه.

٧- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

٨- حرص النبي ﷺ على نفع الخلق، فهو يستغفر للمنافقين، وإن لم يطلبوا منه ذلك، وإن لم ينفعهم.

٩- وصف المنافقين بالفسوق، وهو الفسوق الأكبر.

١٠- أن أمر الهدى والإضلال إلى الله تعالى.

ثم ذكر الله شيئا من أسباب فسقهم، فقال سبحانه:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآية عن قول لبعض المنافقين في عهد النبي ﷺ، وهو نهيهم أقاربهم من الأنصار أن ينفقوا على من عند رسول الله ﷺ من فقراء المهاجرين حتى ينفضوا عنه، أي: لأجل أن ينفضوا عنه، ويخرجوا من المدينة، ثم يردُّ الله عليهم بأن له تعالى خزائن الأرزاق في السماوات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المنافقون المستكبرون هم الذين يقولون، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، أو لتكرر ذلك منهم، أو هما معا ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قائل هذه المقالة هو عبد الله ابن أبيٍّ ابن سلول، كما ثبت في الصحيح عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبيٍّ يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ. فذكرتُ ذلك لعمِّي أو لعمر، فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه،

فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قطُّ، فجلست في البيت، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولـه: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، فبعـث إلي النبيُّ ﷺ، فقرأ فقال: «**إن الله قد صدقك يا زيد**»(١).

فقائـل هـذه المقالـة: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ واحـد هـو ابـن أبـيٍّ، ولكـن الله أضافهـا إلـى عمـوم المنافقين لأنهـم رضوا بهـا، ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: علـى الذيـن عنـد رسـول الله من المهاجريـن ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ «حتـى» تعليليـة، أي: لأجـل أن يتفرقـوا عنه ولا يصحبوه حيـن لا يجدون قوتهم، والتعبيـر برسـول الله يحتمـل أن يكون من قولهـم، صدر منهم على سـبيل التهكم والسـخرية، كمـا أخبـر الله عـن نظرائهـم الكفار بقولـه: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ويحتمـل أنهم تكلمـوا بغير هذا اللفظ، وأن الله تعالـى هو الذي أخبر عن نبيه بصفة الرسـالة؛ إكرامـا له وإيذانا بعلو منزلته عند ربه، وتأكيدا لتقبيح ما قالوا، ونظير ذلك قوله تعالى في شـأن المسـيح: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فرسول الله ليس من قول اليهود، بل من كلامه تعالى مثنيا على عبده بالرسالة، ومقبِّحا لما راموا وما زعموا من قتله، وهذا من فنون البلاغة، سماه بعضهم الإدماج.

ولقد ردَّ الله على المنافقين، ونقض قولهم الفاسد، فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخزائن جمع خِزانة، والمقصود من خزائن السماوات والأرض مصادر أرزاق العباد وأسبابها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:

(١) رواه البخاري (٤٦١٨ و٤٦١٢ و٤٦٧١)، ومسلم (٢٧٧٢).

٣١]، المعنى: أن لله ـ وحده ـ جميع ما في السماوات والأرض، فمقاليد الأرزاق كلها بيده تعالى، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وليس كما يتوهم المنافقون أن الإنفاق منهم، لجهلهم بالله، وأنهم إذا لم يعطوا المهاجرين فسينفضُّون عن النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لم يقل: ولكنهم، بل أظهر في مقام الإضمار لتعليل الحكم وتعميمه، وهو أنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون حكمة الله وتدبيره، وأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الأنصار كانوا يواسون فقراء المهاجرين من أموالهم.

٢- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩] الآية.

٣- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

٤- أن من صفات المنافقين البخل ومنع الخير.

٥- أن المال به قيام مصالح الدين والدنيا.

٦- أن هؤلاء المنافقين سلفٌ لإخوانهم الكفار والمنافقين في هذا العصر الذين يعملون على إلغاء المؤسسات الخيرية، وهو ما يسمى: تجفيف المنابع.

٧- جهل المنافقين بما عند الله من خزائن الأرزاق وكثرة أسباب الرزق، لذلك ظنوا أن قطع سبب الرزق من جهتهم عن المهاجرين يؤدي إلى

حرمان تام، وهذا منشأ وصفهم بعدم الفقه.

٨- أن من قصور النظر الوقوف مع الأسباب الظاهرة والغفلة عن مسبِّبها، وهو الله ﷻ.

٩- في الآية الإشارة إلى ما يفتحه الله على المؤمنين من أبواب الرزق التي منها الغنائم، وقد وقع ذلك.

قـال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبـر تعالى في هـذا الآية عن مقالة أخرى للمنافقيـن، وهي قولهم في بعض الغـزوات: لئـن رجعنـا إلـى المدينـة ليخرجن الأعـزُّ منهـا الأذلَّ، يريـدون بالأعز أنفسـهم، وبـالأذلِّ الرسـول ﷺ وأصحابـه، وهذا مـن جهلهم، ولهذا قـال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

۞ التفسير:

هـذه الآيـة عطـف فـي المعنـى علـى الآيـة السـابقة؛ لأن القائـل واحـد، هـو عبـد الله بـن أُبيٍّ، وكان ذلـك ـ على قول أكثر أهل المغازي والسير[1]. في غزوة بني المصطلق وتسمى غزوة المُريسيع، وقد وقعت هذه الغزوة في السنة الخامسة ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: المنافقون، وأضيف القول إليهم جميعا لرضاهم به ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ أي: مـن الغـزو، والـلام هـي الموطئـة للقسـم، و«إنْ» حرف شـرط، أي: والله لئن رجعنـا ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ أي: الأشـدُّ والأقـوى، وهـو فاعل ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، الأذلَّ مفعـول بـه، فعبـدُ الله بن أبيٍّ يريد بالأعز نفسـه وأصحابه، وبالأذل رسـولَ الله ﷺ والمؤمنيـن، وكان قال ذلك على إثر شـجار وقـع بين أحد أصحابه ورجـل مـن المهاجريـن، كبـرت كلمة تخرج مـن أفواههـم، أي: لنخرجن محمدا وأصحابه من المدينة؛ لأنهم غرباء عنها، وقوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ هو جواب القسم المقدر، وأما جواب الشرط فمحذوف، تبعا للقاعدة أنه إذا اجتمع الشرط والقسم

(١) كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٢٧).

فإنه يحذف جواب المؤخر منهما؛ قال ابن مالك في الألفية:

واحْذِفْ لدى اجتماعِ شرطٍ وقَسَمْ جوابَ ما أخرتَ فهْوَ ملتزمْ

فردَّ الله على المنافق قوله بأبلغ رد؛ إذ حصر العزة له تعالى، فقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولله الغلبة والقهر والقوة صفةً وملكًا كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]، والعزة أيضا لمن أعزه الله من الرسول والمؤمنين، وإعادة اللام في الرسول والمؤمنين لتأكيد ثبوت العزة لهم واستحقاقهم إياها، وفي الآية إبطال لقول المنافقين بطريق القول بالموجَب المعروف عند البلاغيين، وفي علم آداب البحث والمناظرة، وحقيقته ردُّ كلام الخصم من فحوى لفظه، فمعنى الآية: نعم؛ سيُخرج الأعزُّ الأذلَّ، ولكن الأعزَّ ليس هو أنتم أيها السفهاء، بل هم المؤمنون، والأذلُّ هو أنتم أيها المنافقون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لفرط جهلهم وغروهم، فإن هذا معلوم بالضرورة، ولهذا نفى الله عنهم العلم رأسا، وفي الآية السابقة نفى عنهم الفقه الذي هو معرفة دقائق المعاني، فيكون هذا من باب الترقي في ذمهم، ولإثبات الوصفين لهم.

وبتأمل السورة من أولها نجد أن الله ﷻ ذم المنافقين ونعتهم بأسوأ النعوت، من الكذب وسوء العمل والكفر والطبع على القلوب وعدم الفقه وعدم العلم والاستكبار والفسق، نسأل الله العافية.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن من غايات المنافقين طردَ المهاجرين عن المدينة؛ لزعمهم أنهم أخصُّ بها.

٢- دعوى المنافقين أنهم هم الأعز، وأن المؤمنين هم الأذل.

٣- ردُّ الله ذلك عليهم بأن العزة له ولرسوله وللمؤمنين.

٤- في الآية معنى القول بالموجَب المعروف في المناظرة، وهو تسليم دليل الخصم ثم نقضه بمنع بعض مقدماته، وصورته في الآية: أن الأعز يخرج الأذل، وفي زعم المنافقين أنهم الأعز، فسلِّمت لهم المقدمة الأولى، ومُنعت المقدمة الثانية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فعُكس الأمر عليهم، فيمتنع مقصودهم، وهو إخراجهم النبي ﷺ والمؤمنين من المدينة.

٥- أن العزة حقًّا لله ولرسوله وللمؤمنين.

٦- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

٧- تشريف الرسول ﷺ والمؤمنين بذكرهم معه سبحانه، وإثبات العزة لهم.

٨- جهل المنافقين بالحقائق، ومن ذلك جهلهم بأنفسهم، وأعظم ذلك جهلهم بالله، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- ان المدينة عَلَم على مهاجر النبي ﷺ مجرَّدة عن الوصف، خلافا لمن يلتزم نعتها بالمنورة.

ولما ذكر سبحانه قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن أن يكونوا مثلهم؛ فقال:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

ينهى الله عباده المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكرهم لله، وبين أن ذلك سبب للخسران المبين.

۞ التفسير:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يا من صدَّقوا بالله ورسوله واتبعوه وعملوا بشرعه، وافتتاح الخطاب بهذا النوع من النداء يؤذن بأهمية ما بعده، وفي ندائهم بوصف الإيمان دليلٌ على أن امتثال الأمر من مقتَضيات الإيمان، وأنه يزيد في الإيمان، ففي هذا النداء استثارة لهمم المؤمنين وعزائمهم، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرْعِها سمعك؛ فإنه خيرٌ تؤمر به، أو شرٌّ تنهى عنه[(١)]. يعني: يحصل لك به العبرة والاتعاظ، فيؤول إلى خيرٍ لك أيضا.

قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ أي: لا تَشغلْكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ قدَّم الأموال لأن اللهو بها أكثر من اللهو بالأولاد ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: عن ذكره تعالى وتسبيحه وتمجيده باللسان وبالقلب وعن الصلاة وسائر العبادات، فذكر الله عام لكل ذلك، وقد أسند الله الإلهاء إلى الأموال والأولاد لأنها أعظم الأسباب الجالبة للهو القلب، وأصل الكلام: لا تلهوا بأموالكم وأولادكم ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: الاشتغال بالأموال والأولاد عن طاعة الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

أي: المغبونون حقًّا؛ لأنهم آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وكل خسارة تعوَّض، وهذه لا عوض لها، فهذا هو الخسران الحقيقي، ولذا أكد الحُكم بعدة مؤكدات، من التعريف باسم إشارة البعيد، وتعريف الجزأين الدال على الحصر، وتوسط ضمير الفصل بينهما، واسمية الجملة.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تكريم المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب، ونعتهم بالإيمان.

٢- التهييج على الامتثال بذكر ما يقتضيه، وهو الإيمان.

٣- تحريم انشغال القلوب بشأن الأموال والأولاد عن ذكر الله.

٤- أن ذكر العبد لربه بقلبه ولسانه وبأداء فرائضه هو أصل الربح والفلاح، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٥- أن اللهو بالأموال والأولاد سبب للخسران.

٦- أن مَنْ يلهيه ماله وولده عن ذكر ربه فهو الخاسر حقًّا.

٧- أن حبَّ الأموال والأولاد والسعي في تحصيلها من غير لهو بها ليس بمذموم.

٨- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]؛ إذ دعاهم الله في هذه الآية «آية المنافقون» إلى ما أثنى به على أولئك الرجال، ونهاهم عمَّا ذمَّ به الذين قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا.

٩- أن اللهو بالأموال والأولاد فِعْلٌ، فيؤخذ منه:

١٠- أن النهي طلبُ الكف عن فعل، كما قال أهل الأصول؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾.

ولما حذر الله عباده المؤمنين من الإقبال على الدنيا حثَّهم على البذل مما أعطاهم الله منها، مخالفة للمنافقين؛ فقال سبحانه:

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هاتين الآيتين يأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق مما رزقهم الله، والمبادرة إلى ذلك قبل الموت وتمني الإمهال لاستدراك ما فرط، وأن الإمهال لن يكون، والله خبير بأعمال خلقه.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: وأنفقوا بعض ما رزقناكم، وصيغة الأمر مستعملة في القدر المشترك بين الوجوب والندب، فالإنفاق المأمور به شامل لما كان واجبا إما بإيجاب الشرع له ابتداء كالزكاة، أو كان وجوبه بسبب من العبد كالكفارات، وكالنفقة على الأهل، ويشمل الإنفاق المندوب، كالصدقات ونحوها، ومن كرم الله ولطفه أن هذا الذي أمرنا بالإنفاق منه هو من رزقه الذي تفضَّل به علينا، ثم إنه تعالى لم يأمرنا بإنفاقه كله، بل بعضه، وليس في الآية دليل على أنه ليس للإنسان أن ينفق ماله كله ابتغاء مرضاة الله، بل ذلك مسكوت عنه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أماراته ومقدماته، فيرى الموت رأي العين، ويدخل في حالة الاحتضار.

قوله: ﴿فَيَقُولَ﴾ بالنصب عطفا على ﴿يَأْتِيَ﴾، أي: فيقول عند ذلك نادما متحسِّرًا ﴿رَبِّ﴾ أي: يا ربِّ ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلَّا أخرت موتي وأمهلتني إلى زمان قريب أستدرك فيه ما فاتني من الإنفاق، و«لولا» حرف تحضيض بمعنى «هلَّا»، وهو هنا للدعاء بإلحاح، وهذا الحرف يجعل الفعل بعده مستقبلا، وإن كان بلفظ الماضي، فهلَّا مختصة بالماضي المؤوَّل بالمستقبل، كما هنا ﴿أَخَّرْتَنِيٓ﴾؛ إذ لا معنى للتأخير في الزمن الماضي، فالمعنى: ربِّ أخِّرني ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية في جواب الطلب، وقوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أصله أتَصَدق، قلبت التاء صادا، وأدغمت في الصاد، أي: أتصدق من مالي في سبيل الله ﴿وَأَكُن﴾ بالجزم معطوف على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ التقدير: إن تؤخرني أتصدقْ وأكنْ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: من عباد الله الصالحين المؤدين للفرائض والنوافل، وهيهات ذلك، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ عن الموت، و«نفس» نكرة في سياق النفي فتعم كل نفس ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ أي: إذا حضر أجلها وانتهى عمرها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: محيط بأعمالكم كلها الظاهرة والخفية؛ أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وسيجازيكم عليها، وفي هذه الجملة تحذير من أن يعمل العبد عملا لا يرضى الله عنه، وتنبيه على الإخلاص في الأعمال، وأن جميع ما يظهر عليهم فالله مطلع على خفياته.

وقد ختمت هذه السورة بإثبات إحاطة علم الله بأعمال العباد الظاهرة والخفية، وهذا مناسب لما بدئت به من اطلاعه تعالى على ما انطوت عليه قلوب المنافقين ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

۞ الفوائد والأحكام:

١- الندب إلى الإنفاق، وهو شامل للنفقات الواجبة والمستحبة.

٢- الامتنان من الله برزق العباد.

٣- الحث على الإنفاق بالتذكير بأن المال من رزق الله لا من العبد بحوله وقوته.

٤- الحث على المبادرة بالإنفاق قبل هجوم الموت.

٥- أن الإنفاق من أعمال عباد الله الصالحين.

٦- أن المفرِّط يتمنى تأخير موته؛ ليتصدق ويعمل صالحا.

٧- التيئيس من إجابة هذا الطلب؛ لقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

٨- أن من حضره الموت لا ينفذ تصرفه في ماله إلا في الثلث.

٩- أن من فرَّط في الزكاة حتى حضره الموت فإن الزكاة لا تخرج من أصل ماله، بل من الثلث؛ إذ ليس له التصرف بأكثر منه.

١٠- أنه إذا حضر الأجل امتنع أن يزاد في العمر.

١١- تقدير الله للآجال.

١٢- الرد على المعتزلة في نفيهم حتمية الأجل.

١٣- إثبات اسمه تعالى الخبير، وإثبات صفة الخبرة لله تعالى.

١٤- إحاطة علمه تعالى بأعمال العباد.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

سورة التغابن مدنية، وهي آخر السور المسبِّحة، أي: المنزِّهة لله ﷻ في افتتاحها، وعددُ آياتها ثماني عشرة آية، تضمنت الآيات الأربع الأولى ثناء الله على نفسه بتسبيح العوالم له، وذكر بعض صفاته الذاتية والفعلية، وتفرده بالملك والحمد، وقدرته على كل شيء، وإحاطة علمه بما في السماوات والأرض، وبما يُسِرُّ العباد وما يعلنون.

وتضمنت الآيتان الخامسة والسادسة التذكير بأنباء الأمم الماضية، وما جرى عليهم من وبيل العذاب بسبب الكفر بالله والتكذيب لرسله.

وتضمنت الآيات الأربع من السابعة إلى العاشرة الخبر عن تكذيب الكفار بالبعث، والرد عليهم، وذكر انقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء لهم الجنة، وأشقياء لهم النار، وبئس المصير.

وتضمنت الآيات الثلاث: الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة الترغيب في الإيمان بالقدر، والأمر بطاعة الله ورسوله، والتوكل عليه سبحانه.

وتضمنت الآيات الثلاث في آخر السورة خطابا من الله لعباده المؤمنين،

يحذرهم من فتنة الأزواج والأولاد والأموال، ويأمرهم بتقواه والإنفاق في وجوه الخير، ويبشرهم بمضاعفة الأجر، وختمت السورة بذكر بعض أسمائه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآية عن تسبيح العالم العلوي والسفلي أهل السماوات والأرض له سبحانه، وعن كمال ملكه وحمده وقدرته، وخلقِه السماوات والأرض، وخلقِ الناس وتصويرهم، وعن كمال علمه، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك علمه بذات الصدور.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ أي: يُنزِّه الله ويمجِّدُه ويقدِّسُه عن كل ما لا يليق به جميعُ ما في السماوات وما في الأرض من الملائكة والإنس والجن والأحياء والجمادات؛ كالأفلاك والنجوم وسائر المخلوقات، وهو تسبيح حقيقيٌّ بلسان المقال والحال، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والفعل «يسبِّح» يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، لكنه في هذه الآية - آية التغابن - مُضَمَّن معنى التقديس فعدِّي باللام، كما يدل له قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومجيء «ما» دون «مَن» ليعم العقلاء وغيرهم، أو تغليبا لغير العقلاء لأنهم الأكثر.

وكُـرِّرت «مـا» فـي قولـه: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للتأكيد، وللتنبيه على استقلال ما في السماوات بالتسبيح، واستقلال ما في الأرض بالتسبيح، وقدمت السماوات لعلوها ولعظمها وعظم ما احتوت عليه من الأملاك والأفلاك وغيرها، ولشرف سكانها، وجمعت السموات لأن كل سماء مستقلة عن السماء الأخرى، وأفردت الأرض لأنها بخلاف ذلك، أي: متصلٌ بعضها ببعض، وصيغة المضارع في «يُسَبِّحُ» تدل على تجدد التسبيح واستمراه لله تعالى، وجاء التسبيح بصيغة الماضي في سور الحديد والحشر والصف، وبصيغة الأمر في سورة الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، وبالمصدر في صدر سورة الإسراء ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ إيذانا باستحقاقه تعالى أن يسبَّح ويذكر اسمه في جميع الأوقات والأحوال، وفيه ترغيب للعبد بكثرة التسبيح والذكر، كما أخبر الله عن الملائكة أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وافتتاح السورة بالتسبيح من حسن الافتتاح المعروف عند الفصحاء؛ فإنه يؤذن بما اشتملت عليه السورة من كل ما يقتضي التسبيح؛ من عموم ملكه تعالى، وعلمِه بكل شيء، وتفردِه بالخلق والتدبير.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي: له ﷻ الملك التام والتصرف المطلق في جميع الكائنات، فهو مبدئ كلِّ شيء ومبدعُه، وأما ملك غيره فمقيَّد، وهو مستفيد له من غيره ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ أي: له الثناء الجميل محبة وتعظيما، وهو تعالى يُحمد على كمال إنعامه وعلى كمال أوصافه وأفعاله، واللام في الحمد للاستغراق، أي: جميع أنواع المحامد له تعالى، وتقديم الجار والمجرور «لَهُ» في الموضعين للحصر، أي: الملك كلُّه والحمد كلُّه لله وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هذا كالدليل لما قبله، أي: قدير على كل شيء؛ فلا يخرج عن قدرته شيء، ولا يفوته شيء ﷻ،

فهـذا عمـوم لا مخصِّص له، فهو تعالى يعطي ويمنـع، ويعز ويذل، ويهدي ويضل، وما شاءه تعالى كان بلا مدافع ولا ممانع، وما لم يشأ لم يكن.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تسبيح جميع المخلوقات لله سبحانه بلسان الحال والمقال.

٢- أنـه تعالـى منـزه عـن كل نقـص وعيب فـي ذاتـه وصفاتـه وأفعالـه، وهذا مضمون التسبيح.

٣- أن الملك كله لله وحده، فلم يكن له شريك في الملك.

٤- أن الحمد كله لله مستَحَقٌّ له وحده.

٥- إثبات جميع المحامد له سبحانه، ففيها:

٦- الـرد علـى نفـاة الحكمـة فـي أفعالـه تعالى، مـن الجبريـة وغيرهـم الذين يقولون: إن أفعاله تعالى راجعة إلى محض المشيئة.

٧- إثبات قدرته تعالى على كل شيء، ففيها:

٨- الرد على القَدَرية الذين يخرجون أفعال العباد عن قدرته ومشيئته سبحانه.

ولما ذكر سبحانه أنه على كل شيء قدير؛ ذكر بعض آثار قدرته على سبيل التفصيل بعد الإجمال، فقال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﷻ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم بعد العدم، والخطاب لجميع الناس ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ الفاء للتفصيل و«مِنْ» للتبعيض، أي: منكم من كفر، أي: جحد إلهيته تعالى ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: ومنكم من آمن بالله فهو موحِّد، والله خلق الخلق، وفطرهم على التوحيد، فمقتضى ذلك أن يقوموا بشكره وعبادته، ولكن أقواما كانوا بضد ذلك تغيرت فطرهم، واتبعوا أهواءهم فكفروا، وقُدِّم الكافرون على المؤمنين، لأنهم الأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم بأحوالكم ومطَّلع على جميع أعمالكم، ومنها إيمان المؤمن وكفر الكافر، فلا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجازيكم عليه، وهذا وعد ووعيد.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: خلقًا مقترنًا بالحق والعدل التام والحكمة البالغة، متضمّنا لمصالح الدنيا والآخرة، لا عبثا ولهوا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ [ص:٢٦]، فالمراد أخذ العبرة والتصديق بالبعث والإيمان بالله. وتقديم السماوات لعلوّها وسعتها، ولأن آثار قدرة الله وحكمته فيها أظهرُ للعقول وأعجب ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: جعلكم

في أحسن صورة، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فالله خلق الإنسان في أجمل شكل؛ متناسب الأعضاء، معتدل القامة، غير منكبٍّ على وجهه كالبهيمة، وآتاه العقل، وأنطقه بالكلام، وعلمه البيان، وأودع فيه القوى الظاهرة والباطنة، فهو سبحانه حقيقٌ أن يُعبد ويُشكر فلا يُكفر ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه لا إلى غيره المرجع والمآب، فيجازي كلَّ نفس بما كسبت، والمصير مصدر ميمي، من صار إذا رجع.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الأحوال والأمور الظاهرة والخفية، ودلَّت صيغة المضارع على دوام علمه سبحانه بالحاضر والمستقبل، وشموله لكل ما يقع في كل زمان، فهو تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يخفى عليه سر ولا علانية، ولهذا أعاد الفعل لتأكيد علمه تعالى، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هذه الجملة أخصُّ مما قبلها، فهي من عطف الخاص على العام، أي: يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من الأعمال والنيات، والإسرارُ والإعلانُ في علم الله سواءٌ، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

وتقديم الإسرار على الإعلان لأنه مظنَّة الخفاء في نظر العباد، فإذا كان لا يخفى عليه تعالى الإسرار فالإعلان أولى، وهما في علمه تعالى سواءٌ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهذه الجملة أيضا أخصُّ من التي قبلها، وهي تعليل لما قبلها وتقرير له ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ﴾ أي بالغ العلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بصاحبة الصدور، فـ«ذات» مؤنث «ذو»، وصاحبة الصدور هي الأسرار والخواطر النفسية، وجُعِلت صاحبةً للصدور لأنها ملازمة لها لا تنفك عنها، نحو: أصحاب الجنة وأصحاب النار، فعلمه تعالى محيط بكل شيء، فإذا كان يعلم ما يضمره الإنسان في صدره

فمن باب أولى أنه يعلم ما يظهره للناس وما يتكلم به، قال الزمخشري: «نبَّه بعلمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم بعلمه بذوات الصدور: أن شيئا من الكليات والجزئيات غيرُ خاف عليه ولا عازب عنه، فحقُّه أن يُتقى ويحذر، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد، وكلُّ ما ذكره بعد قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ كما ترى، في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته»(١).

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الله خلق العباد وجعلهم فريقين؛ مؤمنا وكافرا.

٢- إثبات أفعال الله الاختيارية.

٣- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

٤- إثبات كمال علمه تعالى بأعمال العباد؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٥- إثبات الأفعال للعباد، والرد على الجبرية.

٦- إثبات خلقه تعالى للسماوات والأرض بالحق؛ بعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته، ففيها:

٧- الرد على الفلاسفة القائلين بقدم هذا العالم.

٨- أن من أفعاله سبحانه التصوير.

٩- فيها شاهد لقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ [الحشر: ٢٤].

١٠- أنه تعالى هو الذي صور العباد فيما شاء من الصُّوَر.

١١- امتنانه سبحانه على العباد بإحسان صورهم.

---

(١) الكشاف (٤/ ٥٤٧).

١٢- إثبات البعث والجزاء؛ لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٣- إحاطة علمه تعالى بما في السماوات والأرض، وبما يُسر العباد وما يعلنون.

١٤- إثبات علمه تعالى بأعمال القلوب وخواطر النفوس.

١٥- إثبات علم الله بالحاضر والمستقبل، كما تفيده صيغة المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾.

١٦- الرد على الفلاسفة القائلين بنفي علمه تعالى بالجزئيات.

وبعد أن أثبت الله لنفسه صفات الكمال والمجد والعظمة هدَّد الكفار؛ فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هاتينِ الآيتَينِ توبيخ من الله تعالى وتهديد لكُفّار قُريشٍ وغيرهم على كُفْرِهِمْ، وقد جاءتهُم أنباءُ الذينَ كفروا مِن قبْلِهم، وما فَعَلَ الله بِهِم؛ لمَّا كفروا باللهِ وعَصَوا رسلَه، وقد جاؤوا بِالبيِّنات، فكفروا وتولَّوا، فلم يَضرُّوا اللهَ شيئا؛ لأنَّه تعالى مسْتغن عن عِبادِه، وهو الغنيُّ الحميد.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطاب للمشركين، والاستفهام للتقرير والتهديد، أي: قد أتاكم ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ النبأ هو الخبر الذي له شأن، المعنى: ألم تبلغكم أخبار الكفار المكذبين من قبلكم كعاد وثمود وقوم نوح الذين أهلكهم الله ودمَّر عليهم، فيكونَ ذلك عبرة لكم وموعظة تتعظون بها ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ الفاء عاطفة، من عطف المسبَّب ـ وهو العذاب ـ على السبب ـ وهو الكفر ـ، أي: ذاقوا عقوبة كفرهم، أي: أحسوا به إحساسا مكينا، وعانَوا أهواله بالروح والجسد، على ما يفيده لفظ الذوق؛ فإن استعمال «ذاق» في العذاب من باب الاستعارة لإفادة شدة الإحساس بالألم، والوبالُ هو السوء وما تكرهه النفوس، وعبَّر عن الكفر

بـ «الأمـر» لقبحـه ولأنه جناية عظيمـة، كما تقول: فعل زيد أمـرًا، إذا أردت تهويل فعله، فذلك عذابهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم هائل.

قولـه تعالـى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكـور مـن عـذاب الدنيـا ومـا ينتظرونـه من عذاب الآخرة «بأنه» الباء للسـببية والضمير المتصل هو ضمير الشـأن، ولا يأتي إلا في سياق الأمور العظيمة، أي: بسـبب أن الشـأن العظيم والقصة البالغة في العبـرة أن الرسـل ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيـات الواضحـات الدالـة علـى صدقهم، من الآيات الشـرعية والآيات الكونية ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: أَأُنـاسٌ مثلُنـا يكونـون هداة ورسـلا من الله؟! وهذا اسـتفهام تعجُّـبٍ وتكذيب، والبشَـر اسـم جنـس يطلـق علـى الواحد، كما فـي قوله تعالـى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]، ويطلق على الجمع كما هنا، ومن سَفَه المشركين إنكارهم أن يكون الرسـول بشـرا، مع اتخاذهم الحجر معبودا ﴿فَكَفَرُواْ﴾ أي: كذَّبوا بالآيات وبالرسـل ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ أي: أعرضـوا عن الطاعة والنظـر في الآيات ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ الواو للعطف على ما قبله، أو للاسـتئناف، والجملة تأكيد لما سـبق من التهديد، أي: واسـتغنى الله عـن إيمانهـم وطاعتهـم، أصله: غَنِي، السـين والتـاء للتحقيق والتأكيد، فهي مثل استجاب.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: له الغنى المطلق من كل وجه، فلا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين، وإنما يعود أثر ذلك على المكلفين ﴿حَمِيدٌ﴾ أي: مستحق للحمد، فهو تعالى محمود على أقواله وأفعاله وصفاته، ومن ذلك إحسانه إلى عباده، وهو حامد لعباده الذين يستحقون الحمد والثناء، فصيغة فعيل بمعنى فاعل ومفعول، وقـد كثر في القرآن اقتران الاسـمين الكريمين الغني والحميـد، ومنها هذا الموضع، والسـبب هنـا ـ والله أعلم ـ الإشـارة إلى غناه تعالى عن إيمانهـم وطاعتهم، وعن كل

عمل يشرك به معه غيره، وأنه تعالى المحمود على ذلك.

الفوائد والأحكام:

١- أنّ من حجج الله على المكذّبين: ما قصه من أنباء الماضين.

٢- في الآيتين شاهد لقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ [القمر: القمر: ٤].

٣- أن من كذّب بدعوة محمد ﷺ وقد جاءته أنباء المكذّبين من الأمم السابقة لفي غاية من الجهل والسَّفَه.

٤- أن سنة الله في المكذبين أن يأخذهم بالعذاب الوبيل.

٥- أن سبب ما أصابهم هو الكفر والعصيان، ففيها:

٦- إثبات الأسباب.

٧- أن الله تعالى مستغن عن العباد، لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم.

٨- أن من أسماء الله تعالى: الغني والحميد.

٩- إثبات صفتي الغنى والحمد لله تعالى.

١٠- أن إرسال الرسل قطع لحجة العباد على الله.

١١- تأييد الله لرسله؛ بما آتاهم من الآيات البينات.

١٢- أن من سفه الكفار: استنكارهم أن يكون الرسول بشرا مع أنه مقتضى الحكمة.

ثـم ذكـر الله جريمـة ثالثة للكفار وهـي إنكارهم للآخرة، أي: مـع ما تقدم من تكذيبهم للرسل وكفرهم بالآيات، فقال سبحانه:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآية الأولى تقرير أصلٍ من أصول الإيمان، وهو البعث بعد الموت، وذلـك بالخبـر المؤكَّد بالقسـم ردًّا على زعم الكافرين أنهـم لن يبعثوا ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾، وتضمَّنت الآية الثانية الأمر بثلاثة من أصول الإيمان: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ الزعم ادعاء العلم، وأكثر ما يكون في الباطل كما هنا، أي: ادَّعى الكفارُ أنهم لن يبعثوا، فلا حساب ولا جزاء، وقد ذكر الله هـذا الإنـكار منهـم والسـبب الحامل لهم علـى ذلك في آيـات كثيرة؛ كقولـه تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ [الرعد: ٥]، وقولـه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ [الإسراء: ٤٩]، وقولـه سـبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٢-٣].

و«أَنْ» في قوله: ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ هي المخففة من الثقيلة، واسـمها ضمير الشـأن المحذوف، أي: زعموا أنَّ الشأن لن يبعثوا ﴿قُلۡ﴾ أي: أجبهم أيها الرسول جهارا، وفـي هـذا الأمر إشـارة إلـى أهمية المقـول، وأن الرسـول مكلَّفٌ مأمـور ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي

﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ «بلى» حرف يدل على إبطال النفي قبله وإثبات المنفي، أي: ليس الأمر كما تزعمون، فالبعث واقع؛ أقسم بربي لَتُبْعثُنَّ بعد الموت ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتُخبَرُنَّ بجميع أعمالكم في الدنيا صغيرها وكبيرها، وستحاسبون عليها، وتجزون بها، وقد تضمَّنت «بلى» وحدَها الردَّ على المشركين بإبطال زعمهم، وإثبات البعث، وفي الجملتين بعدها ـ وهما قوله: ﴿وَرَبِّي﴾ وقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ ـ تأكيدٌ لما أفادته «بلى» مع ما تضمنته الجملتان من القسم بأعظم مقسم به على وقوع البعث والجزاء ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وهذا من جملة القول المأمور به، أي: سهلٌ هيِّن، وذلك لكمال قدرته تعالى وكمال علمه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر، أي: إذا كان الأمر كما ذكرنا من وقوع البعث لا محالة؛ فآمنوا بالله ورسوله، ولم يذكر الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان بالله وبرسوله يتضمن الإيمان بذلك اليوم ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أي: القرآن، وسماه نورا لأنه يهدي في ظلمات الجهل كما يهدي النورُ في الظلام، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وأضاف الله إنزال القرآن إلى نفسه المقدسة على سبيل الالتفات من الغيبة إلى التكلم «أنزَلْنَا» تشريفا للقرآن، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: بالغ العلم بجميع أعمالكم ظاهرها وخفيِّها، دقيقها وجليلها، ففيها وعد ووعيد.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن جحْد البعث نوع من الكفر بالله؛ لأنه كفرٌ بقدرته وحكمته تعالى، كما قال الرجل الذي قال لصاحبه الذي قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٦]: قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥] في وصف من قال: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٢- أن من طُرق الرد على زعم الكافرين: الخبرَ الجازم المتضمن تكذيبَهم.

٣- في الآية الأولى شاهد لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: البعث ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣].

٤- أن القَسم باسم الرب في الآيات الثلاث مناسبٌ للمقسَم عليه، وهو أن البعث واقع لا محالة؛ لأنه مقتضى صفات الربوبية من العلم والقدرة والحكمة والرحمة.

٥- أن البعث والحشر والجزاء هيِّنٌ على الله لكمال قدرته وعلمه.

٦- أن من طُرق الرد على منكري البعث: تقريرَ قدرته تعالى بالخَبَر، كما في هذه الآية ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وبالدلائل العقلية المذكورة في آيات كثيرة من النشأة الأولى، وإحياء الأرض، وخلق السماوات والأرض.

٧- أن الإيمان بالبعث هو من الإيمان بالله ورسوله وكتابه، والتكذيبَ به كفر بالله ورسوله وكتابه ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾.

٨- أن الوحي نور تكون به الهداية إلى طريق السعادة.

٩- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

١٠- أن النور يكون معنويا تبصر به العقول كما يكون حسيًّا تبصر به العيون.

١١- الوعد والوعيد بذكر خبرته تعالى بأعمال العباد ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لمـا أكـذب الله الكفار في زعمهم أن لن يبعثـوا، وأخبر عن وقوع البعث خبرا مؤكَّدا، أتبع ذلك بتفصيل ما يكون في يوم القيامة من الجزاء على الأعمال خيرها وشرها، فقال سبحانه:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يذكُر ﷻ في هاتيـن الآيتيـن بيـوم البعث الذي جحـده الكفار، ويسـميه يوم الجمْع، ويخبر عن مصير الناس فيه إلى فريقين؛ سـعداء وهم المؤمنون، وأشـقياء وهم الكافرون، وبهذا صار هذا اليوم يوم التغابن.

۞ التفسير:

قولـه تعالـى: ﴿يَوْمَ﴾ أي: اذكـر يـومَ ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ الله ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ أي: فـي يوم الجمع العظيم الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد، الأولين والآخرين، وهو يوم القيامة، كما قال سـبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، فـي ذلـك اليـوم يفـوز المؤمنون ويخسـر المبطلون، ولهذا قال سـبحانه معظِّمـا شـأنه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ مأخـوذٌ مـن قولهـم: تغابن القوم فـي التجارة، إذا غَبن - أي: غلب - بعضهم بعضا، وفي الآخرة يحصل أعظم غبن، إذ يغبِن المؤمنون الكافريـن بأخـذ منازلهم وأهلهم المعدة لهم فـي الجنة لو آمنوا، ولهذا قال ﷺ: «لا

يدخل أحد الجنة إلا أُري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا، ولا يدخل النار أحد إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»(١)، وهناك يظهر أيضا غبن الكافر في الآخرة من جهة أخرى، وهي تفريطه مع ربه في التجارة المشار إليها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وقوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١]، فتبين أن الكافر مغبون في الآخرة من وجهين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ أي: جمع بين الإيمان بالله والعمل الصالح ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي: يتجاوز عنها ويسترها ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وأنهار الجنة كثيرة، فمنها مما أخبر الله به: أنهار من ماءٍ غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ وهذا من تمام النعيم، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقد أشاد الله بهذا العطاء والفضل منه فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تكفير السيئات ودخول الجنات، وأشير إليه باسم إشارة البعيد لشرف ثوابهم ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: الذي لا فوزَ أعظمُ منه، والفوز هو الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا إلاهية الله وتوحيده ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهي ما بعث الله به رسله من الآيات الدالة على ربوبيته تعالى وإلاهيته وعلى صدق رسله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: الملازمون لها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ذمٌّ وشدَّةُ وعيد، و«بئس» فعل ماض

(١) رواه البخاري (٦٢٠٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لإنشاء الذم، والمصير فاعل، والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: بئس المصيرُ النار، نعوذ بالله منها.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الله يجمع العباد يوم القيامة الأولين والآخرين للفصل والجزاء.

٢- أن من أسماء يوم القيامة يومَ الجمع ويوم التغابن.

٣- في الآيتين شاهد لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾. [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

٤- أن الناس يصيرون في ذلك اليوم فريقين؛ فريق في الجنة خالدون، وفريق في النار خالدون.

٥- ذكر سببِ السعادة، وهو الإيمان والعمل الصالح، وسببِ الشقاوة، وهو الكفر والتكذيب بآيات الله.

٦- أن جزاء المؤمنين شيئان، تكفير السيئات ودخول الجنات؛ فبتكفير السيئات النجاة من النار، وبدخول الجنات الفوز العظيم.

٧- أن الخلود في الجنة غايةُ السعادة والفوز.

٨- أن الخلود في النار غاية الشقوة.

٩- إثبات الجنة والنار.

١٠- إثبات حكمة الرب في الجزاء على الأعمال، فلم يُسوِّ بين الفريقين، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [ن: ٣٥].

١١- أن في الجنة أنهارا.

١٢- مدح مصير المؤمنين ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٣- ذم مصير الكافرين ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٤- أن للمؤمنين غاية الربح، وللكافرين غاية الخسران، وبذا كان الغبن الذي ليس فوقه غبن، ولذا سمي يوم القيامة يوم التغابن، معرَّفا بـ «أل» الدالة على الكمال.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الثلاث الإخبار بأن كل مصيبة من خير أو شر في الأرض أو في الأنفس هي بإذن الله؛ أي: بمشيئته وتدبيره، وأن من يؤمن بقدر الله يهدي الله قلبه، كما تضمنت الآيات الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والتحذير من التولي عن ذلك؛ فإن الله هو المعبود الحق الذي لا إله إلا هو؛ فعلى المؤمنين ألَّا يتكلوا إلا عليه.

۞ التفسير:

هذه الآيات شروع في بيان أصل من أصول الإيمان، وهو الإيمان بالقدر، بعد تقرير الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ ﴾ أحدًا ﴿ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أي: رزيَّةٍ، وهي ما يسوء الإنسانَ في بدنه وماله ونفسه وأهله، و«مِنْ» صلة لتوكيد العموم، أي: أيَّ أحد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته، وخصَّ المصيبة بالذكر لأن لها عند الناس شأنا، ولأن النفوس تضعف عندها، وإلا فكلُّ ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: يؤمن بربوبيته تعالى وإلاهيته، ويعلم أن كلَّ شيء بإذنه تعالى ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ أي: يهديه لليقين، ولكل خير، كما قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، ومن ذلك أن الله يثبته عند المصائب ويلقي في قلبه الرضا والتسليم لحكمه، فلا يظهر منه شيء يدل

على السخط، ومن أيقن أنه مملوك لربه فلابد أن يرضى بقضائه ويصبر على بلائه، ويُفهم من الآية أن من لم يؤمن بالله فإن الله لا يهدي قلبه، ولا يصلح شأنه، بل يكله إلى نفسه، وذلك هو الخذلان والخسار، نسأل الله السلامة والعافية.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: محيط علمه بالأشياء كلها خفيِّها وجليِّها قبل وجودها وبعد وجودها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو عليم بالقلوب وأحوالها، وعالم بما في قلب المؤمن من الرضا والتسليم لحكم الله، وفي الآية الحث على الإيمان بالقدر، وأنه لابد فيه من الانقياد المطلق لله رب العالمين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ لأن طاعته من طاعة الله، وتكرار الأمر بالطاعة يدل على وجوب طاعة الرسول ﷺ استقلالا، أي: طاعة مطلقة ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: فإن أعرضتم عن الطاعة والاستجابة فلا عذر لكم، وقد قامت عليكم الحجة، ولن تضروا الله شيئا ولا رسوله ﷺ، فقد أدَّى الرسول ما عليه، ولذا قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ البلاغ اسم مصدر بمعنى التبليغ، كالسلام بمعنى التسليم، والمبين هو البَيِّن الواضح، من أبان الرباعي بمعنى بان، وهذا أسلوب قصر إضافي، أي: ليس على الرسول إلا البلاغ فحسب، فقد أبلغكم ما أرسل به بلاغا واضحا، وفي الكلام محذوف أي: وعلينا الجزاء، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وأضاف الله الرسول إلى نفسه المقدسة في قوله: ﴿رَسُولِنَا﴾ تشريفا له ﷺ، وتهديدا لمن يتولى عنه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ الاسم الكريم «اللهُ» مبتدأ، وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ خبر، أي: الله وحده هو المعبود بحق، وهذا رجوع حسن إلى التذكير بأصل الدعوة ورأس الأمر فيها، وهو التوحيد، وإفراد الله بجميع أنواع العبادة،

ومنها التوكل عليه سبحانه في السراء والضراء، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه وحده لا على غيره ولا على غيره معه؛ لأن التوكل من أعمال القلوب فلا يكون إلا على الله وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اللام للأمر، وهو أمر من الله لعباده المؤمنين أن يعتمدوا عليه في جميع أمورهم، ويفوِّضوا أمورهم إليه مع فعل الأسباب، وخصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم الممتثلون أمر الله، ولأن الإيمان يقتضي أن يكون التوكل كلُّه على الله، فمن لم يتوكل على ربه فليس بمؤمن.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن المصائب كلها بقدر الله تعالى.

٢- الرد على القدرية.

٣- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

٤- فضل الإيمان بالقدر، وأنه سبب لهداية القلب.

٥- أن أفضل الهداية هداية القلب؛ لأن بهدايته تهتدي الجوارح؛ لأنه الذي إذا صلَح صلَح الجسد كله، كما في الحديث(١).

٦- إحاطة علم الله بكل شيء.

٧- وجوب طاعة الله ورسوله في كل أمر ونهي.

٨- أن الطاعة حقٌّ لله وحقٌّ لرسوله ﷺ؛ فهي من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله؛ لأن طاعة الرسول طاعةٌ لله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

٩- تهديد من أعرض عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

١٠- أن الواجب على الرسول في الدعوة البلاغُ البيِّنُ الواضح، وليس له من أمر هداية القلب شيء.

١١- ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾، ولعل ذكر صيغة الجمع؛ لأن إرسال الله للرسول هو مما يفعله تعالى بملائكته.

١٢- أن الله هو الإله الحق، وكل معبود سواه باطل.

١٣- وجوب التوكل على الله، وأنه مقتضى الإيمان بالله.

ولما رغَّب الله في الرضا والتسليم للأقدار وأمر بالطاعة، حذَّر مما يشغل عنهما، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان تحذير الله لعباده المؤمنين من فتنة الأزواج والأولاد والأموال؛ فإنها من أعظم الدواعي لمخالفة أمر الله ورسوله ﷺ، وذلك باتباع الهوى في هذه الثلاثة، ويختم سبحانه الآيتين بتذكير المؤمنين بما عنده من الأجر العظيم؛ ليؤثروه على هذه المحبوبات.

۞ التفسير:

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي: يا أيها الذي صدقوا الله ورسوله وآمنوا بشرعه، وفي هذا النداء لفت للأذهان لما يأتي من الحكم، وأن امتثاله من مقتضيات الإيمان ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ ﴾ أي: إن بعض أزواجكم وأولادكم عدوٌّ لكم، فيشغلونكم عن الطاعات واكتساب الحسنات، ويثبطونكم عن الخروج في سبيل الله للهجرة والجهاد، وقد يحمل حبُّهم الإنسانَ على اكتساب الحرام ليؤمن لهم عيشهم، وكم من رجل جارَى زوجته في أهوائها فهلك وهلكت، وقد تكون العداوة حقيقية، فتعادي الزوجة زوجها وتكرهه،

وتذيقه صنوف الأذى، وهذا مشاهد، ويعادي الولد أباه ويعقُّه، وربما قتله، ولفظ الآية صالح للمعنيين.

ولما كان ظهور العداوة من جهة الزوجات أكثر منها في الأولاد قدِّمن في الذكر ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي: كونوا على حذر بالغ من أزواجكم وأولادكم، ولا تطيعوهم في كل ما يأمرونكم به، ونبَّه الله بـ«مِن» التبعيضية على أن بعض الأزواج والأولاد ليس كذلك، فكم من امرأة فُتِحت بسببها أبواب الخير على زوجها، وكذا الأولاد الصالحون؛ فإنهم يكونون نعم العون لآبائهم في أمور دنياهم وآخرتهم، نسأل الله صلاح النيَّة والذريَّة بمنِّه.

قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ أي: إن تعفوا عنهم بترك معاقبتهم على الذنب ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ وهذا أبلغ، أي: تُعرِضوا عن التثريب عليهم، وسمِّي ذلك صفْحا لأن المعرض يولي المذنب صفحة عنقه ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ أي: تستروا الذنب ولا يبقى في نفوسكم عليهم شيء، وهذا أبلغ مما قبله، فهذه المعاني ذُكرت على سبيل الترقي من الأدنى إلى الأعلى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا دليل جواب الشرط وتعليلُه، أي: يثبْكم الله ويعاملْكم بمثل ما عاملتموهم به من العفو والصفح والمغفرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة واسع الرحمة.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ هذا تأكيد للمعنى المتقدم من التحذير من عداوة الأزواج والأولاد، أي: ليست الأموال والأولاد إلا ابتلاء وامتحانا من الله لعباده، ليعلم من يطيع الله فيهم ومن يعصيه، وقدمت الأموال على الأولاد لأن الفتنة بها أعظم وأكثر، ولهذا قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [القلم: ٦-٧].

قولـه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لمـن أطاعـه تعالـى، ولـم يعصه لأجل الأموال والأولاد، وهذا وعد كريم من الله مؤكد بما اشتمل عليه؛ إذ صدِّرت الآية بالاسم العظيم، وذكر «عنده»، والتعبير بالأجر عن الثواب، والوصف بالعظيم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تكريم المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب، ونعتهم بالإيمان.

٢- أن الإيمان هو المقتضي لطاعة الله ورسوله؛ فهو أصل العمل الصالح.

٣- أن مـن المحبوبيـن للإنسـان من يكـون عدوًّا لـه؛ كبعـض الأزواج والأولاد، وذلك بما يدعون إليه من معصية الله، ويُثبطّون عنه من طاعة الله ورسوله ﷺ.

٤- أن مـن فعـل ذلـك مع محبوبـه كان بمنزلة عـدوه، وإن لم يقصـد مضرته، ولكن ذلك باعتبار المآل.

٥- أن هذه العداوة من جنس عداوة الشـيطان للإنسـان في السببيَّة والمسببِّية؛ إذ كلٌّ منهمـا دعـوة إلى المعصية، وتفضي إلـى الضرر في الدنيا والآخرة، غير أن الضرر العاجل والآجل مرادٌ للشيطان دون الأزواج والأولاد، يدل له قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٦- أن بعض الأزواج والأولاد غاية مرادهم من وليهم مصلحةُ أنفسـهم، ولو أضروا به، وهذا هو شأن كثير من المحبين مع حبيبهم.

٧- أن بعـض الأزواج والأولاد نُصحـاء لوليهم، لا يدْعونه إلى ما فيه مضرتُه، بـل يجتهدون فيما يصلحه وينفعه في العاجل والآجل، فهؤلاء بريئون من وصفهم بالعداوة.

٨- وجوب الحذر من كل من يدعو إلى المعصية، ويثبط عن الطاعة، ولو كان

أقرب قريب.

٩- إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما الغفور والرحيم، وإثبات ما تضمناه من وصف المغفرة والرحمة.

١٠- الندب إلى العفو والصفح والمغفرة عمَّن أساء من الأحبة من غير قصد للمضرة.

١١- الفرق بين هذه المعاني: العفو بترك المؤاخذة، والصفح بترك العتاب، والمغفرة بالستر والمسامحة.

١٢- أن ما يعطاه الإنسان من الأموال والأولاد هو ابتلاء من الله للعبد؛ ليظهر من يقدم رضا الله عليها، أو يقدمها على رضا الله.

١٣- أن الأجر الذي عند الله للعاملين بطاعته عظيم، كما يفيده التنكير والوصف ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

١٤- إثبات المعاد ومجازاة العباد.

١٥- إثبات عندية الضمان والمكان.

١٦- أن الجزاء من جنس العمل، كما يفيده جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

هذه الآيات الثلاث هي ختام السورة، وقد تضمَّنت الآيات الأمر من الله تعالى بتقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق، والوعدَ على ذلك بالفلاح وبمضاعفة الأجر وبالمغفرة، وختمت الآيات ببعض أسمائه تعالى وصفاته المناسبة لموضوع الآيات، بل لموضوع السورة.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط محذوف، أي: إذا علمتم ما ذكر فاتقوا الله، والتقوى اتخاذ الوقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب مناهيه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ «ما» مصدرية ظرفية، أي: اتقوا الله ما دمتم مستطيعين ﴿وَاسْمَعُوا﴾ عظاته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله ﴿وَأَنفِقُوا﴾ مما رزقناكم في وجوه الخير، ويشمل الواجب والمندوب ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يكن ذلك خيرا لأنفسكم، وهو ما تجدونه من الأجر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ «من» اسم شرط، والشُّح هو البخل مع الحرص، أي: ومن يقِه الله شحَّ نفسه فيعصمه، ويشرح صدره للبذل والجود، وأضاف الشح إلى النفس لأنه من طبائع النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ

ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جواب الشرط، أي: الفائزون بكل خير، وهذا أسلوب حصر، حصر الفلاح فيهم تأكيدا للوعد.

قوله: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أسلوب شرط، أي: إن تنفقوا المال لوجه الله في أبواب الخير المختلفة، وسمَّى هذا البذل قرضا على وجه التشبيه؛ لأن القرض مردود، والمنفق يرجو الخلف والأجر، لأن الله وعد بالمجازاة عليه والمضاعفة، وثبت في الحديث القدسي يقول الله ﷻ: «**من يقرض غيرَ عَديم ولا ظلوم**»(١)، وفي ذلك ترغيب في الصدقة؛ إذ جعلها الله قرضا له تعالى مع أن العبد في الحقيقة إنما يقدم لنفسه، ولم يأمر الله عباده بإقراضه لحاجته بل هو الغني، بل ما يقرضه العباد لربهم هو بعض ما أعطاهم، ونفعه عائد إليهم، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: طيِّبا من نفقة طيبة، خالصا لوجه الله، محتسبين لثوابه، دون منٍّ ولا أذى، ودون إسراف ولا تبذير ولا تقتير، وكل هذه المعاني داخلة في الحُسن.

قوله: ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ هذا جواب الشرط، أي: يضاعفه بعشرة أمثاله؛ فإن الله يجزي على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يتجاوز عن ذنوبكم، ويسترها عليكم، فهذا الإقراض له ثوابان؛ عاجل وآجل، فالعاجل هو الخَلَف، والآجل هو الثواب المضاعف ومغفرة الذنوب ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: يشكر للمحسن إحسانه ولو كان قليلا، ويجزي عليه بالكثير

(١) رواه مسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي: لا يعاجل بالعقوبة ويتجاوز عن السيئات ولو عظمت، ومنها الشُّحُّ والبخل ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أي: المحيط علمه بكل شيء مما نراه وما لا نراه، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، والغيب كل ما غاب عن مدارك العباد مما لا يحسونه ولا يعلمونه ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: الشيء الحاضر المشاهد ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الحكيم في أفعاله وأقواله، من الحكمة، وهي وضع الأشياء في مواضعها.

وختم السورة بهذه الأسماء من أسمائه تعالى مناسب لما تضمنته آيات السورة؛ فكلٌّ من هذه الأسماء يتعلق به مضمون بعض تلك الآيات؛ فاسمه تعالى ﴿ٱلشَّكُورُ ﴾ يتعلق به ثوابه تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذلك بدخول الجنات، وثوابُه للمنفقين بالمغفرة ومضاعفة الحسنات، و﴿ٱلْحَلِيمُ﴾ جاء ـ والله أعلم ـ لذكر اسمه الشكور؛ فهو شكور لأهل طاعته، حليم على من عصاه.

وقوله: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ مناسب لختم السورة بمثل ما بدئت به من قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [التغابن: ٤] مع ما يتضمنه ذلك من الوعد والوعيد، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يتعلق بهما كل ما تقدم من ذكر الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة من قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾، وكل ذلك مقتضى عزته وحكمته، والله أعلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ - أن الإيمان بالأجر العظيم الذي عند الله يقتضي الأخذ بأسبابه، وجماعُ ذلك تقوى الله والسمع والطاعة لله ورسوله، ويصدِّق ذلك الإنفاق من المال الذي آتاهم الله.

٢- رحمة الله بعباده أنه لم يكلفهم من التقوى إلا استطاعتهم.

٣- أن المراد بالتقوى في الآية فعل المأمورات، وهي الواجبات؛ لتقييد التقوى بالاستطاعة. وفي الحديث قال ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١).

٤- وجوب السمع والطاعة لأمر الله ورسوله.

٥- أن تقوى الله ثمرة السمع والطاعة.

٦- الندب إلى الإنفاق من المال الذي رزق الله.

٧- أن ما ينفقه العبد من المال هو الذي له من ماله.

٨- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ولقوله ﷺ: «**فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخر**»(٢).

٩- أن الإنفاق وقاية من خُلُق الشح.

١٠- أن الشُّح من طبع النفوس.

١١- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

١٢- أن وقاية العبد من الشُّح سبب لفلاحه.

١٣- أن ترك الشُّح يكون بوقاية من الله للعبد لا بفعل نفسه؛ ففيه:

١٤- الرد على المعتزلة.

١٥- أن الإنفاق مع الإخلاص فرضٌ عند الله مضاعف.

١٦- أن الإنفاق لله سبب لمغفرة الذنوب.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٣٣٧)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٧٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١٧- أن مضاعفة الله الأجور هو أثر اسمه تعالى الشكور.

١٨- أنه تعالى مع ذكره للمنفقين لا يعاجل أهل الشح بالعقاب.

١٩- إثبات خمسة من أسماء الله الحسنى، وما تضمنته من الصفات: ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

٢٠- أن اسمه تعالى «الله» هو أصل أسمائه الحسنى، وهو الجامع لمعاني أسمائه وصفاته، ولهذا يُخبَر بها عنه، وشواهد هذا كثيرة.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

سورة الطلاق وتسمى سورة النساء الصغرى، وعدد آياتها اثنتا عشرة آية، ابتدئت بخطاب النبي ﷺ وخطابِ أمته تبعا له، وتضمَّن الخطابُ الأمرَ بجملة من أحكام الطلاق ومتعلَّقاته من الإشهاد والعِدة والرجعة وأحكام المعتدة، والأدب الشرعي في الإمساك والفراق، وحكم أجرة الرضاع، وتخلل ذلك الأمرُ بالتقوى والترغيبُ فيها لحسن عواقبها، وذلك في سبع آيات.

وختمت بالترهيب من التقصير في التقوى أو التفريط فيها، بذكر ما فعله الله تعالى بالقُرى العاتية عن أمر الله من الحساب والعذاب، ثم أكَّد الأمر بالتقوى مخاطبًا أولي الألباب من المؤمنين ممتنًّا عليهم بما أنزل من الكتاب الذي جاءهم به الرسول ﷺ، ومرغِّبًا لهم في ذلك بحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة، مع التذكير بعموم ملكه وكمال قدرته وعلمه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ①﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هذه الآية يأمر الله نبيه وأمته عند إرادة طلاق النساء بمراعاة وقت الطلاق وإحصاء العدة، ويأمرهم بتقواه، وينهى عن إخراج النساء المطلقات من بيوتهن، وعن خروجهن، مبيِّنًا الحكمة في ذلك، ومحذِّرًا عن مخالفة ذلك.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خاطبه الله بوصف النبوة تكريما له وتشريفا من بين سائر الأنبياء، ويناديه بوصف الرسالة، ولم يخاطبه باسمه ﷺ، وهذا من خصائصه ﷺ، خلافا لسائر الأنبياء، فإن الله يخاطبهم بأسمائهم ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: إذا أردتم تطليق النساء، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، وهذا الحكم عام لجميع الأمة كما هو ظاهر اللفظ، وإنما أفرد الله نبيه بالخطاب لأن النبي ﷺ هو إمام أمته، فالخطاب له ولهم بالتبع، والمراد بالنساء: الزوجاتُ المدخولُ بهن، أما غير المدخول بهن فلا عدة لهن مطلقا.

قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ العِدة ـ بكسر العين ـ مأخوذة من العَدِّ

والحساب، وهي المدة التي تقضيها المرأة منتظرة لا تتزوج بعد طلاقها أو بعد وفاة زوجها عنها؛ لمعرفة براءة رحمها، أو لتفجعها على زوجها، أو غير ذلك من الحكم، وقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ اللام للتوقيت بمعنى «في» أي: طلقوهن في الزمان الذي يصلح لعدتهن، أي: في طهر لم يجامعها فيه؛ لئلا يحصل من ذلك الوطء حمل، فتنتقل العدة من الحيض إلى وضع الحمل، فتطول عليها العدة حينئذ فتتضرر، وكذلك لا يطلقها وهي حائض؛ لأن ذلك يؤدي إلى طول العدة عليها أيضا، ولما طلق ابن عمر امرأته حائضا على عهد رسول الله ﷺ، قال عليه السلام لعمر: «ليراجعها»، فردَّها، وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسك». قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1].

فلا يجوز للرجل أن يطلق زوجته في طهر جامعها فيه إلا أن يتبين حملها، فإذا تبين حملها فله أن يطلقها متى شاء ويقع الطلاق، ولا يجوز أن يطلقها وهي حائض، وعند جمهور العلماء أنه إذا طلقها في طهر جامعها فيه أو وهي حائض فإن الطلاق يقع، ويسمى الطلاق البدعي.

وقوله: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوا أيامها بمعرفة ابتدائها وانتهائها، وأكملوا ثلاثة الأقراء، لتعلموا وقت الرجعة لمن أراد المراجعة، ولئلا تضيع الحقوق الواجبة عليكم أثناء العدة كالنفقة والسكنى، وأصل الإحصاء: العدُّ بالحَصَى؛ لأن العرب أميون، ثم اشتهر حتى صار حقيقة في ضبط المعدود، وخوطب الأزواج بذلك دون النساء؛ لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المترتبة عليها ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: خافوا الله بفعل أوامره واجتناب مناهيه، وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للمطلقين وتحذير لهم من الإضرار بنسائهم المطلقات ومنعهن

(١) رواه مسلم (١٤٧١).

حقوقهن، ولهذا قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: لا تخرجوا المطلَّقات من بيوتهن التي يسكنَّ فيها، بل يعتددن فيها حتى تنقضي العدة، وهي ثلاثة أقراء أي: حيضات لغير الصغيرة والآيسة والحامل، فإذا طهرت من الحيضة الثالثة جاز لها أن تتزوج، وأضاف الله البيوت إليهن تأكيدا على استحقاقهن الإقامة فيها زمن العدة، كأنهنَّ يملكنها.

قوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ «لا» ناهية أي: ولا تأذنوا لهن بالخروج إذا طلبن ذلك؛ لأن بقاءهن في البيت زمن العِدة حقٌّ لله عليهن فلا يسقط ولو اتفق الزوجان على إسقاطه؛ لأن كلًّا منهما منهيٌّ عن مخالفته، وفيه مصالح عظيمة من حفظ الأنساب وصيانة المرأة ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: إلا أن يفعلن فَعْلة شديدة القبح كالزنى، ومنه عند بعض العلماء سوء أخلاقها مع أهل الزوج، وقوله: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ بكسر الياء المشددة، أي: واضحة الفحش، هذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير وشعبة ﴿مُّبَيَّنَةٍ﴾ بفتح الياء، على صيغة اسم المفعول، أي: بيَّنها فاعلُها، وهي المرأة، وأفادت القراءتان معنيين.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: ما ذُكر من الأحكام: التطليق للعدة وإحصاء العدة وتقوى الله وعدم الإخراج وعدم الخروج ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لعباده، والحدود هي الأمور المانعة من المجاوزة، شبَّه ما شرعه تعالى من الأحكام بالحدود المانعة بين الشيئين، وأطلق عليها اسم الحد استعارة لكونها حاجزة بين الحق والباطل. المعنى: خذوا أنفسكم بهذه الأحكام، والزموها، واحذروا من تعديها والاستخفاف بها.

قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: ومن يتجاوزها ويخرج عنها فلا يعمل بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أضر بها وعرَّضها للعقاب، وفوَّت على نفسه إمكان

الرجعة كمن يطلق ثلاثا بلفظ واحد ﴿لَا تَدْرِي﴾ الخطاب للمطلِّق ولكل سامع ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ﴾ أي: يوجِد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: أمرا نافعا للزوجين، وهو أن يُلقى في قلب الزوج حب المرأة والندم على طلاقها فيراجعها.

۞ الفوائد والأحكام:

١- إكرام الله لنبيه ﷺ لخطابه بوصف النبوة والرسالة، دون غيره من الأنبياء.

٢- أن خطاب الله لنبيه وأمره له هو خطابٌ وأمرٌ لأمته، ونظائر ذلك كثيرة، يدل له جمع الضمير ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ بعد الإفراد، كقوله في سورة التحريم: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [التحريم: ٢] بعد قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١].

٣- أن النبي ﷺ حكمُه حكمُ أمته فيما شرعه الله لهم، كما أنهم تبع له فيما شرع الله له، إلا ما خصَّه الدليل.

٤- إباحة الطلاق إذا دعت إليه الحاجة، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

٥- أن لفظ النساء في القرآن يختلف المراد به، والسياق يعيِّن المراد، والمراد به هنا الزوجات.

٦- الإرشاد إلى معرفة أحكام الفعل قبل الإقدام عليه؛ لأن معنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أي: أردتم طلاق النساء.

٧- أن وقت الطلاق هو ما يحتسب من العِدة، وهو الطهر الذي لم يكن فيه مسيس؛ لذا استدل بالآية من يفسر الأقراء بالأطهار، كما قرر ذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسير سورة البقرة[1].

---

(١) أضواء البيان (١/ ٩٧) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٨- وجوب إحصاء العدة، وذلك بمعرفة ابتدائها وانتهائها، ومعرفة أنواع العِدد.

٩- وجوب تقوى الله في الطلاق والمطلقات وغير ذلك.

١٠- تأكيد الأمر بالتقوى بذكر الاسمين الدالين على الإلهية والربوبية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

١١- النهي عن إخراج المطلقات الرجعيات من بيوتهن، ونهيهن عن الخروج.

١٢- وجوب السُّكنى للمطلقات الرجعيات، كما يدل له صريحا قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾.

١٣- جواز إخراجهن إذا أتين بفاحشة مبيِّنة من زنى أو بَذاء.

١٤- أن المعصية التي دون الفاحشة لا تبيح إخراج المطلقة من بيتها.

١٥- التشديد فيما يبيح الإخراج؛ لقوله: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾.

١٦- أن هذه الأحكام من حدود الله التي لا يجوز تعديها بترك واجب أو فعل محرم.

١٧- أن تعدي حدود الله من ظلم النفس.

١٨- أن الظلم في القرآن يأتي بمعنى ظلم النفس بالمعصية، وإن كان الأغلب فيه أن المراد به الشرك؛ قال تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

١٩- بيان الحكمة من النهي عن إخراج المطلقات من بيوتهن وعن خروجهن، وهو ما قد يحدث من الرغبة في الرجعة، وهناك حِكم أخرى لا تخفى على المتدبر.

٢٠- أن المراد بالطلاق في هذه الآية هي الطلقة الأولى والثانية لا الثالثة، يفسرها قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولقوله تعالى هنا: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

٢١- أن المـراد بالطلاق في الآية ما بعـد الدخول؛ فإن المطلقة قبل الدخول لا عـدَّة عليهـا بالإجماع؛ لقوله تعالى فـي الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

٢٢- أن المـراد بالطـلاق في هذه الآية هو الطـلاق الرجعيُّ؛ لقوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، والبائنات لا يرجى لهن ذلك.

٢٣- أن الرغبة في الرجعة مما يحدثه الله في القلوب.

٢٤- أن الإحـداث من الله يكون كونيا وشـرعيا، وهو هنا كوني، ومن الشـرعي قوله ﷺ: «**إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن الله جل وعز قد أحدث من أمره أن لا تكلموا في الصلاة**»(١).

٢٥- أن الله هو مصرِّف القلوب.

٢٦- أن العباد لا يعلمون الغيب؛ لقوله: ﴿لَا تَدْرِى﴾.

٢٧- تسلية المطلقة برجاء الرجعة.

٢٨- أن من مقاصد الشرع استمرار النكاح ودوام العشرة، وذلك مما يحبه الله.

٢٩- أن لفـظ الأمـر فـي القرآن يأتـي بمعنى الشـيء، كما في هذه الآيـة، ويأتي بمعنـى الأمـر الذي هـو كلام طلبيٌّ، ويكـون كونيا وشـرعيا، والذي يعين ذلك السـياق والمقام؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ومن معاني الأمر في القرآن: الشـيءُ الذي يأمر الله به كونا أو شـرعا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) رواه أبو داود (٩٢٤)، والنسائي (١٢٢١)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه البخاري معلَّقا قبل الحديث (٧٠٨٤).

ثم ذكر الله ما يسُوغ للمطلق من الإمساك والفراق؛ فقال:

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان ما يجب على المطلق مراعاته، إذا قاربت المطلقة الرجعية انقضاء عدتها من الإمساك أو الفراق بالمعروف والإشهاد، وذلك وعظ من الله يثمر لمن راعاه التقوى، وللتقوى مع التوكل ثمرات تضمنتها الآيات، وأمر الله نافذ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ الفاء للتفريع على ما مضى من الأمر بالطلاق على الوجه الشرعي، فقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: إذا قرب انقضاء عدتهن فاعزموا على أحد الأمرين من الإمساك والفراق؛ لئلا تتعذر عليكم الرجعة التي كانت في مكنتكم من أول العدة، وفُسر بلوغ الأجل بالمقاربة لأنه إذا تمت العدة لا تمكن الرجعة، المعنى: إذا مضى ثلاث حيض ولم تغتسل من الحيضة الثالثة فأنتم بالخيار؛ إن شئتم إمساكهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ارجعوهن إلى عصمة النكاح بمعروف، والباء للمصاحبة، والمعروف ما عرف حسنه بالشرع والعقل، من حسن العشرة، وطيب المعاملة، والإنفاق اللائق، وترك التعيير، ونبذ الحقد، وعدم التهديد بطلاق آخر، ويفهم من قوله:

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ ألا يقصد الزوج بمراجعته مضارة المرأة، وهو أن يرجعها في آخر العدة إلى عصمته أياما ثم يطلقها؛ تطويلا لعدتها وتعذيبا لها، فذلك حرام، وهو من فعل أهل الجاهلية.

قوله سبحانه: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: بترك رجعتهن، مع إعطائهن حقوقهن من النفقة ومتعة الطلاق، كما يرشد إليه قوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مع عدم المضارة، و«أو» لإباحة الأمرين، وتقديم الإمساك لأنه أحب إلى الله ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هذا خطاب للأزواج، أي: أشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة صاحبَي عدل، أي: شاهدين عدلين من الرجال، فلا تصح شهادة النساء هنا، وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمين، وهذا الإشهاد أمر به لئلا يقع التجاحد من الطرفين، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الآخر ثبوت الزوجية ليرث.

وذهب الجمهور إلى أن هذا الإشهاد مندوب، وقيل: واجب، وهو ظاهر الكتاب والسنة للأمر به؛ فقد روى أهل السنن أن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: «طلقت لغير سنة، وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها، ولا تعد»(١).

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود، أي: أدُّوها إذا طلبت منكم خالصة لوجه الله دون ميل مع أحد الزوجين، وإقامة الشهادة أداؤها على أكمل وجه، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أقوى في الدلالة على وجوب أداء الشهادة من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ لأن تلك في البيوع وهذه في الفروج، وقد جاء الشرع بالاحتياط في الفروج.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى جميع ما تقدم من الأحكام ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يعظ الله به من كان يؤمن بالله وشرعه ويخاف

---

(١) رواه أبو داود (٢١٨٦)، وابن ماجه (٢٠٢٥)، وصححه الألباني.

يوم الحساب والجزاء، وسماه الله اليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، وغير المؤمن لا ينتفع بهذه المواعظ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي بفعل أوامره والانتهاء عن مناهيه بعامة، ومن ذلك أن يكون طلاقه على السنة، ولا يضار المعتدة ولا يخرجها من مسكنها، واحتاط فأشهد ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من كل ضائقة تنزل به، وفرجا من كل كرب، ويفتح له من أبواب الخير ما يسره، ولهذا قال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يخطر بباله، أي: يوسع له في رزقه.

قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يعتمد عليه ويفوض أموره كلَّها إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ أي: كافيه كلَّ ما يهمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بالغُ كلَّ أمر يريده ﷻ؛ إذ لا يمتنع منه شيء، ولا يفوته شيء، وهذا حث على التوكل؛ لأن العبد إذا علم أن الأمر كله لله وأنه تعالى لا يعجزه شيء، توكل على ربه، ولم يعول على سواه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: قد جعل الله لكل شيء من الطلاق والعدة وغير ذلك حدًّا وأجلا وقدْرا ينتهي إليه، تبعا لحكمته تعالى.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن المطلقة الرجعية يخير الزوج بين إمساكها وفراقها، ما دامت في العدة.

٢- أن ذلك له إلى أن تخرج من عدتها، وأما قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: إذا قاربن بلوغ أجلهن، كما تقدم في التفسير.

٣- أن القول قول المرأة في انقضاء العدة بالأقراء، كما يدل له قوله تعالى في البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٤- وجوب أن يكون هذا الإمساك أو الفراق بالمعروف، لا على وجه المضارة.

٥- مشروعية إشهاد عدلين على الطلاق والرجعة، قيل: إنه واجب، وقيل: مستحب، ولكنه ليس بشرط في الطلاق.

٦- في الآية شاهد لقول عمران بن حصين رضي الله عنه: «أشهد على طلاقها وعلى رجعتها»(١).

٧- وجوب أداء الشهادة دون ليٍّ ولا كتمان طاعة لله؛ لقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾.

٨- أن الأوامر والنواهي وعظ من الله لعباده.

٩- أن المنتفعين بوعظ الله هم من يؤمن بالله واليوم الآخر.

١٠- أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو الحامل على كل خير من فعل المأمور وترك المحظور، وذلك هو التقوى.

١١- إثبات اليوم الآخر، وأن الإيمان به من أركان الإيمان.

١٢- أن من ثواب التقوى العاجل الخروج من المضايق الحسية والمعنوية من أمر الدين والدنيا، ومن ثوابها سَوق الرزق من حيث لا يُتوقع.

١٣- الإشارة إلى ألطافه تعالى بعبده المؤمن في الرزق وفي غيره.

١٤- أن من اتقى الله في طلاق امرأته بلزوم السنة جعل الله له فرجا ومخرجا في هذا الطلاق، ومن لم يتق الله بل تعدى حدوده فقد عرَّض نفسه للحرج، ولم يجد له مخرجا.

١٥- الترغيب في التقوى والتوكل على الله.

١٦- الوعد بكفاية الله لمن توكل عليه.

١٧- أن مراد الله واقع ولا بد في الوقت الذي أراده تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، وأمره أي: مراده: المراد الكوني والشرعي.

١٨- أن الله جعل لكل شيء أجلا ومقدارا في أحكامه الكونية والشرعية.

١٩- إثبات الجعْل من الله تعالى، وهو في الآية شامل للكوني والشرعي.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

ثم ذكر الله عدة الآيسة من الحيض والتي لم تحض والحامل؛ فقال سبحانه:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان ذكر عِدد بعض الزوجات المفارَقات من أزواجهن، وهنَّ الآيسة من الحيض، والتي لم تحض، والحامل، وأتبع ذلك بالترغيب في تقوى الله، بذكر عواقبها الحميدة في العاجل والآجل.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ﴾ مبتدأ، خبره الجملة الشرطية وهي قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، أي: النساءُ المطلَّقاتُ اللواتي انقطع عنهن دم الحيض لكِبَرهن ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ اللاتي دخلتم بهن ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: إن شككتم وجهلتم عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ كلُّ شهر يقوم مقام حيضة، وهذا الحكم مبني على أن عدة المطلقة الرجعية ثلاثة قروء؛ لأن الآيسة ـ ومثلها الصغيرة ـ ليس لهما أقراء، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾ أي: الصغيرات، وهو مبتدأ حذف خبره لدلالة ما قبله عليه، أي: واللائي لم يحضن فعدتُهن ثلاثة أشهر.

وقوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ﴾ أي: صاحبات ﴿ٱلْأَحْمَالِ﴾ أي: المطلقات الحوامل ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ أي: نهاية عدتهن بوضع الحمل، ولا فرق في ذلك بين المطلقة

والمتوفى عنها، فمتى وضعتا حل لهما الزواج، ولو بعد الطلاق أو الموت بلحظة، وهذه الآية نزلت بعد آيتي البقرة، وهما قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهي مخصصة لهما، والحمل يقضي على ما عداه، ولهذا يسمى أمَّ العدد، وثبت في الصحيح أن سُبيعة الأسلمية كانت حُبلى لما توفي عنها زوجها وهو سعد بن خولة، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فأذن لها رسول الله ﷺ في النكاح، قالت: «فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي»[١]، وفي صحيح مسلم: قال ابن شهاب الزهري راوي الحديث: فلا أرى بأسا أن تتزوج حين وضعت، وإن كانت في دمها، غير أنه لا يقربها زوجها حتى تطهر[٢]، وكان ابن مسعود يباهل على أن آية سورة الطلاق نزلت بعد آية البقرة[٣]، أراد بذلك الرد على من أفتى بأن المتوفى عنها تعتد بآخر الأجلين.

فتبين مما تقدم:

١- أن ذوات الحيض عدتهن ثلاثة قروء.

٢- أن الكبيرات المنقطع عنهن الحيض والصغيرات اللائي لم يحضن بعد، عدتهن ثلاثة أشهر، ويدخل في حكمهن من لا تحيض أبدا.

٣- أن الحوامل عدتهن وضعُ الحمل، حتى ولو كنَّ يحضن زمن الحمل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي: ومن يَخفِ الله بامتثال أحكامه وإقامة حدوده ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ «مِن» بمعنى في، و«أمر» مفرد مضاف، أي: يجعل له في جميع أموره وشؤونه يسرا وسهولة ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما ذكر من

(١) رواه البخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (١٤٨٤).

(٢) صحيح مسلم (١٤٨٤).

(٣) رواه ابن جرير في التفسير (٢٣/ ٥٤)، والنسائي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني.

الأحكام العظيمة في الطلاق والعدة ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: حكمه وشرعه ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ من فوق سبع سماوات وحيًا إلى رسوله لتعملوا به ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي: يمحو ذنوبه؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي: يضاعف له الثواب؛ لأن الله يعطي على القليل الكثير، ويضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها، وكرر الترغيب في التقوى لأنها ملاك الأمور، وسببٌ للفوز بكل خير والسلامة من كل شر في الدنيا والآخرة.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن عدة المطلَّقة الرجعية الآيسة من الحيض ثلاثة أشهر، وكذلك التي لم تحض.

٢- أن الآية قد تشتمل على قيد من شرط أو وصف لا مفهوم له، مراعاة لحال المخاطب، وذلك في قوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾.

٣- أن انقضاء عدة الحامل بوضع الحمل، سواء كانت مطلَّقةً أو متوفى عنها.

٤- أن هذه الآية مخصِّصة لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ومخصِّصةٌ لما في صدر الآية من عدة الآيسة والتي لم تحض.

٥- جواز إنكاح الصغيرة؛ لقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾، ففيه:

٦- الرد على من يحرمه أو يعيبه من المستغربين.

٧- أن الحامل لا تنقضي عدتها بوضع أول التوأمين؛ لأنه بعضُ الحمل لا كلُّ الحمل.

٨- أن من عواقب التقوى تكفير السيئات وإعظام الأجور.

٩- إثبات الأمر الشرعي.

١٠- أن حكم المعتدات حكمٌ منزل من الله؛ فيجب اتباعه ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣].

١١- إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾.

ولما ذكر الله الطلاق الرجعي وما يجب به من العدة، ذكر أحكاما تترتب على الطلاق من السكن والنفقة؛ فقال سبحانه:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هاتان الآيتان بيان ما يجب للمطلقة الرجعية على مطلِّقها من السكنى والنفقة، بحسب استطاعته.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي: المطلقات الرجعيات في أثناء العدة؛ لأن الحديث عنهن، والخطاب للأزواج، ولا خلاف بين أهل العلم أن الرجعية تجب لها النفقة والسكنى مدة العدة، واختلفوا في المبتوتة ثلاثا، فذهب الإمام أحمد وجماعة من السلف إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى إلا أن تكون حاملا، وقد دل على ذلك حديث فاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو حفص بن عمرو المخزومي ثلاثا، فقال لها النبي ﷺ حين جاءت تستفتيه: «**لا نفقة لك، ولا سكنى**»، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «**تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك**»[1]، وأما

(١) رواه مسلم (١٤٨٠).

المتوفَّى عنها فلا نفقة لها ولا سكنى عند أكثر أهل العلم إلا أن تكون حاملا، فينفق عليها من مال الحمل.

وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: على الوجه الذي تسكنونه ملكا أو كراءً، وكثير من المفسرين جعل المعنى: أسكنوهن مكانا في بعض مسكنكم الذي تسكنون فيه، فـ«مِنْ» للتبعيض، كما في قولهم: جئت من الليل، أي: في بعض الليل ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: موجودكم، وأصل الوُجد الوسع والطاقة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي: لا تؤذوهن ولا تضروهن ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: في النفقة وفي السكنى فتلجؤوهن إلى الخروج منه ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: صاحبات حمل ﴿فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فالنفقة من أجل الحمل حتى يلدن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: المطلقات بعد خروجهن من العدة بوضع الحمل ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ أي: فأعطوهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ على الرضاع من النفقة والكسوة وما تحتاجه المرضعة من المؤن، وفيه دليل على أن اللبن ملك لها. قوله: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتمار والتآمر هو التشاور، والخطاب للأزواج من الرجال والنساء، أي: تشاوروا في تقدير الأجرة وليأمر بعضكم بعضا بالمسامحة والقول الجميل، فيؤدي الأب الذي عليه، وتحسن الأم إلى الصبي ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: اختلفتم ولم تتفقوا، وذلك بامتناع الأم من الإرضاع أو الرجل من بذل الأجرة، وفي الآية عتاب للرجل والمرأة ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: فستوجد امرأة أخرى غير الأم ترضع للأب طفله، وهذا خبر في معنى الأمر، أي: فعلى الأب أن يطلب مرضعة أخرى.

ثم إن الله بيَّن قدر الإنفاق فقال: ﴿لِيُنفِقْ﴾ بالجزم، واللام لام الأمر، أي: لينفق على المطلقات والمرضعات ﴿ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: ذو غِنى على قدر غناه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: ضيق عليه ﴿رِزْقُهُۥ﴾ وهو الفقير ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ

ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: مما أعطاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ أي: في النفقة ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: من الرزق، وهذا إجمال بعد تفصيل، والعبرة بحال الزوج وقدرته على النفقة، ثم إن الله وعد المعسرين وعدا مؤكَّدا بالرخاء وفتح أبواب الرزق وبالتيسير بعد العسر، فقال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ لأن سنته تعالى أن يُتبع الشدة بالسعة والكرْب بالفرَج، فعلى العبد أن يتقي الله، ويعمل بما يحبه الله من الأعمال ويرضاه.

ومن تدبر هذه الآيات كلِّها من أول السورة، وتأمل كيف عالجت أخصَّ النوازل الأُسْرية، وهي مسائل الطلاق والرجعة والنفقة بالأحكام العادلة والشرائع المرضية، مع مراعاة الأحوال، وتطييب نفوس النساء والرجال، مع ما تخلل ذلك من الترغيب في تقوى الله، والتذكير باليوم الآخر، بالأسلوب الجميل والعبارة الموجزة المؤثرة في القلوب أعظم تأثير، من تأمل ذلك كله أدرك سرَّ الإعجاز في نظم القرآن العظيم المنزل من الحكيم العليم، فسبحان من أنزله، وبحلية الإيجاز والإعجاز جمَّله وكمَّله.

۞ الفوائد والأحكام:

١- وجوب السُّكْنى والنفقة للمطلقة الرجعية، مما يسكن في مثله الزوج، مما هو واجد له.

٢- وجوب نفقة الولد على أبيه.

٣- تحريم مضارة الرجل لمطلقته بقول أو فعل للتضييق عليها كمنعها من السكنى، وترك الإنفاق عليها.

٤- أن قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ مقيَّد بما تضمنته الآية الأولى

من قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾.

٥- أن المطلقة الحامل تجب لها النفقة مطلقا حتى تضع حملها.

٦- أن المطلقة إذا بانت ولها طفل ترضعه فتجب لها أجرة الإرضاع.

٧- أن الأم أحقُّ بإرضاع الطفل وأخذ أجرة، ولو وجد متطوعة أجنبية.

٨- أن الأجرة تقدر بحسب العرف.

٩- اعتبار الشرع للعرف في المعاملات.

١٠- أن الإجارة على ما لا يمكن تعيينه ولا ضبطه من المنافع جائزة؛ كإجارة الظئر والعبد للخدمة.

١١- في الآية شاهد لقوله ﷺ لهند زوجة أبي سفيان: «**خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف**»(١).

١٢- أن أمَّ الطفل أحق بإرضاعه؛ فإن اختلفا في قدر الأجرة، أو امتنعت الأم من الإرضاع دفع إلى غيرها إن أمكن، وإلا وجب على الأم إرضاعه.

١٣- أن الأم أحق بحضانة الرضيع.

١٤- أن ما يجب من النفقة على الزوج يقدر بحسب يساره وإعساره.

١٥- أن المعتبر في النفقة حال الزوج إيسارا وإعسارا.

١٦- أن الواجبات الشرعية مقيدة بالاستطاعة، وهذا راجع إلى يسر الشريعة ورحمة الله بعباده، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

١٧- أن التقتير في النفقة مع السعة مذموم تحريما أو كراهة.

١٨- أن الإعسار في النفقة لا يوجب الفسخ للمرأة، وهو مذهب أبي حنيفة

(١) رواه البخاري: (٥٠٤٩)، ومسلم (١٧١٤).

وأهل الظاهر، ونصره ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد[١].

١٩- البشارة من الله للمعسر أن يعقبه يسرا.

٢٠- استحباب مراعاة الإنسان حالَ نفسه في النفقة والصدقة.

٢١- أن الرزق هو ما مُلك من المنافع والأعيان، ولو لم ينتفع به صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ فأضاف الرزق إليه.

٢٢- كمال الشريعة ووفاؤها بحقوق العباد لبعضهم على بعض.

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٥١١).

ولما ذكر الله في هذه السورة حدودا ونهى عن تعديها ذكر عاقبة الذين تعدَّوا حدوده من الأمم الماضية وما حلَّ بهم من المثُلات؛ فقال سبحانه:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات الخبر من الله عن كثرة الأمم العاصية العاتية من أهل القرى الذين عصوا ربهم ورسله، فعاقبهم الله وعذبهم عذابا فظيعا منكرا، فكان عاقبتهم الخسران، ومع ذلك أعد الله لهم عذابا شديدا في الآخرة، فجمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ثم أمر ذوي العقول المدركة لحقائق الأمور، الذين منَّ الله عليهم بالإيمان أن يتقوه، وذكَّرهم بما أنزل عليهم من الذكر الذي جاء به الرسول ﷺ، ومن حكمته تعالى أنه بهذا الذكر وبهذا الرسول يخرج الذين آمنوا به من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان، ويدخلهم يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار، يرزقهم فيها رزقا حسنا، هنيئا ومتشابها دائما، لا يشوبه كدر ولا انقطاع.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ «كأين» بمعنى «كم» الخبرية الدالة على الكثرة(١)، أي: وكثير من القرى السالفة، والقَرْية هي البلدة العامرة بالسكان،

(١) قال سيبويه في «كأين»: «أكثر العرب إنما يتكلمون بها مع «مِن»... فإنما ألزموها «مِنْ» =

فتشمل الصغيرة والكبيرة، وفي سورة «يس» قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس: ١٣]، ثم قال بعد آيات: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: ٢٠].

وقوله: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: طغت وتمردت على أوامر الله ورسله، وعُدِّي الفعل «عتت» بـ«عن» لتضمنه معنى أعرضت ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ أي: استقصينا أعمالهم السيئة، ولم نتجاوز عن شيء منها ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي: عذابا منكرا فظيعا من الدَّمار والخسف والموت، وانتقمنا منهم ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ أي: تجرعت سوء عاقبة كفرها، والوبال في الأصل هو الثِّقَل والمكروه، ومنه: طعام وبِيل، إذا كان ثقيلا على المعدة، ومطر وابل، أي: ثقيل القطر، ثم صار الوبال مستعملا في كل ما يؤذي معنويا؛ لأنه ثقيل على النفس ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ أي: خسرانا عظيما بيِّنًا، وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ عبَّر بضمير الجمع «لَهُمْ» مراعاة للمعنى، والضمائر قبل ذلك فيها مراعاة للفظ قرية، المعنى: هيَّأ الله لأهل تلك القرية المتجبرين عذابا عظيما مؤبَّدًا يفوق الوصف، وهو نار جهنم.

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اخشوه وأطيعوه فيما يأمركم به من الطاعات واجتنبوا ما ينهاكم عنه من المعاصي لئلا يصيبكم ما أصابهم ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: يا أصحاب العقول الخالصة، جمع لُبّ، وخصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالخطاب، فهم أهل التأمل والتفكر، وقد بيَّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾؛ لأن إيمانهم دليل على أنهم أهل عقل وتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾ يذكركم بالله وشرائعه.

ثم بيَّن الله هذا الذكر على سبيل بدل الاشتمال فقال: ﴿رَّسُولٗا﴾ هو محمد ﷺ،

= لأنها توكيد، فجُعلت كأنها شيء يتم به الكلام، وصار كالمَثَل». الكتاب (١/ ٢٩٧).

وعبَّر عن إرساله بالإنزال لأن ما جاء به منزَّل من الله ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: تُبيِّن الحق من الباطل ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وأضاف الإخراج إلى الرسول ﷺ لأنه السبب في خروجهم من الظلمات إلى النور ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: ومن يصدق بالله ورسوله ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وقد ذكر الله لنا من أنهار الجنة: أنهار الماء وأنهار اللبن وأنهار الخمر وأنهار العسل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهذا من تمام النعيم، فهم خالدون فيها أبد الآباد، فلا يموتون، وما هم منها بمخرجين.

قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي: طيَّب الله رزقهم في الجنة، والجملة تعجيب من ثواب الجنة، وليست خبرا محضا؛ لأن من المعلوم أن كلَّ ما يُرزقونه في الجنة من الطعام والشراب وغير ذلك حسَنٌ طيب، لا تدرك كنهَه العقول والأوهام، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]، ومن لطائف اللغة في الآية إفراد الضمير في «يُدْخِلْهُ» حملا على لفظ «مَنْ»، وجمع «خَالِدِينَ» حملا على معناها، ثم مراعاة لفظ «مَنْ» في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾، وهذا من التفنن والتنويع في أساليب الكلام، وهو من أودية البلاغة.

۞ الفوائد والأحكام:

١- التحذير من مخالفة ما سبق من الأوامر والنواهي في هذه السورة مما يتعلق بالطلاق والعِدد والنَّفقة والرضاع.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٣٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- كثرة الأمم الهالكة بسبب كفرها بالله وعصيانها لرسله.

٣- أن الله جمع لهم بين الحساب والعذاب، معجَّلا في الدنيا.

٤- شدة عذابهم وفظاعته.

٥- أن ما أصابهم من الحساب والعذاب بسبب كفرهم وعصيانهم، كما يفيده قوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾.

٦- أن من سوء عاقبتهم خسرانَ أنفسهم وأهليهم، وذلك الخسران المبين.

٧- أن عذاب الكافرين في الدنيا لا يكفِّر ذنوبهم فينجوا من عذاب الآخرة، بل يعذبون في الدنيا والآخرة.

٨- وجوب الاعتبار بما جرى على الهالكين بسبب كفرهم ومعصيتهم.

٩- أن سبب النجاة من عذاب الدنيا والآخرة تقوى الله.

١٠- أن العقل والإيمان يقتضيان تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله.

١١- أن إنزال القرآن وإرسال الرسول أعظم النعم على المؤمنين، فتستوجب الشكران.

١٢- إثبات علو الله تعالى؛ لقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، فالنزول والتنزيل لا يكون إلا من علو.

١٣- أن وظيفة الرسول التذكير بما أنزل عليه من الذكر.

١٤- أن من طرق التبليغ تلاوة آيات الله.

١٥- أن آيات الله بيِّنة واضحة ومبيِّنة للحق والباطل والهدى والضلال.

١٦- أن الحكمة من تلاوة الرسول لآيات الله إخراج من شاء الله من الظلمات إلى النور، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

١٧- أن الكفر والجهل بدين الله ظلمات، والعلمَ والإيمانَ نورٌ.

١٨- أن الإيمان والعمل الصالح هما السبب الأعظم لدخول الجنة.

١٩- اعتبار العمل في دخول الجنة.

٢٠- أن العمل لا بد أن يكون صالحا، وهو ما اجتمع فيه الإخلاص واتباع الرسول.

٢١- إثبات الأسباب.

٢٢- إثبات الجنة، وأن أهلها مخلدون فيها.

٢٣- اعتبار الخلود في النعيم؛ لأنه لا يتم النعيم إلا به.

٢٤- دوام الجنة ودوام أهلها فيها.

٢٥- حسنُ رزق أهل الجنة حسًّا ومعنى.

٢٦- الرد على من قال بفناء الجنة، وهم الجهمية.

ولما أخبر الله عن آثار قدرته ذكر شيئا من أدلة ذلك؛ فقال سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى عن خلقه للسماوات والأرض، وأنه جعل السماوات سبعا والأرضين سبعا، وأن أمره يتنزل بينهن، وذكَر حكمته في ذلك، وهي علم العباد بقدرته على كل شيء، وإحاطة علمه بكل شيء.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ أي: الله وحده هو الذي ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ جمع سماء، أي: أوجدها بقدرته بعد أن لم تكن، وقدمت السماوات لعظمها وعلوها وشرف سكانها ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي: وخلق من الأرض مثلَهن أي: سبعًا، فالمثلية في العدد لا في الكيفية، وجمعت السموات -والله أعلم- لأن كل سماء مستقلة عن السماء الأخرى، وأفردت الأرض لأنها بخلاف ذلك، أي: متصل بعضها ببعض، بلا فتوق بينهن ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي: يتنزل أمره تعالى بين السماوات والأرضين، وهو أمره الكوني بالخلق والتدبير، وأمرُه الشرعي بالوحي وإنزال الكتب ومنها القرآن ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ اللام للتعليل، أي: أخبركم الله بذلك لأجل أن تعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يفوته شيء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء في الوجود؛ فلا تخفى عليه خافية، وهذان عمومان في إثبات قدرته

تعالى وسعة علمه لا مخصص لهما، وختام السورة بهذه الآية الكريمة الدالة على عظيم قدرته وإحاطة علمه ﷻ ليكون باعثا على تعظيم شرعه وامتثال ما أمر به.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن الله هو خالق السماوات والأرضين.

٢- أن من أفعاله تعالى الخلقَ للأشياء.

٣- أن من مخلوقات الله السماوات والأرض.

٤- الفرق بين الفعل والمفعول؛ فالخلق فعلُه والسماوات مفعولُه، ففيها:

٥- إثبات قيام الأفعال الاختيارية به تعالى.

٦- الرد على نفاة قيام الأفعال الاختيارية بالله من الأشاعرة وغيرهم.

٧- أن السماوات سبع.

٨- أن الأرضين سبع.

٩- أن التماثل بين السماء والأرض في العدد لا في الكيفية.

١٠- الفرق بين الخلق والأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١١- ذكر الحكمة من خلق السماوات والأرض وتنزل الأمر، في قوله: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾.

١٢- إثبات العلو لله تعالى.

١٣- إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى.

١٤- إثبات قدرته تعالى على كل شيء.

١٥- إثبات إحاطة علمه بكل شيء.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

هذه السورة مدنية وعدد آياتها اثنتا عشرة آية؛ افتتحت بخطاب النبي ﷺ لعتابه على تحريم ما أحل الله له، وشرعِ التحلل من تلك اليمين وغيرها من الأيمان، وما تلا ذلك من إسرار النبي ﷺ لبعض أزواجه حديثا، وإنبائها به، وإظهار الله نبيه على ذلك، ثم دعوة الله المرأتين المتآمرتين إلى التوبة، وبيان منزلة النبي ﷺ، وذلك بأمرين: الأول: ذكر ولايته تعالى وملائكته وعباده الصالحين للنبي ﷺ. الثاني: وعده ﷺ بتعويضه عن أزواجه لو طلقهن خيرا منهن، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ، وتوبيخ للمرأتين وتحقير لكيدهما، ثم إنه تعالى أمر المؤمنين أن يتقوا النار، ويقوا أهليهم وأنفسهم إياها، وذكر ما يدل على فظاعة العذاب بها، كما أمر المؤمنين بالتوبة النصوح، وبين أنها سبب لتكفير السيئات ودخول الجنات، ثم أمر النبي بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم، وتوعدهم بنار جهنم، وختمت السورة بضرب مثل للكافرين، وهما امرأة نوح وامرأة لوط، ومثل للمؤمنين، وهما امرأة فرعون ومريم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان عتاب الله لنبيه على تحريم ما أحل الله له، ونَدْبَه ﷺ إلى التحلل من يمينه.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ هذا خطاب تكريم وتشريف للنبي ﷺ، وإعلام بعلو منزلته عند الله؛ فإنه تعالى لم يخاطبه باسمه في القرآن من بين سائر الأنبياء، بل بوصف النبوة أو الرسالة، كما تقدمت الإشارة إليه ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ أي: لأيِّ شيء حرَّمت على نفسك ما أباح الله لك؟ وفي هذا الاستفهام عتاب لطيف من الله لنبيه، ودعوة له أن يرفق بنفسه الشريفة، وألَّا يحملها على ما يكره في سبيل إرضاء غيره.

وقد اختلف العلماء في الذي حرمه النبي على نفسه، فقيل: العسل؛ فإنه عليه السلام شرب عسلا عند زينب، فتواطأت عائشة وحفصة بدافع الغيرة أيتهما دخل عليها أن تقول له: إني أجد منك ريح المغافير(١)، فقال ﷺ: «**لا، ولكني كنت أشرب**

---

(١) نبات حلو الطعم كريه الرائحة، واحده مُغفور.

عسلا عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحدا»[١].

وقيل: بل الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه جاريته مارية، فإنه خلا بها ذات يوم في بيت حفصة، فغضبت حفصة لذلك، فقال ﷺ: «لا تخبري أحدا، وإنَّ أمَّ إبراهيم عليَّ حرام»، فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: «فو الله لا أقربها»، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[٢]، وهذا ما عليه جمهور المفسرين أن الآيات نزلت في قصة مارية، ويؤيده قوله تعالى: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾؛ فإن تحريم العسل لم يقصد به إرضاء أزواجه، وإنما تركه لرائحته، وذهب بعض العلماء، ومنهم ابن جرير الطبري والحافظ ابن حجر إلى القول بتعدد النزول؛ فتكون الآية نزلت في قصة العسل وخبر مارية رضي الله عنها[٣]. والله أعلم.

والتحريم الذي صدر من النبي ﷺ ليس هو التحريم الشرعي الذي يوجب اعتقاد الحلال حراما، فحاشاه ﷺ ذلك، بل هو تحريم بمعنى الامتناع عن الشيء والتزام ذلك، وفي هذا تضييق من النبي ﷺ على نفسه، ولذا جاء العتاب لطيفا من الله بطريق الاستفهام، ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: واسع المغفرة عظيم الرحمة، وفي ذلك إشارة إلى مغفرته تعالى لنبيه ﷺ ما صدر

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٨)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) رواه الهيثم بن كليب في مسنده بإسناد صحيح، كما قال الحافظ ابن كثير، وساق إسناده، وقال: «ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج».

قلت: والمستخرج هو المعروف بـ«المختارة»، وهي ما اختاره الضياء من الأحاديث الجياد المختارة الزائدة على ما في الصحيحين، وهو أعلى مرتبة من تصحيح الحاكم، وهو قريب من تصحيح الترمذي وأبي حاتم البستي ونحوهما، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. ينظر: الرد على الإخنائي (ص٢٦٤).

(٣) فتح الباري (٩/ ٣٧٦).

منه، وهذه الآية فيما تضمنته من العتاب اللطيف كقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٣٤]، لكنها أعظم لطفا؛ لذكر الرحمة مع المغفرة، فهذه الآيات وأمثالها تبين عن علو منزلة النبي ﷺ عند ربه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ التَحِلَّة: مصدر حَلَّل تحليلا وتَحِلَّة، مثل كَرَّم تكريما وتكرِمة، أصل تَحِلَّة تحْلِلَة، نقلت كسرة اللام إلى الحاء، وأدغمت اللام في اللام، المعنى: شرع الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ تحليل أيمانكم، وهو حلُّها الذي هو خلاف العَقد، وذلك بالكفارة عنها بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فإذا حرَّم الرجل على نفسه شيئا من طعام أو غيره فهي يمين يخرج منها بالكفارة، والظاهر أن النبي ﷺ كفَّر عن يمينه، فإن سبيله في ذلك سبيل الأمة.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: وليُّكم في جميع شؤونكم والرفيق بكم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الكامل العلم بخلقه وما يصلحهم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الحكيم في تدبيره وتقديره وشرعه، وتقديم العليم على الحكيم لأن الإحكام والإتقان ناشئ عن العلم.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله لنبيه ﷺ في خطابه بوصف النبوة.

٢- رفق الله في عتابه لنبيه ﷺ؛ وذلك لثلاثة أمور:

الأول: تصدير العتاب بالخطاب بوصف النبوة.

الثاني: العتاب بصيغة الاستفهام.

الثالث: ختم الآية بذكر المغفرة والرحمة.

٣- أن الأصل في خطاب الله لنبيه ﷺ أنه عام له وللأمة، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، ثـم قـال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، إلا أن يقـوم الدليل على أن الحكم خاص به ﷺ.

٤- أنـه لا يجوز تحريـم الحلال، والتحريم في الآية معنـاه التزام الامتناع عن الحلال، لا الحكم بتحريمه شرعا.

٥- أن التحريـم يميـنٌ ترفعـه الكفـارة؛ لقولـه تعالـى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، بعد قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾.

٦- أن حكم الآية عام في جميع أيمان المسلمين.

٧- تيسير الله على عباده في شرعه.

٨- جواز التكفير قبل الحِنث؛ لقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾.

٩- أن الحلف على ترك الشيء تحريمٌ.

١٠- أنه لا يجوز تحريم ما أحلَّ الله لإرضاء أحد من الناس.

١١- أن من حرَّم شـيئا: زوجة أو طعاما لم يحرُم عليه ذلك، وتلزمه الكفارة إن حَنِث.

١٢- أن النبي ﷺ قد يخطئ، ولكن لا يُقرُّ على خطأ.

١٣- أنه ﷺ ليس معصوما من الصغائر.

١٤- أن من يرتكب الخطأ ملوم.

١٥- أن تحريـم الحـلال بالتـزام الامتنـاع منـه مما يُنهـى عنه، ويحتـاج فيه إلى المغفرة.

١٦- استحباب مداراة كل من الزوجين للآخر.

١٧- التعبيـر عـن المثنى بالجمع؛ لأن المسـترضَى مـن أزواج النبي ﷺ اثنتان،

ولعل السبب في ذكر الجمع أن الحكم لا يختص بهما.

١٨- إثبات الاسمين الكريمين لله ﷻ «الغفور» و«الرحيم» وما يدلان عليه من صفة المغفرة والرحمة.

١٩- مشروعية التحلل من اليمين، وذلك إذا كان غيرها خيرا منها، كما دلَّت السنة على ذلك، قال ﷺ: **«من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه»**[(١)]، وأخبر ﷺ بذلك عن نفسه فقال: **«وإني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»** [(٢)].

٢٠- أن الفرض يأتي لغير الوجوب، وذلك إذا عدِّي باللام.

٢١- أن الله مولى نبيه ﷺ ومولى المؤمنين.

٢٢- أن مِنْ وَلايته تعالى للمؤمنين شرعَه ما به رفقٌ بهم وتيسير عليهم.

٢٣- أن ما يشرعه الله لعباده المؤمنين هو مقتضَى ولايته وعلمه وحكمته.

٢٤- إثبات الاسمين العليم والحكيم، وما يدلان عليه من صفتي العلم والحكمة.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ومسلم- واللفظ له- (١٦٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في الصحيحين أيضا عن آخرين.

(٢) رواه البخاري (٢٩٦٤)، ومسلم (١٦٤٩)؛ عن أبي موسى رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآيات عمَّا كان من النبي ﷺ من إسراره حديثا إلى بعض أزواجه، فأخبرت به أخرى منهنَّ فأطلع الله نبيه على ذلك، فعرَّف التي أفشت السر ببعض ما أفشته، وترك بعضه، فتعجبت وقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، ثم إنه تعالى عرَض على المرأتين أن تتوبا؛ لأنه قد وقع منهما ما تجب منه التوبة، لقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وأخبرهما أنهما إن دام تعاونهما على ما يكرهه ﷺ فلن يضره ذلك؛ لأن الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، وبعد ذلك الملائكة كلهم معاونون للنبي ﷺ، وأخبر تعالى أنه لو أدَّى ما وقع إلى طلاقهن جميعا فلن يضره ذلك؛ لأنه تعالى قادر على أن يبدله أزواجا خيرا منهن بتلك الصفات المذكورة في الآية: مسلمات مؤمنات... إلخ، بل إنه سيفعل ذلك لو كان طلاقٌ.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ هذا شروع في بيان تفاصيل قصة التحريم، أي: واذكر أيها السامع حين أسرَّ النبيُّ ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ وهي حفصة، ولم يصرح باسمها؛ لما في الكناية من الستر اللائق بأمهات المؤمنين، ولأن القصد هو معرفة

الخبر وما تعلق به من أحكام دون تعيين الأسماء، وهذه طريقة القرآن وطريقة والسنة؛ فإن النبي ﷺ كان يقول: «ما بال أقوام».

قوله: ﴿حَدِيثًا﴾ مفعول ﴿أَسَرَّ﴾ والمراد حديث تحريم مارية على نفسه أو تحريمه العسل؛ فإنه ﷺ استكتم حفصة الحديث، ونهاها أن تحدِّث به أحدًا، ولكنها لم تكتم السر، بل أفشته ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: نبَّأت حفصة به عائشة، وكانت صديقة لها ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطْلع الله نبيَّه على ما فعلتْ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي: أَعلمَ حفصة بعض الحديث الذي أفشته ﴿وَأَعْرَضَ﴾ أي: وسكت ﴿عَنۢ بَعْضٍ﴾ وهذا من كرمه ﷺ وحسن خلقه، ورفقه بأمهات المؤمنين، وقد قيل: ما استقصى كريم قطُّ، وقال سفيان: مازال التغافل من فعل الكرام ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: فلما أخبر الرسول ﷺ حفصة بأنها أفشت سرَّه ﴿قَالَتْ﴾ حفصة ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: من أخبرك أني أفشيت السر؟ ظنًّا منها أن عائشة أخبرته به، وهذا استفهام حقيقي مشوب بالتعجب ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: أخبرني به الله العليم بالسر والنجوى، الخبير بما في الأرض والسماء الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم جاءت الدعوة من الله للمرأتين لتتوبا بطريق الخطاب ليكون أبلغ في الزجر، فقال سبحانه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن ترجعا إلى الله نادمتين، وجواب الشرط محذوف للعلم به، أي: فذلك خير لكما ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: مالت عن الحق، وهذه الجملة تعليل للشرط، وليست جزاء - أي جوابا - له؛ لأن صَغْي قلوبهما سابق على الشرط، فلا يصح كونه جزاءً له. المعنى: إن تتوبا إلى الله من الذنب، وهو أنه قد صَغَت قلوبكما، وجمعت القلوب والمراد قلباكما، على مقتضى أسلوب العرب، لئلا تجتمع تثنيتان في المضاف والمضاف إليه، اللذين

هما كالكلمة الواحدة، وذلك مستثقل في اللسان العربي.

قال ابن عباس: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجًّا فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، قلت: يا أمير المؤمنين؛ مَن اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت له: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل؛ ما ظننتَ أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خَبَّرتك به[1]. ثم قصَّ عليه الخبر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ الأصل: تتظاهرا عليه، حذفت إحدى التاءين تخفيفا، أي: وإن تتعاونا عليه بما يؤذيه ﷺ بسبب الغيرة ولم تتوبا من ذلك فلا يضره ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ أي: ناصره ومؤيده ﴿وَجِبۡرِيلُ﴾ وهو أفضل الملائكة ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي: صلحاؤهم، فهؤلاء كلهم أولياؤه ﷺ، فصالح مفرد مضاف فيفيد العموم، وصالح المؤمنين كلُّ من آمن وعمل صالحا ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كلهم، وهو مبتدأ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مع ما ذُكر ﴿ظَهِيرٌ﴾ خبر، أي: مظاهرون له وأعوان، وظهير يطلق على الواحد والجمع، ومثله «رفيق» في قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

واعلم أن في نصر الله الكفاية؛ فإنه تعالى أعظم الأنصار، وهو القويُّ الجبَّار، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، ولكن الكلام مسوق لتعظيم أمر النبي ﷺ والتحذير من الاجتراء عليه، وليس ما ذُكر خاصًّا بالمرأتين وبما كان منهما، بل هو عام في كل من يعاديه أو يؤذيه ﷺ، فيا ويح من ناوأ النبي! ويا شقاء من آذاه!

روى مسلم في صحيحه أن عمر جاء إلى النبي ﷺ لما وقعت القصة، فقال: يا

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩).

رسول الله؛ ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر، والمؤمنون معك، فنزلت الآية موافقة له(١).

ثم حذر الله نساء النبي، وذكر لهنَّ أنه ﷺ قد يطلقهنَّ، ولو طلقهن لأبدله الله خيرا منهن، فقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي: يزوجه، و«عسى» من الله واجبة، قاله ابن عباس(٢)، ولكن الله علَّق التبديل بشرط وهو التطليق، وهذا وعد من الله ـ وهو القادر على كل شيء ـ فيه تسلية للنبي ﷺ، وتربية لنسائه، وليس فيه ما يدل على أن في الوجود خيرا من أمهات المؤمنين، فهذه الخيرية لما علقت بما لم يقع ـ وهو الطلاق ـ لم تكن واقعة في نفسها، فهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ثم وصف الله المبدَل بهنَّ بقوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي: مقرات بالإسلام وأحكامه ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ بالله ورسوله، وقدم الإسلام على الإيمان للترقي؛ فالإيمان يتعلق بالقلوب فهو أخص من الإسلام، فإن الإسلام يتعلق بالظاهر ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي: دائمات الطاعة لله ولرسوله، فالقنوت أخص من الإيمان ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي: راجعات إلى الله من ذنوبهن ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: كثيرات العبادة ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي: منهن الثيبات ومنهن الأبكار، وجاءت الواو بين الثيبات والأبكار لأنهما صفتان لا تجتمعان في واحد، بخلاف سائر الصفات، وذِكْر الجنسين قيل: لأن في زوجاته ﷺ الثيّب والبكر، وقال ابن كثير: وذكر الثيبات والأبكار ليكون أشهى إلى النفس؛ فإن التنوع يبسط النفس.

---

(١) مسلم (١٤٧٩).

(٢) رواه ابن جرير (١١/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٦٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٣)، وإسناده حسن.

۞ الفوائد والأحكام:

١- جواز أن يسرَّ الإنسان إلى بعض خاصَّته بعض مالم يُطْلِع عليه غيرَه.

٢- أن التي أسرَّ إليها النبي ﷺ أخبرت بالحديث غيرها.

٣- أن الله أطلع نبيه على إفشائها الحديث الذي أسرَّ إليها بقرائن أو بوحي، والظاهر أنه بوحي؛ لقوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

٤- جواز معاتبة الإنسان لمن وقع منه خطأ في حقه، واستحباب التسامح في ذلك.

٥- حسن خلقه ﷺ؛ لقوله: ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾.

٦- أن من أخلاق الكرام التغاضي وعدم الاستقصاء.

٧- أن الإنسان قد يذهل عن الأمر الظاهر، كما وقع من تلك المرأة، فإنها قالت: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾، وهي تعلم أن الوحي يأتيه صباحا ومساء.

٨- أن من الوحي ما ينزل على النبي ﷺ نصرة له في أمر من الأمور الخاصة به.

٩- إثبات اسمين من أسمائه تعالى «العليم» و«الخبير»، وما تضمناه من العلم والخِبرة.

١٠- وجوب حفظ السر الذي يؤتمن عليه الإنسان.

١١- تحريم إفشاء السر لدى من استودِعه، وأنه أمانة.

١٢- أن إفشاء السر يشترك فيه من أفشاه ومن أصغى إليه.

١٣- تعظيم الله ما وقع من إفشاء سره ﷺ، والتظاهرِ عليه في ذلك بذكر ولايته والمؤمنين لنبيه، وكذلك الملائكة، وبذكر ما سيفعله سبحانه لنبيه ﷺ لو طلق جميع نسائه.

١٤- أن هذا العتب واللوم والوعد بالإبدال شاملٌ لعائشة رضي الله عنها بأن يبدله الله بكرا غيرها لو طلقها.

١٥- فضل جبريل عليه السلام لتخصيصه بالذكر مع دخوله في عموم الملائكة، ونظير هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١٦- فضل صالح البشر على الملائكة لتقديمهم في الذكر في الآية، لكن يرد عليه تقديم الملائكة على الرسل في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

١٧- عظم منزلة النبي ﷺ عند الله.

١٨- أن الثيوبة من مقاصد النكاح في بعض الأحيان.

ولما وعظ الله أزواج النبي، وحذَّرهن من المعصية أتبع ذلك بموعظة جميع المؤمنين؛ فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيتان ندب الله للمؤمنين أن يأخذوا بالأسباب التي تقيهم النار، وأن يأمروا أهليهم بذلك، وتضمَّنت وصف النار ووصف الملائكة الموكَّلين بها، وتوبيخ الكافرين على كفرهم، وأنهم لا عذر لهم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا من صدَّقتم الله وأسلمتم وجوهكم له واتبعتم رسوله، فهذا خطاب لطيف من الله لعباده المؤمنين، فيه حثٌّ على الاستجابة ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: اجعلوا لها وقاية من النار بفعل الطاعات وترك المحرمات، وفي ذلك دليل على أن نفس الإنسان أمانة عنده، عليه أن يجنبها ما يضرها ويسعى في منفعتها ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ أي: وقُوا أهليكم من النساء والأولاد عذاب النار، وذلك بتعليمهم شرائع الدين، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتأديبهم بالآداب الإسلامية، وفي الحديث: «**الرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته**»[1]، فيجب على العاقل أن يطلب النجاة لنفسه وأهله، وأن

---

(١) البخاري (٨٥٣) ومواضع أخرى، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يقيهم ﴿نَارٗا﴾ عظيمة هي نار جهنم التي ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو، أي: ما توقد به، أي: حطبها، فأما الوُقود بضم الواو فهو مصدر بمعنى التوقد ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أي: تتوقد بالبشر من الكفار ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي: حجارة الكبريت، كما صحت بذلك الآثار عن ابن عباس وابن مسعود(١).

وقيل: إن هذه الحجارة هي الأصنام التي كانوا يعبدونها، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فهذه النار العظيمة تتوقد بما لا يتوقد به غيرها، فوَقودها بنو آدم وحجارة الكبريت التي هي أشد الأشياء حرًّا إذا أحميت، وأسرعها اتقادا ﴿عَلَيۡهَا﴾ أي: يقوم على النار بتعذيب أهلها ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ هم الزبانية وهم خزنة جهنم ﴿غِلَاظٞ﴾ جمع غليظ، أي: قُساة على أهل النار لا يرحمونهم، والغلظة ضد الرقَّة ﴿شِدَادٞ﴾ جمع شديد، أي: أقوياء، وكلٌّ من غليظ وشديد صفة مشبهة تفيد أن ذلك خُلُقهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ ما مصدرية، أي: لا يعصون أمر الله، بل يمتثلونه ولا يردونه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٣]، ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي: يؤدون ما أُمروا به بلا تراخ ولا إمهال ولا عجز، فإن عدم الامتثال يكون إما عصيانا أو عجزا، وهما منفيان عن الملائكة.

فهذه الآية كقوله سبحانه في وصف الملائكة: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ فهذا نفي للعناد عنهم ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وهذا نفي للعجز عنهم، والحاصل أن ملائكة النار موصوفون بكمال القوة وكمال الانقياد لأمر الله ﷻ، وفي الآية تحذير للمؤمنين وحثٌّ لهم على الثبات على الإيمان، والأخذ بأسباب النجاة.

ولما ذكر الله خبر النار ووصف خزنتها ذكر ما يقال لأهلها الكفار حين يدخلونها، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ خاطبهم بذلك تبكيتا لهم وتقريعا،

---

(١) رواها ابن جرير (١/ ٤٠٣) عند تفسيره آية البقرة ٢٤.

وقال مؤيسا لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ الاعتذار هو الاحتجاج للنفس طلبا للعفو والخلاص، أي: لا تعتذروا عن كفركم وإجرامكم في الدنيا، فلن يقبل منكم عذر؛ فقد قامت عليكم الحجة، وفات الأوان، وهذا تيئيس لهم، وقطع لرجائهم يزدادون به حسرة، وفي الآية دليل على أنهم يعتذرون، فيقال لهم: لا تعتذروا، كما في قوله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] الآيات، وفي بعض الآيات أنهم لا يؤذن لهم في الاعتذار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] وذلك يكون في بعض الأوقات.

و«أل» في «اليوم» من قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ للعهد الحضوري، أي: يومَ دخولهم النار ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما صرتم إليه هو جزاء أعمالكم القبيحة في الدنيا، ولا تُظلمون شيئا، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

۞ الفوائد والأحكام:

١- تشريف المؤمنين بخطابهم بوصف الإيمان.

٢- أن الإيمان بالله ورسوله أقوى البواعث على امتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

٣- أن الله أمدَّ العباد بأسباب الوقاية من عذاب النار.

٤- أن أهمَّ ما على الإنسان في أمر النجاة نفسُه.

٥- أن على الأولياء من الآباء والأزواج وغيرهم حقًّا لأهليهم، وأعظم ذلك تعليمهم ما يجب عليهم تعلمه والعمل به من فرائض الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مما ينجون به من العذاب.

٦- أن منزلة الأهل ـ فيما يُطلب تحصيله أو دفعه ـ بعدَ النفس.

٧- إثبات النار.

٨- بيان فظاعتها؛ لقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

٩- أن للنار ملائكة موكلين بها يفتحون أبوابها ويوبخون أهلها.

١٠- أنهم غلاظ في أخلاقهم أقوياء في ذواتهم، مطيعون لله فيما يأمرهم به، قادرون على فعل ما أمروا به.

١١- عصمة الملائكة؛ لقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾.

١٢- أن الملائكة الموكلين بالنار مكلَّفون في أهل النار بأنواع من العذاب، وهم قادرون وفاعلون لما يؤمرون به من ذلك، وفي الخبر عن ذلك مزيد تهديد ووعيد، نعوذ بالله من النار.

١٣- توبيخ الكفار على كفرهم.

١٤- أنه لا ينفعهم اعتذارهم.

١٥- أنهم يجزون بأعمالهم.

١٦- أن جزاءهم متضمن لعدل الرب سبحانه.

١٧- أن الله أعذر إلى الخلق في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فلا يقبل في الآخرة اعتذار من كافر.

ولما وصف الله النار وخزنتها، وبين سوء حال الكافرين يوم القيامة، نبَّه سبحانه على أن الوقاية من النار تكون بالتوبة النصوح، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هذه الآية إرشاد من الله للمؤمنين إلى التوبة النصوح، وهي المستوفية لشروط التوبة، وفي الآية بشارتهم بعاقبة ذلك من تكفير السيئات ودخول الجنات، ويومئذ لا يخزيهم الله بإخلاف وعده، ومن تمام كرامتهم أن الله يعطيهم نورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا رأوا المنافقين قد انطفأ نورهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا من آمنتم بالله وصدقتم رسوله وعملتم بشرعه ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ارجعوا إلى الله من جميع المعاصي كبيرها وصغيرها ﴿تَوْبَةً﴾ مصدر مبيِّن للنوع ﴿نَّصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة خالصة، وأصل النُّصح خلوص الشيء، ومنه خلوص الودِّ، وعسلٌ خالص، والتوبة النَّصوح هي التي تحققت شروطها من الإخلاص والإقلاع عن الذنب والندم، والعزم على عدم العود، ورد الحقوق لأصحابها، وإن فقد شرط منها لم تكن نصوحا ولا تصح،

والتوبة واجبة على الأعيان من جميع الذنوب، في جميع الأوقات، وفي جميع الأحوال، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال ﷺ: **«يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»**[١]، وقال ﷺ: **«لله أشد فرحا بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته، إذا وجدها»**[٢].

قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي: يتجاوز عنها ويسترها، و«عسى» من الله واجبة، فقبول التوبة وتكفير السيئات وعدٌ محقق ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ وهو محمد ﷺ، فأل للعهد الذهني ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ أي: لا يعذبهم بدخول النار؛ لأن من يدخله الله النار فقد أخزاه أيَّ خزي، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وخصَّ النبي بالذكر لما تقدم في صدر السورة من بيان علو منزلته في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، فيكون النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر بوصف النبوة في هذه السورة ثلاث مرات.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ يحتمل أن يكون المراد الصحابة كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩] فتكون الآية دالة على فضلهم ونجاتهم، أو المراد جميع أتباعه من أمته، ووصفهم بالإيمان دليل على أنه سبب نجاتهم، وفيه التعريض بالكافرين وأن الله مخزيهم. قوله: ﴿نُورُهُمۡ﴾ أي: على الصراط ﴿يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: يضيء أمامهم للاهتداء به ويسعى بسعيهم ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: عن أيمانهم، وقيل: وبأيمانهم كتبهم، ولا دليل على هذا من سياق الآية ﴿يَقُولُونَ﴾ الجملة حالية، أي: قائلين حين يرون المنافقين قد طَفِئ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نورهم وجعلوا يمشون في ظلمة: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ أي: أتمَّه وأدمه حتى ندخل الجنة ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾ ذنوبنا، أي: تجاوز عنها واسترها ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: قادر على إتمام نورنا وغفران ذنوبنا وعلى كل شيء، وختموا هذا الدعاء بقولهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لأن إتمام النور والمغفرة راجعان إلى كمال قدرته تعالى.

والحاصل أنَّ حال المؤمنين لا تخلو من الرغبة والرهبة حتى في عرصات القيامة وبعد إشراق نورهم، قال سهل بن عبد الله: «لا يسقط الافتقار إلى الله ﷻ عن المؤمنين في الدنيا ولا في الآخرة، بل هم في الجنة أشدُّ افتقارا إلى ربهم، وإن كانوا في دار العزِّ؛ لشوقهم إلى لقائه»(١).

۞ الفوائد والأحكام:

١- تكريم المؤمنين بخطابهم بنعت الإيمان.

٢- أن الإيمان يبعث على التوبة النَّصوح.

٣- وجوب التوبة النَّصوح.

٤- أن التوبة النَّصوح سبب لتكفير الذنوب والسيئات ودخول الجنة.

٥- أن تكفير السيئات يتضمن النجاة من العذاب.

٦- أن تمام الفوز يكون بدخول الجنة؛ ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾.

٧- أن ما وعد الله به المؤمنين من تكفير السيئات ودخول الجنات متحقق؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

٨- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ١٠٥).

ٱلْقِيَـٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

٩- إثبات الجنة.

١٠- أن فيها أنهارا جارية.

١١- أن الحرمان من دخول الجنة خزيٌّ كدخول النار.

١٢- عصمة النبي ﷺ والمؤمنين من ذلك.

١٣- أن دأب المؤمنين الدعاءُ حتى في يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾.

١٤- أن المؤمنين يعطون نورا يهتدون به على الصراط.

١٥- أن ذلك يكون قبل دخولهم الجنة.

١٦- أن المؤمنين في هذه الحال بين الخوف والرجاء، كما يدل على ذلك دعاؤهم.

١٧- فضل اليمين على الشمال.

١٨- أن الناس يسيرون على الصراط في ظلمة إلا من أعطاه الله نورا.

١٩- التوسل في الدعاء بربوبيته تعالى وقدرته على كل شيء.

٢٠- إثبات قدرة الله على كل شيء.

٢١- الرد على المعتزلة في إخراجهم أفعال العباد عن قدرة الله.

٢٢- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ الآية [الحديد: ١٣].

ولما أمر الله المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من عذاب الله والمصير إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، وأمر المؤمنين بأعظم واق من السيئات وهي التوبة النصوح، وكان الخطر الذي يُخشى منه على الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم هم الكفار والمنافقين؛ أمر الله بجهاد الفريقين حماية للمسلمين من شر هذين العدوَّين فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

في هذه الآية تكليف من الله لنبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، جهاد الكفار بالقتال، وجهاد المنافقين بالتحذير والتهديد الشديد، والتوبيخ على أفعالهم القبيحة، مع الغلظة عليهم جميعا.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ الجهاد مصدر جاهد، وهو بذل الجهد لتحصيل أمر، فقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: بالقتال بالسيف وبسائر السلاح ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ باللسان بمواجهتهم بالحجة والبرهان وإقامة الحدود عليهم، فإنهم معصومو الدماء لإظهارهم الإسلام، وإن كان مآل الفريقين في الآخرة واحدا، ولما كان النبي ﷺ مجبولا على الرحمة واللين، وكان هذا دأبه مع جميع الطوائف أمره الله بالغلظة مع المنافقين والكفار المحاربين؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: على الفريقين، ولا تأخذْك بهم رأفة؛ فطالما لنت لهم، ولم

يُجد فيهم ذلك؛ فإنهم ماضون على الفساد والإفساد، وفي هذا الإغلاظ عليهم إرهاب لهم وكسر لشوكتهم، هذا كله في الدنيا ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مستقرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهي نار الله الموقدة التي تنتظرهم، والجملة مستأنفة ﴿وَبِئْسَ﴾ أي: بلغ النهاية في البؤس والشر والضرر ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المآل الذي يصيرون إليه، و«بئس» فعل ماض لإنشاء الذم، والمصير فاعل، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس المصيرُ جهنم، نعوذ بالله منها.

۞ الفوائد والأحكام:

١- تشريف الله نبيه ﷺ بخطابه بوصف النبوة.

٢- أن النبي ﷺ مكلَّف بجهاد الكفار والمنافقين.

٣- في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

٤- وجوب جهاد كلٍّ من الطائفتين بما يليق بهم، حسبما دلت عليه سيرته ﷺ.

٥- أن سبيل المنافقين سبيلُ الكفار في الوعيد في الدنيا والآخرة.

٦- وجوب الغلظة على الكفار والمنافقين في جهادهم.

٧- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧].

٨- أن الكفار والمنافقين هم العدو للمؤمنين، وهم الأخطر على مجتمعهم وأُسَرهم، لا يألونهم خبالا، أي: فسادا، وبذا تظهر مناسبة الآية لما سبقها.

٩- أن مصير الكفار والمنافقين في الآخرة جهنم، لكن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

١٠- أن جهنم أسوأُ مصير، نعوذ بالله منها.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمنت الآيات ضرب المثل بامرأتين كافرتين: امرأة نوح وامرأة لوط، وامرأتين مؤمنتين: امرأة فرعون ومريم؛ ففي المثل الأول بيان أن صلة الكافر بالمؤمن الصالح لا تنفعه ولا تغني عنه عند الله، وفي المثَل الثاني بيان أن صلة المؤمن بالكافر نسبا أو صهرا لا تضره عند الله، وكذا البريء يُتهم لا يضره ما قيل عنه بغير حق.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ «ضَرَب» بمعنى صيَّر وجعل، و«مثلا» مفعول أول، و«امرأة نوح» مفعول ثان، المعنى: مثَّل الله مثلا للكافرين في عدم انتفاعهم بقرابة المؤمنين بحال امرأة نوح وامرأة لوط، وضرب المثل هو إيراد حالة معروفة الحكم والسبب وجعلها مثلا يحتذى في شأن واقعة مشابهة لها؛ لاعتبارها بها ترغيبا أو ترهيبا؛ ليعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة للعظة والاعتبار، ثم بيَّن الله المثل بقوله: ﴿كَانَتَا﴾ أي: امرأة نوح وامرأة لوط مع كونهما كافرتين ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾

أي: كانتا زوجتين لهما، ولم يقل: تحتهما، بل وصفهما بالعبودية، أي: أنهما قائمان بحقها، وأضافهما الله إليه تشريفا لهما وتكريما، ثم وصفهما بالصلاح على سبيل الترقي، وناهيك بمن شهد الله له بالصلاح وهو رسول، مع ما فيه من عدم إفادة ذلك للزوجتين ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: فخانت كل واحدة منهما زوجها بالكفر والأذى والتآمر عليه، لا بالزنى، قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط(١). ومثله عن الضحاك(٢)، وقال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

قوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أي لم يدفعا عن المرأتين من عذاب الله ﴿شَيْـًٔا وَقِيلَ﴾ للمرأتين عند الموت أو في الآخرة: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: في زمرة الداخلين فيها من سائر الكفرة، والقصد بهذا المثل أن الإنسان لا ينفعه إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره ممن له صلة به، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى.

ثم إنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بحال امرأة نوح وامرأة لوط في أنهما لم ينتفعا بصلاح زوجيهما، ضرب الله - في مقابل ذلك - مثلا للمؤمنين بحال امرأة فرعون؛ إذْ لم يضرها أن كانت زوجة لكافر، فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: مثّل الله مثلا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسية بنت مزاحم وكانت آمنت بموسى ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ أي: حين قالت ﴿رَبِّ﴾ أي: يا رب ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: قريبا منك، قيل: اختارت الجار قبل الدار ﴿وَنَجِّنِى﴾ أي: خلصني وأنقذني ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: من سلطان فرعون

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٩٥)، وابن جرير (١٢/ ٤٢٩).
(٢) رواه ابن جرير (٢٣/ ١١٢).

وعملـه مـن الكفر والظلم ﴿وَنَجِّنِي﴾ أعادت الفعل تأكيدا، وذلك حسَـن في الدعاء ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: قـوم فرعـون الكافريـن، وفـي الآية دليـل على أن مـن لجـأ في الشـدائد إلى الله نصـره وآواه، وأن ذلك هو دأب الأنبياء والمرسـلين وعباد الله الصالحين، ولقد أكثر المفسـرون القول بذكر ما جرى لها من التعذيب بأمر فرعون، والله أعلم بذلك.

وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ معطوف على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، فهو من جملة المثـل الثانـي، أي: وضرب الله مثلا عظيما للذين آمنوا مريم ابنة عمران، وهو مثل أعلى في الطهر والعفاف ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة، فهي عفيفة طاهرة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ النافخ فيه جبريل عليه السلام، وأسند الله النفـخ إلى نفسـه لأنه الآمـر به، فهو من باب الإسـناد إلى السـبب، والضمير «فِيهِ» يعود إلى الفرج، وما ذكره كثيرٌ من المفسرين من أن الضمير يعود إلى جيبها فقول ضعيـف، قال عنه شـيخ الإسـلام ابن تيمية: «ليس بشـيء؛ بل هو عدول عن صريح القرآن»[1]، وجعله الزمخشـري من بدع التفاسـير[2]، وقوله: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ مِن للابتـداء، والـروح جبريـل عليه السلام، أي: ابتـداءُ النفـخ مـن جبريل، وفي سـورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: آمنت بقدر الله وسلَّمت لقضائه، وآمنت بكتبه المنزلة على رسـله وما فيها من الشرائع، ولهذا سمَّاها الله صديقـة فـي سـورة المائدة، ولـم يذكـر الله في القرآن اسـم امـرأة غيرها ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ أي: وصـارت فـي عـداد الكامليـن الخاضعيـن لله المداومين على طاعتـه، والتذكيـر في ﴿ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ على التغليب إذْ لـم يقل من القانتات، قال ﷺ:

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٦٨).
(٢) الكشاف (٤/ ١٣٢).

«كمُل من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران»(١)، وقال ﷺ: **«أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»**(٢).

وفي الآيتين الأخيرتين إيماء لطيف لحفصة وعائشة أن تكونا كهاتين المرأتين في الإخلاص والعبادة، وألَّا تتكلا على قربهما من النبي ﷺ؛ فإن ذلك ليس بنافع لهما إلا مع العبادة والإخلاص والتجافي عن الدنيا وزهرتها، وبهذا يظهر حسن التناسب بين أول السورة وآخرها.

۞ الفوائد والأحكام:

١- أن من طرق البيان ضرب الأمثال.

٢- أن حكمَ الشيء حكمُ نظيره، ففيه:

٣- إثبات القياس.

٤- تحذير المؤمنين والمؤمنات من الاعتماد في النجاة على القرابات وما أشبهها من الصلات.

٥- أن امرأة نوح كافرة، وأنها غرقت وصارت إلى النار.

٦- أن امرأة لوط كافرة، وأنها هلكت بما هلك به قومها، وصارت إلى النار.

٧- أن نوحا ولوطا عليهما السلام لم يغنيا عنهما من الله شيئا.

٨- الثناء من الله على نوح ولوط بالعبودية والصلاح.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٤٣١)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٦٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٣): «رجاله رجال الصحيح»، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح».

٩- الإشارة إلى كثرة عباد الله الصالحين؛ لقوله: ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾.

١٠- أن صلة الإنسان بنبيٍّ أو صالح بنسب أو صِهر لا تغني عنه من الله شيئا.

١١- أنه لا نجاة إلا بالإيمان.

١٢- الإشارة إلى تحذير عائشة وحفصة من الاغترار بمكانهما من النبي ﷺ.

١٣- في الآيات شاهد لقوله ﷺ لعشيرته وعمِّه وعمَّته: «**لا أغني عنكم من الله شيئا**»[1].

١٤- أن آسية امرأة فرعون مؤمنة، بل هي من الكاملات من النساء.

١٥- أن من فضلها لجوءها إلى الله بطلب النجاة وبطلب الثواب.

١٦- بغضها لفرعون وعمله وقومه.

١٧- إيمانها بالجنة.

١٨- علمها بأن في الجنة بيوتا تُبنى لأهلها.

١٩- إثبات عندية القرب.

٢٠- صحة أنكحة الكفار؛ لقوله: ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

٢١- أن مريم عليها السلام صديقة؛ لقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾.

٢٢- فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

٢٣- أن مريم أبوها عِمران، وتفصيل خبر ولادتها في سورة آل عمران.

٢٤- ثناء الله على مريم بالطهر والعفاف.

٢٥- أن النفخ الذي خُلق منه عيسى عليه السلام كان في فرج مريم، لتصريح القرآن

---

(١) رواه البخاري (٢٦٠٢)، ومسلم (٢٠٦)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بذلك، خلافا لما اشتهر عند كثير من المفسرين أن النفخ كان في جيبها.

٢٦- إيمان مريم بكلمات الله الكونية والشرعية، وهي الكتب.

٢٧- إثبات كلمات الله الكونية والشرعية.

٢٨- ثناء الله على مريم بأنها من القانتين، والقنوت دوام الطاعة والعبادة.

وبهذا ينتهي هذا الكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
سورة المجادلة ٧
سورة الحشر ٥٩
سورة الممتحنة ١١٩
سورة الصف ١٥٧
سورة الجمعة ١٩١
سورة المنافقون ٢١٩
سورة التغابن ٢٤٥
سورة الطلاق ٢٧٩
سورة التحريم ٣٠٧